حكايات صغيرة

د. بشير عبد الواحد يوسف

الكتاب: حكايات صغيرة

المؤلف: د. بشير عبد الواحد يوسف

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع: ٥٣٦٩ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978 – 977 – 493 – 246 – 5

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور . الهضبة الوسطى . المقطم . القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٢٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف: الفنان Ludwig-Deutsch



حكايات صغيرة

من حكايات الشعوب

يرويها:

د. بشير عبد الواحد يوسف

حكايات صغيرة

في عدد أسطرها

كبيرة في معناها

وحكمتها وموعظتها وفائدتها

قال البلغاء :

خير الكلام ما قلَّ وجلَّ ودلَّ ولم يُملّ

إهـداء

أهدي هذه الحكايات إلى:

أولادي وزوجتي

وإخوتي وأخواتي

وكل أصدقائي

وشكري وتقديري إلى صديقي العزيز

سهيل نجم عبد الله

لإسناده الفني ودعمه المعنوي

د. بشير عبد الواحد

مقدمة المؤلف

بسم الله ربنا جميعًا...

الذي أنعم علينا بنعمة العقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة.

هذه حكايات شعبية واقعية، راعينا فيها دقة الاختيار لتكون غذاءَ أدبيًا خفيفًا مفيدًا تتقبله الأذواق على اختلاف ثقافاتهم... حكايات تجمع بين المتعه والفائدة، لا تخلو من موعظة حسنة، وحكمة بليغة مؤثرة...

حكايات طريفة صغيرة في حجمها، لكنها كبيرة في معناها، قصدت من جمعها لتكون ثقافة عامة لمن يقرأ ها ترويحًا عن النفس، وليزداد المرء خبرة وتجربة في الحياة...

حكايات مستوحاة من واقع الحياة... من مجالس ومضائف أهوار الجنوب، ومن التراث العراقي الشعبي، ومن خلال رحلاتي المتعددة إلى كثير من دول العالم... وكثير من هذه الحكايات رسخت بذاكرتي وأنا صبي يافع أسمعها من جدي وجدتي وأمي وأبي ونحن نجلس حول الموقد أيام الشتاء في البصرة الفيحاء. وكثير منها سمعتها وأنا أجلس في مضيف جديّ البسيطين من أهل الحكمة والبصيرة.

وهذه الحكايات إن لم يجمع بينها وحدة الموضوع، فقد جمعت بينها وحدة الغرض، وشرف الغاية، وجمال الهدف، وعموم النفع، وبساطة الأسلوب.

أرجو أن تكون هذه (الحكايات الصغيرة) موضع الرضا والقبول من القرّاء الكرام.

وإني أسأل الله أن يوفقني فيما اجتهدت به.

ولا ينفع الاجتهاد من غير توفيق،

وما توفيقي إلا بالله رب الناس أجمعين.

تقديم

هيثم نافل والي
قاص وروائي مغترب
ميونيخ / ألمانيا

الحكواتي _ إن صح التعبير _ كمعلم التاريخ الذي لم يعد يكترث للحوادث من كثرة ما قرأ في التاريخ من مصائب؛ لذلك هو لا يختلف في عظمته، وتجلده، وصبره، وحكمته، وقوة حساسيته لما سيقع من حوادث يتصور أو يتكهن في وقوعها من كثرة ما سمع وحفظ وحكى من حكايات لا تختلف في مضمونها عن مصائب التاريخ، فأصبحت له حصانة لا تقل عن حصانة الإنسان السليم ضد مرض أخذ مضاده قبل إصابته به... وهنا يكمن سرّ الكثير من الحكايات الشعبية المتداولة التي تخفي في باطنها أكثر مما يفصح عنها ظاهرها، وهذا هو الإبداع الفني الأدبي الحقيقي للحكاية.

الرمز كان وما زال فسيلة من فسائل الفن والأدب، يتخذ به لمعالجة الكثير من الأمراض الاجتماعية التي تصيب هذا المجتمع أو ذاك، والبراعة تبقى كما تقول الحكايات: أن تجعل الحجر يلين ويبكي!

عُرِفت الشعوب منذ القدم بأساطيرها، وأمثالها، وحِكمها والحكايات هنا التي هي جوهر كتابنا وحديثنا كانت وما زالت تلهب المشاعر وتغري النفوس على سماعها والتصنت لها بروح هائمة، سابحة في فضاءات لا حدود لها غير الأفق ومحاولة حفظها وترديدها وقصها للغير، ويتم تداولها وإرثها لما بعدنا على شكل هالة كلامية، قصصية ذات طابع أدبي متميز تزداد قيمتها الجمالية كلما بعد بها الزمن كالتحف الأثرية.

غالبًا ما تكون الحكايات من نسج الخيال، وقد يكون للواقع فيها نصيبٌ لا يستهان به، يستطيع صاحب الحكاية أو مؤلفها أن يُطيل أو يقصر فيها، ويمكن له أن يجعل لها نهاية مُرضية يحبها السامع، أو محرجة أو غريبة يتمنى المتلقي حدوثها كالشيء الخارق، أو ألا يجعل لها نهاية بالمرة ويبقيها مفتوحة، مشرعة الأبواب ليدخل خيال المستمع ويظل يعمل فيها حتى يضع ما يجده مناسبًا حسب اعتقاده لها.

في الأدب العربي عُرفت الحكايات وانتشر صيتها كنوع من أنواع الأدب العربي، كنصٍ خالٍ من القيود التي تعرفها القصة القصيرة مثلاً، زمنها يطول أو يقصر، متعددة الشخوص والأبطال، لا يحدها زمن ولا مكان، وخيالها رحب وواسع كواقعها الذي غالبًا ما يكون مأساويًا كحياة الغربة؛ كي تعطي للمتلقي كلمة، أو حكمة، أو عبرة، أو فرصة كما يقال، تجعله يبتعد عن تكرار فعل البطل الخاطئ داخل عالم الحكاية.

كلنا مررنا بتلك الأدوار، وأكاد أعتقد بأن لا أحد منا تخلف عن الدور، جلسنا نستمع لحكايات الأكبر منا، وفي أعمار بدأت مع نعومة أظافرنا، سمعنا للجدة والجد، للخالة والخال، للعمة والعم، للأم والأب ونحن نطلب المزيد، ولم نكن ننام تقريبًا إلا بعد أن نسكر بنشوة رحيق تلك الحكايات التي كانت تُسرد وتُقص بطرق اختلفت حسب مقدرة حاكيها من حيث الحركة والصوت والتعبير، وكل هذا كان له دورٌ في سلب إرادتنا، فنستمع لهم كالمسحورين، لا نملك من أنفسنا شيئًا بعد أن يغلب علينا التأثير مداه حدَّ تقمص شخصيات أبطال تلك الحكايات التي نعيد تمثيلها فيما بعد ونتفنن في تصويرها أمام أنفسنا حينًا والمقربين من حولنا حينًا آخر.

وهنا يعرض علينا الدكتور "بشير عبد الواحد يوسف" فنونه بكل عفوية وبساطة، يخرج لنا بمجموعة من تلك الحكايات التي ألهبت روحه عندما كان طفلاً يسمعها، ثم هام بها وحفظها، كبرت معه كعمره، عاش تفاصيلها بحلوها ومرها، تعلم منها وأراد أن يُعلِّمها لما فيها من عِبر وحِكم ونصائح وتفاصيل تأسر القلوب وتحبس

الأنفاس وأنت تواجهها بأحداثها وشدتها وفكرتها وحبكتها ومعالجتها الفكرية والاجتماعية... يقدِّمها لنا بأجمل حالة، وأعتقد بأنه سيكون له صدى واسع، طيب ومحبوب لدى القارئ العربي فيغرق في مفاصل حياتها (الحكاية) ولا يخرج منها إلا بعد أن يكون قد حفظها ليحكيها لغيره، كما حفظها الدكتور عبد الواحد من قبل ليرويها لنا اليوم.

وردت بالكتاب بعض الكلمات باللهجة العراقية، ونورد هنا معانيها:

الكلمة	معناها	الكلمة	معناها
جلب	كلب	صغيرونة	صغيرة
الكَاع	الأرض	مْحَفوظ	حفظك الله
منين	من أين	زبدات	زيت (دهن)
الحوشية	حرس الشيخ	صاية	زبونة (جلباب)
المطايا	الحمير	كَودبند	مكتف
الهوش	البقر	الخثي	فضلات الحيوان
السمج	السمك	يزوع	يتقيأ
الزوري	السمك الصغير جداً	صمون	نوع من العيش
يبحوش	يبحث	حامض حلو	نوع من الحلويات
فرواه الماري	شكراً لله	تخبلت	تجننت
خوش أوادم	ناس جيدة	كيتلي	براد
وين	أين	كلاص	قدح
شْنو	ماهو(ماذا يعني)	سطلين	كردلين
المحلة	المنطقة(الحتة)	بيكب	سيارة حمل صغيرة
مكوار	عصاه غليضة	غشيم	أهبل
الزبون	الجلابية	الدرابشا	علم النبي يحيى

الغترة	الكوفية	ملواشتي	اسمي الديني
الخاثر	الحليب الرائب	اليردنة	الماء الجاري
علج الفكَر	علك لبان	رقية	بطيخة
الفكَر	الفقر	المهَيل	فيه حبة هال
الوغيرونة	الصغيرة	الدليمية	أكلة غرب العراق
دهفة ديمانة	عيد خاص	مطموش	مطهر
مهروثة	مرقة سمك	البشة	البطة
يميناً تراصف	على اليمين حذة	فصمة	نواة
عادةً سِرْ	معتدل مارش	كنشي وزهلي	يوم بدء العيد
رواه نهويلهم	المغفرة لهم	الشكندة	الشاهد
هيي قدمايي	الحي القديم	طابوكَة	حجارة
وَشَرَ	حَدَّ	سِيامة	أسلاك
يروش	يزدحم	مسحاته	المعول
الجتني	نوع من طرشي العمبة	التمن	الرز
متهيمن	متمسك بتعاليم الدين	المَمة	البزازة
جوال	راعي البقر	تَنَكة	صفيحة
مخيط	إبرة كبيرة	جامخانات	فاترينات
شِلِتْ مندر	كيس مرتبة	عرق هبهب	خمر مشهور في العراق

الجــرس

في سفرة مدرسية نزل الطلاب في بستان كبير، تُسقى أشجاره وثماره بناعور يدور فيه حمار، ومعلق في رقبته جرس يصدر صوتًا أثناء دوران الحمار.

مدير المدرسة يسأل الفلاح:

– ما فائدة هذا الجرس يا رجل؟

– أستاذ، عندما لا أسمع صوت الجرس فهذا يعنى أن الحمار توقف عن الدوران بسبب التعب أو النعاس فأصيح به فيستمر بالدوران.

– يا رجل ماذا تقول لو وقف الحمار وحرك رأسه ضاحكًا عليك؟

فقال الفلاح:

– ومن أين ليَ بحمارٍ يكون عقله مثل عقل المدير!

أسئلة محيِّرة

يقال إن أحد الحكماء له ولدٌ نبيهٌ حاد الذكاء متوقد الذهن كثير السؤال، أسئلته كلها محيِّرة يصعب الإجابة عليها... سأل مرة أباه قائلاً:

- بربك يا أبتي هل تقدر أن تجيبني عن هذه الأسئلة الثلاث؟

فقال له أبوه:

- وما هي؟

قال:

- أولاً: أريد أن تصف لي شكل الله؟

ثانيًا: هل من الممكن أن أرى الله؟

ثالثًا: ما معني القضاء والقدر؟

فكَّر الحكيم، ثم فاجأ ولده بلكمة قوية على فكه.

جفل الولد من قوة اللكمة وصرخ متألمًا:

- لقد آلمتني يا أبتي... إن فكي الآن يؤلمني بشدة... لماذا ضربتني؟ وماذا فعلت لتضربني هذه الضربة المؤذية؟

قال أبوه الحكيم:

- لأجيبك عن أسئلتك يا ولدي:

إن الإجابة عن السؤال الأول: يا ولدي الألم الذي تعاني منه هل تقدر أن تصف

لي شكله؟

قال:

- لا.

- طيب يا بني، إذا كنت لا تتمكن من وصف شكل الألم، كيف أستطيع أن أصف لك شكل الله؟!

وإجابة السؤال الثاني:

هل ترى الألم الذي يؤذيك الآن؟

قال:

- لا.

- ولكنك تحسه وتشعر به وتدركه.

قال:

- هذا صحيح.

- إنك تحس الله وتشعر به لكنك لا تراه، إنك تحسه بشعورك وإحساسك ومواجد قلبك وتدركه بعقلك.

أمَّا جواب السؤال الثالث عن القضاء والقدر: هل كنت تعلم أني سأوجه لك لكمة تسبب لك هذا الألم؟

قال الفتى:

- لا يا أبتي.

- هل أنت على موعد مع هذه الضربة؟

قال:

- لا.

- هل توقعت أني سأضربك لو سألتني؟

قال:

- لا.

- هل حلمت أني سأضربك لو سألتني؟

قال:

- لا.

- إذًا حصل كل ذلك بغتة وفي لحظة لم تحسب أنت حسابها ووقع عليك القضاء والقدر.

قال الفتى:

- شكرًا يا أبتي لأنك أقنعتني، ولكنك آذيتني بهذه اللكمة المباغتة وحرَّمت أن أسألك أسئلة محيرة.

الدليل القاطع

خصص المأمون أيام خلافته يوم الأربعاء من كل أسبوع للاستماع لكل مَن لديه إعجازٌ بدليلٍ قاطع...

ذات يومٍ قال القاضي للمأمون:

– إن بالباب رجلاً يدَّعي أنه نبي الله إبراهيم الخليل.

فقال المأمون:

– ائتوني به.

وقال له:

– يا رجل، إن معجزة الخليل أنه قد أُلقيَ في النار فكانت بردًا وسلامًا عليه، فنحن الآن سوف نلقيك في النار لنرى إعجازك.

قال الرجل:

– يا مولاي، أريد واحدة أخف من هذه.

فقال المأمون:

– نبي الله موسى ألقى عصاه فصارت حية تسعى.

قال:

– هذه أصعب من النار.

فقال المأمون:

- فمعجزة عيسى إحياء الموتى.

فقال:

- نعم مولاي، هذه أقدر عليها، سأضرب بسيفي هذا رقبة القاضي، وسوف أحييه لكم في هذه الساعة.

فصاح القاضي:

- أنا أول من آمن بنبوتك وصدقك.

فضحك المأمون وأعطاه ألف دينار.

صديق و نصف صديق

يحكى أن تاجرًا معروفًا من أهل البصرة اسمه "خماس"، ولده الوحيد اسمه "زهير" له شلة من الأصدقاء يصرف عليهم من مال أبيه، وبعد أن تعب الأب من النصح والتوجيه دون فائدة، طرد زهير من المتجر ومن البيت.

ذهب زهير لأصدقائه في المقهى مهضومًا مكظومًا وحكى لهم ما حصل.

ظن أصدقاء زهير أن ما هو إلا يوم أو يومان ويحنُّ قلب الأب على ولده، وترجع المياه لمجاريها، لكن مرَّ يوم ويومان وثلاثة... وعندما أيقنوا أن صديقهم زهير مفلس انفكوا من حوله، حتى صاحبيَّ المقهى والمطعم أخبراه بعد أن ثقلت ديونه بأنهما معذوران في طرده.

فأخذ زهير يتسكع في الشوارع بلا مأوى ولا طعام إلا القليل، وانقضى شهر وزهير من سيء إلى أسوأ، ففكَّر زهير مليًا وقرَّر اللجوء لأهله، وشكا حاله وبكى بين يدي أبيه وقبَّل يديه.

فقال له أبوه:

- اسمع يا ولدي، أنا عمري ستون عامًا ولي صديق ونصف صديق، وأنت عمرك خمسة وعشرون سنة وعندك عشرون صديق.

فتعجب زهير وسأل أباه:

- ما معنى نصف صديق يا أبتي؟!

- اليوم أعرفك بهما، وعلى الله تفهم.

بعد أن انتصف الليل أخذ الوالد ولده وذهبا إلى النصف صديق ماجد ودقَّا الباب، وكان الناس ينامون فوق السطوح أيام زمان تجنبًا لحر الصيف، فجاء الصوت:

- مَن الطارق؟

فأجاب:

- أنا خماس أبو زهير.

فقال:

- أمهلني حتى ألبس دشداشتي وأنتعل نعلي وأنزل إليك.

وفتح الباب وهو مستغرب:

- ما الأمر يا أبا زهير؟ خوفتني.

قال:

- اسمعني جيدًا يا ماجد، إن مراكبي التي تحمل تجارتي القادمة من بومباي غرقت فأصبحت عليَّ ديون ثقيلة للناس عجزت عن تسديدها بعد أن بعت كل ما أملك، وقد حكم عليَّ الخليفة بالإعدام غدًا في الميدان العام، وجئت الآن لأودعك.

فأطرق ماجد وقال:

- لا والله، أنا أفديك يا صديقي بمالي، فلا تخف يا أبا زهير.

فودعه، ثم ذهب خماس مع ولده زهير إلى الصديق جمال وطرقا الباب، فصاح: -

من الطارق؟

فأجاب:

- أنا خماس أبو زهير.

فنَزل جمال مسرعًا بملابسه الداخلية وفتح الباب مرعوبًا:

- ماذا حصل يا أخي؟ ما الأمر الجلل الذي جاء بك مع ولدك في مثل هذه الساعة؟

فحكى له ما أصابه.

فحضن جمال صديقه وبكى وقال بصوت متهدج فيه نبرة خوف:

- أبشر يا أخي، أنا أفديك بنفسي وعائلتي وبكل ما أملك من مال وعقار، اطمئن يا صديقي، أنا والله إن عجزتُ عن خلاصك أموت قبلك.

وودع خماس صديقه جمال وعاد مع ولده إلى البيت.

وعند الفجر، ومع أول خيوط ضوء الصباح ذهب خماس مع ولده زهير إلى الميدان العام، فوجدا نصف الصديق ماجد وقد جلب معه ما يملك من ذهب وفضة ونقود ليفدي بها صديقه.

ثم ذهبا إلى الصديق جمال فوجداه مع عائلته وقد لبسوا أكفانهم وجلبوا معهم كل ما يملكون حتى أثاث بيتهم، حتى المكنسة... فقال الأب لولده:

- هذا جمال صديقي، وذاك ماجد نصف الصديق، فهمت الآن يا ولدي زهير؟

فقبَّل يديَّ أبيه وبكى، وقال:

- فهمت يا أبتي، والله فهمت يا أبتي، سامحني، بربك سامحني.

ويبقى السؤال أيها القارئ الكريم:

– هل بقى شيء اسمه نصف صديق؟!

(والحُرُّ تكفيه الإشارة).

الـديــك

"أم حسن" أرملة فقيرة تعيش من تربية الدجاج البياض، وتفقيس البيض بالطرق البسيطة والاعتناء بالكتاكيت. ولدها الوحيد "حسن" صبي يافع طالب في الصف الثاني متوسط، معلم الرياضة في المدرسة طلب من طلابه أن يشتروا ملابس للرياضة... حسن طلب من أمه نقود... أم حسن ليس عندها نقود، ولكن عندها اثنان من الديكة، أعطته أحدهما ليبيعه... حسن أخذ الديك للسوق لبيعه.

في الطريق، فرَّ الديك من حسن وحطَّ في أحد البيوت، فقفز حسن الحائط وراء الديك، دخل الديك إحدى الغرف، فتبعه حسن يريد الإمساك به، فوجد في الغرفة رجلاً وامرأة في وضع غرامي.

في هذه الأثناء رنَّ جرس الباب، ارتعبت المرأة، وخافت، وقالت للرجل:

– دخيلك هذا زوجي القصاب سيذبحنا، أسرع ادخل الدولاب.

دخل الرجل وهو يرتعد خوفًا، ودخل معه حسن والديك...

حسن يبتز الرجل الغريب ويقول له:

– تشتري عمي هذا الديك؟

الرجل يرفض العرض.

– شوف عمي إذا ما تشتري الديك أنا أخرج من الدولاب هسه والله الساتر.

- عمي، شكد تريد؟
- ٢٥٠٠٠ دينار.
- تفضل.

- عمي، تبيع الديك بـ ٥٠٠٠ دينار؟

الرجل، يرفض وحسن يهدد بالخروج من الدولاب، فيوافق الرجل.

حسن مرة ثانية:

- عمي، تشترى الديك؟
- عمي، شكد تريد؟
- أريد ٢٥٠٠٠ دينار.

ثم يعود فيشتريه بـ ٥٠٠٠ دينار، وهكذا، حسن يكرر ابتزاز الرجل الغريب مرات وما زال عنده الديك.

في هذه الأثناء دخل القصاب ليستحم، ففتحت المرأة لهما باب الدولاب وهربا على وجه السرعة.

حسن جاء لأمه فرحًا وأخبرها بالذي حدث وأعطاها ١٢٥٠٠٠ دينار.

- حسن ولدي، هذه فلوس حرام، ابني اذهب إلى شيخ الجامع وأخبره هل هذه الفلوس حلال أم حرام؟

حسن يسأل شيخ الجامع.

الشيخ:

- وِلك أنت أبو الديج لا يا ابن الجلب.

شخلف الملعون كلباً مثل أبيه

يحكى أن أميرًا ورث الحكم من أبيه الظالم الجلاد، فأراد أن يحسِّن الصورة ويفهم الرعية أنه رؤوف بالشعب ويسعى لرعاية مصالحهم وحل مشاكلهم، فدعا الشعب إلى اجتماع موسع في باحة قصره المنيف، وأطلَّ عليهم مع الحاشية من شرفة القصر ليحييهم ويسأل عن معاناهم، وهم فرحون، يغنون ويرقصون.

فسألهم الأمير بصوتٍ جهوري:

– شعبي الصابر المكافح العزيز، سنلتقي يوم الجمعة صباحًا في نهاية كل شهر في هذه الساحة؛ للنظر في مشاكلكم، ووضع الحلول الناجعة لها.

فهلَّل وكبَّر الناس بصوت مدوي هزَّ أركان القصر.

لاحظ الأمير أن شابًا من رعيته اندفع بقوة وعنفوان باتجاه الشرفة وهو يصيح:

– مولاي الرحمة، مولاي الغوث.

والحراس يمنعونه من الاقتراب، فصاح بهم الأمير:

– اتركوا الرجل ليقول ما عنده.

فهدأ والعرق يتصبب منه وقد تمزق ثوبه وضاع نعاله، وبعد أن هدأت أنفاسه وخف الخوف عنه، قال بصوت متهدج مبحوح من شدة التعب والخوف:

– مولاي الأمير، أنا وزوجتي وأولادي الأربعة وأمي وأبي العاجزان نسكن كلنا في غرفة واحدة في زريبة آيلة للسقوط لا تسعنا ولا تحمينا من برد ومطر،

وأستغيث بك مولاي أن تشملنا بعطفك ورعايتك وتخصص لنا داراً بغرفتين.

سجلوا اسمه وثبتوا عنوانه ووعدوه خيرًا.

وعاد "زهرون" _ وكان هذا اسمه _ لعياله مسرورًا مستبشرًا يكاد أن يطير من الفرح، وهلهلت أمه وزوجته وتضرعتا بالشكر لله على النعمة القادمة لهم من الأمير.

في اليوم التالي جاء زبانية الأمير بأربعة خرفان وقالوا للرجل بلهجة آمرة:

– هذه خرفان الأمير ترعاها، وتعيش معكم في نفس الغرفة؛ لأن الدنيا شتاء.

فاستقبلها الرجل وأدخلها الغرفة.

وبعد ثلاثة أيام عادوا ومعهم أربعة بطوط وطلبوا من الرجل بلهجة زاجرة:

– هذه بطوط الأمير ترعاها.

وأدخلوها الغرفة.

وبعد ثلاثة أيام أخرى قدموا ومعهم بشوش وثلاث دجاجات وديك وأدخلوها الغرفة، وأفهموه أن يداريها كما يداري أولاده، فوعدهم وأقسم لهم أنه في خدمة الأمير.

تُرك آل زهرون على هذه الحال عدة أيام، لا ليلهم ليل، ولا نهارهم نهار، الخرفان تمعمع، والبطوط والبشوش تزعق، والدجاج يقاقي، والديك يصيح، وقد امتلأت الغرفة بمخلفاتهم وبالروائح الكريهة، حتى أصبحت الحياة في الغرفة لا تطاق، لا منامهم منام ولا طعامهم طعام.

ومضت الأيام، وقد مرض الجميع، يدعون ربهم الخلاص.

وقبل موعد الاجتماع بأربعة أيام، جاء الزبانية فأخذوا الخرفان، فتنفست العائلة الصعداء ونظفوا الغرفة وغسلوها وتمددوا بعد أن كانوا ينامون جالسين، وشكروا ربهم على هذه النعمة.

في اليوم الثاني أخذوا البطوط والبشوش فانتاب العائلة فرحٌ غامرٌ.

وفي صباح اليوم الثالث، أخذوا منهم الدجاج والديك، فهدأت الأمور واستتب السكون ونظفوا الغرفة من الأوساخ وبخروها وناموا تلك الليلة نومًا هانئًا مريحًا، لا خرفان تمعمع، ولا بطوط وبشوش تزعق، ولا دجاج يقاقي ويرفرف فوق الرؤوس، ولا ديك يصيح، ولا روائح كريهة تزكم الأنوف.

نهض الرجل في صباح اليوم الرابع، يوم الجمعة، بعد أن انقضى شهر بحاله، وحان موعد الاجتماع مع الأمير في باحة القصر، وذهب للساحة وهو يقدِّم خطوة ويتأخر خطوة.

المهم، أطلَّ الأمير على الشعب المغلوب على أمره، وقال:

- أين زهرون الذي طلب منا له دارًا أوسع؟

فصاح:

- نعم مولاي.

- هل حلوا مشكلتك يا زهرون؟

- نعم، وأنا مرتاح وفي أحسن حال، أدامك الله فوق رؤوسنا مولاي.

الزوجة الصالحة

يحكى أن أحد الأمراء الحكماء كان يسوس رعيته بالعدل والإحسان، امتد به العمر حتى شاخ وعجز، وكانت ولايته تتكون من ثلاث مقاطعات كبيرة، فقسَّمها بين أولاده الثلاثة بالحق والإنصاف، وزوَّجهم وفق خياراتهم من بنات الملوك والأمراء، وذمَّم عليهم أن يكونوا رحماء بالرعية ويحبون الناس وزوجاتهم، ولا يفارقوهن ولا يتزوجون عليهن مهما كان السبب.

وأقسموا لأبيهم وعاهدوه.

مات الأب، وهو ينظر في عيون أولاده ألا يخالفوا العهد.

وكان في خدمة الأب رجلٌ اسمه "رمضان" يسهر على راحة الأب ويلبي كل طلباته... قبل وفاة الأب، أوصاهم خيرًا برمضان وعياله، وأن يراعوه ويلبوا طلباته ويعاملوه كأنه واحد من العائلة مكافأة لخدمته وصدقه وأمانته وحسن تربيته لهم.

شاخ رمضان وهرم، فأوصى ابنه "شعبان" أن يبقى في خدمة الأمير الصغير "عيد" وترجاه أن يزوجه على معرفته.

كان شعبان فارسًا مغوارًا لا يُشق له غبار، جميلاً حليمًا ذكيًا... اتخذ منه الأمير مستشارًا له وقرَّبه وقال له:

– أنت أخي، فرُبَّ أخ لم تلده لك أمك.

قرَّر شعبان الزواج، فاستشار الأمير... فرح الأمير وسرَّه ذلك وقال:

- والله يا شعبان لو كان عندي بنت غير متزوجة لزوجتك إياها، ولكن ما باليد حيلة، دعني أفكر بالأمر.

فرح شعبان بذلك؛ لأن زوجة الأمير كانت "شرانية" لا تعتني بالأمير، ودائمة المشاكل معه وعصبية المزاج، ولم يكن مرتاحًا معها أبدًا، كانت كثيرة الصياح والعويل لا تطيعه في كثيرٍ من الأوامر؛ مما يجعل الأمير دائمًا مشدود الأعصاب متعب نفسيًا مهموم المزاج، فاعتلَّت صحته وذهبت عافيته وشاب رأسه واشتعل شيبًا قبل الأوان.

وبعد ثلاثة أيام قال الأمير عيد لشعبان:

- اذهب لأخي الأمير حميد الأكبر مني سنًا وأبلغه مني السلام عسى أن يزوجك إحدى بناته بعد أن يرى فروسيتك وذكاءك وجمالك، وهو يعرفك حق المعرفة، وإن أبانا رحمه الله قد أوصانا خيرًا بكم.

شدَّ الفارس شعبان الرحال وتوكل على الله، وذهب لولاية الأمير حميد التي تبعد عشرين فرسخًا عنهم.

وصل شعبان إلى الأمير حميد، وأقرأه سلام أخيه الصغير الأمير عيد، وذكر له سبب الزيارة، فاستقبله أحسن استقبال، وفرح به.

لاحظ الفارس شعبان أن الأمير حميد رغم انه أكبر سنًا من أخيه عيد ولكنه نوعًا ما بصحة وعافية وهمة حتى أن شعر رأسه ما زال أسود قليل البياض، فاستغرب الأمر.

وهنا جاءت امرأته وهي ترعد وتزبد في الخدم والحاشية والحرس، سألها الأمير:

- إن هذا الفارس ابن الرجل الطيب الذي ربَّانا وخدم والدنا، وقد أرسله أخي الصغير الأمير عيد يطلب يد إحدى بناتنا.

فامتعضت وصاحت بصوت أجش فظ، وأسمعت الأمير وضيفه كلامًا قبيحًا، ولكن بدون صياح وعويل، ورفضت الطلب.

اصفر لون الأمير وعرق محياه خجلاً من الضيف واعتذر منه، وقال:

- يا شعبان إن الله ابتلاني بهذه المرأة، ولكنها مع هذا أهون من زوجة أخي الصغير عيد.

فقال شعبان:

- صدقت أيها الأمير.

قال الأمير حميد لضيفه شعبان:

- لا تحزن فإني أرسلك لأخي الكبير الأمير سعيد فعنده ما شاء الله من البنات، وامرأته عاقلة ومؤدبة وبنت ناس وتعرف الأصول ولا تخالف لزوجها رأيًا ولا ترد له طلبًا.

رحل الفارس شعبان إلى ولاية الأمير سعيد التي تبعد ثلاثين فرسخًا، وصل فرحب به الأمير وحياه وذكر معه أيام الصبا وأجلسه مجلسًا كريمًا.

تعجب شعبان من الأمير سعيد وهو أكبر الأخوة الأمراء سنًا ولاحظ نشاطه وحيويته وشبابه وشعره الأسود الفاحم وخدوده المورده ووجه البشر وسنه الضاحك، قال شعبان:

- إني أراك بصحة وعافية أدامها الله عليك، وأرى مظاهر السعادة في كل ركن من قصرك، وهذا ما لا أراه في قصور إخوتك الأصغر منك سنًا، سبحان الله.
- اصبر يا شعبان، فالصبر جميل يا أخي.

وهنا قدمت زوجة الأمير سعيد كبير إخوته وهي تحيي وتفيئ وتضحك بحياء وأدب للجميع، وسلمت ورحبت بالضيف بأحلى العبارات، وعندما قال لها الأمير سعيد:

- إنه صديق الطفولة وأننا إخوان في الرضاعة وأن أباه رحمه الله أحسن تربيتنا وخدم والدنا، وإنه من أشجع الشجعان وأذكى الأذكياء.

ولما رأت جماله وحسن مظهره وقوة شخصيته وحلاوة منطقه، أعجبت به وحيته ورحبت به ثانية.

قال الأمير سعيد:

- يا ابنة العم، إن الفارس شعبان قد بعثه لنا أخواي الأصغر مني يطلب الزواج من إحدى بناتنا الثلاث، فماذا تقولين؟

قالت:

- القول قولك يا أميري، والرأي رأيك، فأنت أرجح مني عقلاً وأكثر حكمة، وأنت كبيرنا وأميرنا، وأعرف مني بهذا الفارس الذي سررت لرؤيته وطلعته الجميلة، وأنا رهن طاعتك أيها العزيز الغالي.

سُرَّ الفارس شعبان غاية السرور بالأمير الكبير سعيد وزوجته المخلصة، واختار إحدى البنات وتزوجها وهو يمنِّي النفس بأن تكون مثل أمها ويحيا معها العمر

سعيدًا. وتذكر كلام أمه: يا ولدي (امسك الوردة وشمها، تلقى البنت طالعة على أمها)، أو كما يقول المصريون (اقلب القِدرة على فُمها، تطلع البنت لأمها).

هنا أدرك الفارس الذكي شعبان سرَّ شيخوخة الأمير الأصغر عيد مبكرًا ووهنه واعتلال صحته رغم أنه أصغر إخوته، وأدرك أيضًا سرَّ التعب والاجهاد وبدء البياض في شعر الأمير الأوسط حميد، وعرف لماذا الأمير الأكبر سنًا سعيد ما زال بحيويته ونشاطه وهمته وبشعره الأسود الفاحم.

إنه البيت السعيد الذي تبنيه المرأة العاقلة الخجولة الصبورة المؤدبة التي تعبت عليها أمها وربتها تربية راقية وجعلت منها امرأة صالحة.

وعاش الفارس شعبان حياة هانئة مع زوجته الأميرة الطيبة بنت الأصول والحسب والنسب.

وقديمًا قالت العرب: (يجب أن يكون الرجل أكبر عمرًا وأكثر مالاً وأرجح عقلاً، وأن تكون المرأة أحلى جمالاً وأعظم حياءً وأكثر صبرًا)؛ ليتمكنا بتعاونهما ومحبتهما واحترامهما لبعضهما البعض أن يبنيا بيتًا سعيدًا.

المعلم

أيام زمان، كان المعلم في العراق له قيمة كبيرة واحترام متميز في المجتمع العراقي، وخاصة في الأرياف... المعلم في نواحي مدن جنوب العراق حتى شيخ العشيرة يستشيره ويجلسه بجانبه ويعطيه أهميه كبيرة... الكثير من الصابئة المندائيين أصبحوا معلمين، خريجي الدورات الريفية أو دور المعلمين ومعاهد المعلمين، ومدرسين خريجي دار المعلمين العالية، كانوا مخلصين في أداء الواجب وأكفاء في التعليم وذوي أخلاق حميدة، الكل يحبهم ويُقدِّرهم ولهم منْزلة وقيمة عالية في المجتمع، وقد أحسن الشاعر بوصفهم:

قم للمعلم وفِّه التبجيلا　　　كاد المعلم أن يكون رسولا

ومما يذكر أن مفتشًا قديرًا زار مدرسة متفوقة في امتحانات الباكلوريا، فلاحظ أن أربعة من المدرسين من المندائيين، فقال:

– إذا عُرِف السبب بطل العجب، ولو رفدنا هذه المدرسة بأربعة مدرسين آخرين من الصابئة أعطيكم ضمانًا أكيدًا أن المدرسة ستتفوق على كل مدارس العراق.

وكان خالي "مؤيد مكلف سوادي" واحدًا منهم، تم تنسيبه لمدرسة في ناحية من نواحي مدينة العمارة، وكان مقربًا جدًا من شيخ العشيرة، يتصدر المضيف، ويستشيره الشيخ في كل صغيرة وكبيرة، وذات يوم اكتشفوا وجود حقول نفط في هذه الناحية، فجاءت الشركات بمعداتها للمنطقة، واستولت علي بعض الأراضي الزراعية، فكان شغلهم الشاغل وموضوع نقاشهم في مضيف الشيخ،

ويستشيرون أستاذ مؤيد ويستفسرون منه؛ لأنهم واثقون أنه يفهم في كل الأمور لأنه معلم.

ذات مساء والمضيف مزدحم بروَّاده من أبناء القرية، التفت شيخ العشيرة إلى خالي المعلم وسأله بصوت يسمعه جميع الجالسين في المضيف:

- كُلي أستاذ مؤيد رحمة الله على والديك هذا النفط منين يصير؟

داخ أستاذ مؤيد بالجواب لكنه دبرها، قال:

- محفوظ الناس اللي تموت وتكرم الحيوانات اللي تموت تندفن تحت الكاع وتمر عليها سنين طويلة وبسبب الحرارة العالية والضغط العالي تتحلل وتصير نفط.

- زين أستاذ مؤيد، النفط الأبيض منين والنفط الأسود منين؟

هنا الدوخة صارت دوختين، أستاذ مؤيد يحاول يدبرها لكن السؤال صعب في ذلك الوقت، أستاذ مؤيد ما يريد يفشل بهذا الامتحان أمام الجالسين بالمضيف، وأمام الشيخ؛ لأنهم يعتقدون أن المعلم يعرف كل شيء، ففكَّر كيف يتخلص من هذه الورطة.

- محفوظ النفط الأبيض من الناس البيض والمطايا والغنم الأبيض والهوش الأبيض والسمج، والنفط الأسود من الناس العبيد، ومن الجواميس والجلاب السود.

- ألف رحمة على أبوك أستاذ من فهمتنا، بس كلي أستاذ البنْزين منين؟

- محفوظ البنْزين من الزوري.

فرح الشيخ والجالسون؛ لأنهم فهموا أصول صناعة النفط.

كان الناس من أهل الله، معلوماتهم بسيطة، ويصدِّقون بكل شيء، وعندهم المعلم لا يصعد ولا ينْزل، وفي الحقيقة المعلم كان فعلاً معلمًا، شخصية قدوة للناس، نزيهًا أنيقًا محبوبًا.

تطورت المجتمعات تطورًا سريعًا، الآن تريد تسولفلك فـــد سالفة ويه واحد تشوفه لازم تلفونه ويبحوش بيه، المشكلة الأطفال كل واحد وجهازه الإلكتروني ينام معاه ويصحا معاه، والعم جوجل طويل العمر ما مقصر مسهل كل المعلومات... كل هذه النهضة الإلكترونية وهذه العولمة، ووطننا راجع للوراء، تخلف في كل المجالات ومنها مجال التعليم والمعلم القدوة، ويقولون الحمد لله لأنه زاد انتاج النفط وزاد عدد الحرامية.

هذه المعدات الإلكترونية المتطورة سخَّروها للسب والشتم والنكات البذيئة والمهاترات ونشر الصور التي تخدش الحياء وخلق المشاكل والتفجيرات... ونحن المندائيون فرواه الماري بعد ما وصلنا لمرحلة التفجيرات؛ لأننا ناس مسالمين... ديننا يحرِّم الدم حتى لو قطرة واحدة؛ لأننا خوش أوادم... ولكن في الحقيقة تعلمنا أشياء كثيرة من العراق الجديد منها الشفافية ونقطة نظام والتكتلات والانسحاب والموالاة والتقسيم والأقاليم.

تحية إكبار وإجلال لمعلمينا الأوائل قدوتنا.

يا معلمينا الأوائل أيها المربون الأفاضل:

علمونا، أرشدونا، وحدوا صفوفنا، قولوا لنا نحن رايحين وين؟! نحن نستشيركم فلا تتركوا الحبل على الغارب؛ لأننا سنضيع في هذه البلدان الشاسعة وهذه المجتمعات المتطورة، ونحن ما زلنا متمسكين بما ورثناه من المتخلفين الذين خلفوا وطننا وتفرقوا شيعًا وأحزابًا تخدم مصالحهم ومطامعهم.

لماذا الأولاد للأم؟

يُحكى أن رجلاً طلَّق زوجته، وعندهما ولد، أخذه الزوج عنوةً من طليقته فشكته للقاضي، فاستدعى الرجل والولد، وقال للزوجة:

– تكلمي.

قالت:

– أيدك الله، هذا ولدي كان بطني له وعاءً، وحجري له فناءً، وثديي له سقاءً، ألاحظه إذا قام، وأحفظه إذا نام، فلم أزل هكذا عدة أيام، فلما كمل فصاله، واشتدت أوصاله، وحسنت خصاله، أراد أبوه أخذه مني، وإبعاده عني.

فقال القاضي للزوج:

– ماذا تقول؟

قال:

– إنها صدقت فيما قالت، ولكنى حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأريد أن أُعلِّمه العلم، وأُفهمه الحكم.

فقال القاضي:

– بماذا تردين عليه أيتها المرأة؟

فقالت:

- صدق فيما قال، ولكنه حمله ضعيفًا، وحملته ثقيلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرهًا.

فأعجب القاضي بكلامها، وقال للرجل:

- أعطي لها ولدها؛ فهي أحق به منك يا هذا.

الحالة النفسية

في القطار الذاهب من لندن إلى برمنكهام، جلس في الصف الأول من العربة رجل سمين وبجانبه رجل ضعيف وأمامهم مدفأة كهربائية (HEATER) الرجل السمين يتصبب منه العرق وقد خلع سترته وفتح أزرار قميصه، لكنه ما زال يشعر بحرارة المدفأة فاضطر إلى إطفائها بوضع زر التشغيل (OFF)... الرجل الضعيف بدأ يرتجف فأخرج من حقيبته بلوزة من الصوف ولبسها، ولكنه ما زال يرتعش فمد يده إلى المدفأة وفتح زر التشغيل (ON)... تضايق الرجل السمين من شدة الحر فأطفأ المدفأة... وهكذا تكرر الحال السمين يطفئ المدفأة، والرجل الضعيف يشغلها.

حدثت مشكلة بين الرجلين وتشاجرا بصوت عالٍ، وهنا تدخل مسؤول العربة لحل المشكلة بين الاثنين المتخاصمين... السمين يشكو من حرارة المدفأة، والضعيف يشكو برودة العربة عندما يطفئ السمين المدفأة... ضحك مسؤول العربة قائلاً لهم:

- إن المدفأة عاطلة أيها السادة.

الدينــار

يحكى أن امرأة وفرت أيام زمان دينارًا من مصروف البيت وخافت عليه من زوجها البخيل، فأمنته عند جارها، ورجته أن يحفظه كوديعة عنده، فأخذه منها، ووضعه تحت طيات الفراش.

وبعد أيام جاءت المرأة لجارها وطلبت الدينار، فقال لها ارفعي الفراش وخذي ولده، فذهبت ووجدت بجانب الدينار درهمًا فأخذته وهي في غاية الفرح والسرور... وبعد أيام عادت لتودع دينارًا آخر، فلما جاءت قال لها خذي ولده فأخذت درهمًا، ثم عادت وأخذت ثالثًا، ثم عادت في المرة الرابعة وهكذا حتى أنها قامت بجمع الدراهم وحوَّلتها إلى دينار، وجاءت به لجارها لتحصل على مزيدٍ من الدراهم (الأولاد)، وبعد حين جاءت لجارها وما أن رآها حتى بكى وأجهش في البكاء.

فقالت: – ويحك أيها الرجل ما يبكيك؟!

فقال: – لقد ماتت دنانيرك في النفاس!

قالت: – أو للدينار نفاس يا عاقل؟

فقال لها: – أتصدقين أن الدينار يلد، ولا تصدقين أنه في النفاس يا عاقلة؟

وفاء كلب

حدثتني امرأة إنكليزية بهذه الحكاية وهي تؤكد مآثر ملوكهم وعدالتهم: السير ولهام من القادة الأشاوس في جيش الحرس الملكي للملك آرثر ملك إنكلترا. كان الملك معجب جدًا بذكائه وخططه الاستراتيجية في إدارة المعارك وكذلك خططه التنظيمية في إعداد القطعات. قرر الملك عقد اجتماع لمجلس الحرب لاختيار ولهام قائدًا للجيش، السير فردريك ابن عم الملك كان يطمح لهذا المنصب، وفي مناقشة عائلية أصر الملك علي موقفه وأفهم السير فردريك أنه والجيش بحاجة ماسة لهذا القائد الفذ.

خرج فردريك من الديوان الملكي والغيظ والحقد يملأ قلبه، التقى في ساحة القصر بالسير ولهام وتبختر على جواده فحياه وكظم غيظه، وقال:

– سير ولهام، هل يروق لك أن ترافقني في رحلة صيد اليوم، وننطلق الآن إلى الغابة في أطراف لندن؟ وأنا قد هيأت كل الأمور، يمكنك أن تسبقني إلى خارج المدينة وسألحق بك بعد ساعة يا ولهام، أنا أحب رفقتك.

رد ولهام بأدب جم: وأنا أيضًا.

ما هي إلا ساعة زمن والتقى الاثنان خارج المدينة وسارت خيولهم بنسق، ولهام يملك كلبًا ذكيًا وفيًا لايفارقه البتة... توسط الجميع الغابة ولاحت لهم غزالة فسارع الكلب شبرد بمطاردتها على الفور. استل الفارسان كلٌّ منهما رمحه

وشدوا أعنة خيولهم... الغزالة تقفز قفزات واسعة وشبرد يلاحقها والخيول تكاد تطير من فرط سرعتها، تقدم ولهام على فردريك وشبرد يقفز على ظهر الغزالة فيُسقطها أرضًا... فردريك يطعن ولهام في ظهره برمحه طعنة نجلاء تُسقطه من جواده ويعود ثانية فيطعنه في قلبه... شبرد ممسك بالغزالة لكنه ينظر لصاحبه... شبرد ترك الغزالة وعاد مهاجمًا فردريك بكل قوة... فردريك استل سيفه محاولاً قتل شبرد الذي ابتعد... أطلق عليه عددًا من النبال من قوسه ولكنها أخطأته جميعها.

شبرد يراقب ما يحدث من بعيد، أما فردريك فقد سحب جثة ولهام لأقرب حفرة ودفنها وغطاها بركامٍ من الأغصان وأوراق الأشجار بحيث أخفى آثار جريمته النكراء، أخذ حصان ولهام وسيفه ورمحه ودرعه وخوذته وأعطاهم لفلاح يعرفه ليخفيهم في مزرعته... عاد السير فردريك إلى لندن وكأن شيئًا لم يكن وعاد شبرد إلى قبر ولهام يشم به... شبرد بقي ثلاثة أيام نائمًا فوق القبر ينوح ويعوي ودموعه قد بللت أديم القبر، وبعد أن قطع الأمل عاد وتسلل إلى القصر الملكي... الملك ينوي عقد اجتماع للمجلس الحربي... أعلمه الديوان أن السير ولهام مفقود ولا أثر له، مرت أيام كثيرة ثقيلة والكل يبحث عن ولهام دون نتيجة... قرر الملك عقد اجتماع لتدارس الأمر وفجأة دخل شبرد الاجتماع وتقرب من الملك وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يومئ للباب برأسه ويهز ذيله ويُصدر أنينًا حزينًا ونبحات متقطعة فيها حشرجة ويسحب بفمه أذيال الملك راجيًا أن يتبعه لأمرٍ جلل.

قال الملك: افتحوا الأبواب ولنتبع جميعًا كلب السير ولهام.

شبرد يجري والملك والقادة والحرس يتبعونه علي خيولهم، وما أن وصل إلى القبر صعد فوقه وأخذ ينبش بقوةٍ وعيناه تربو إلى الملك ولسان حاله يقول هنا دفن المجرم فردريك زميله ولهام بعد أن غدره الجبان... أمر الملك بحفر القبر وأخرجوا ولهام وعادوا للقصر.

شبرد يريد الانتقام من فردريك وهذا يريد قتل شبرد.

أمر الملك بإعداد ساحة القصر لمعركة بين السير فردريك وشبرد يكون سلاحه الوحيد عصا غليظة (دونكي)... حظر الجميع وأمر الملك أن تكون المسافة بينهم مئة متر، فردريك في الشمال وشبرد في الجنوب والمنتصر الحق معه.

فردريك يلوح بالعصا بقوة وشبرد أقعى على مؤخرته تأهبًا للانطلاق وبدأت المعركة.

شبرد استجمع قواه وعزيمته وانطلق بقوة وزخم عالٍ، وفردريك يهز عصاه. لاحظ فردريك بخبرته القتالية أن شبرد يتجه يمينًا باتجاه العصا، فواجه شبرد بجانبه الأيمن لغرض الثبات وتقليل مساحة الهجوم وتحمل زخم الصدمة موجهًا العصا باتجاه رأس شبرد، وهذا يتسارع بعنفوان وقبل عشرة أمتار طار في الهواء، وفجأة غيَّر اتجاهه ناحية اليسار وانقض على زمار رقبة فردريك وأطبق عليها بقوة غارسًا أسنانه فطرحه أرضًا وقطع أنفاسه، ثم أخذ العصا بفمه وقدمها للملك وهو يهز بذيله ممتنًا وشاكرًا عدالة الملك.

أمر الملك أن يُقام نصب يخلد الكلب شبرد وتتم رعايته رعاية خاصة؛ لأنه من اليوم أصبح حارسًا أمينًا له.

علم المنطق

سعدون رجل بسيط متواضع من أهل الله، سعدون يشاهد مسرحية مدرسة المشاغبين، تمثيل عادل إمام، وسهير البابلي، وسعيد صالح، في تليفزيون البيت مع عائلته، وسمع أن المُدرِّسة سهير البابلي أستاذة في علم المنطق... سعدون يسأل أولاده المتعلمين عن معنى المنطق، لا يحصل على جواب، ظلت كلمة المنطق تدور في ذاكرته، وبعد عدة أيام استُدعِيَ سعدون لاجتماع الآباء في مدرسة أولاده، قدم مدير المدرسة المشرف التربوي بأنه اختصاص في علم المنطق، فرح سعدون، واستبشر خيرًا؛ لأنه أخيرًا وجد مَن يجيب عن سؤاله ولم يضيع الوقت، بل اقترب من الأستاذ التربوي أثناء الاستراحة وسأله:

– رحمة لوالديك ما تفهمني شنو المنطق؟

ابتسم الأستاذ وقال بكل ممنونية:

– هو مجموعة بديهيات واحدة تعتمد على الأخرى للوصول إلى نتيجة، واضح؟

أجاب سعدون:

– لا والله مو واضح..

– طيب هو مجموعة مُسلَّمات إحداها دالة بالأخرى للوصول للهدف، مفهوم؟

سعدون:

– لا والله مو مفهوم.

– طيب أقربها لك يا أخ سعدون وأضرب لك مثلاً، أنتم عندكم في البيت كلب؟

– نعم أستاذ عندنا.

– إذن لازم عندكم حديقة كبيرة.

– نعم أستاذ حديقتنا كبيرة، وانا أعتنى بها.

– هذا يعنى بيتكم كبير.

– نعم أستاذ، ثماني غرف نوم في بيتنا.

– هذا معناه أنتم عائلة كبيرة.

– صح أستاذ أنا وعائلتي وإخواني وعوائلهم وثلاث خوات وأمي وأبي وجدي وجدتي.

– عظيم هذه العائلة الكبيرة كلها تديرها أمك باقتدار.

– نعم أستاذ أمي مسؤولة عن إدارة البيت، والكل راضون ومقتنعون.

– سعدون أنت أمك شريفة.

– أي والله أستاذ المحلة كلها تحلف برأسها.

– شوف سعدون إحنا بدأنا بسؤال عندكم كلب، وتوصلنا إلى نتيجة أن أمك إنسانة شريفة، هذا هو المنطق يا سعدون، مفهوم؟

– نعم أستاذ مفهوم، أشكرك وممنون منك.

مساء ذلك اليوم سعدون في قهوة المحلة مع أصحابه، ويريد يبيِّن لأصحابه أنه يفهم، فسأل صديقه جبار بصوت مسموع:

– جبار، أنت تعرف معنى علم المنطق؟

أجابه جبار:

- لا والله ما أعرف.

- تحب أفهمك شنو المنطق؟

جبار:

- ياريت.

- أنتم عندكم كلب؟

أجاب جبار:

- لا والله ما عندنا كلب.

- اسمع جبار أنت أمك مو شريفة.

ضحك الجميع على سعدون.

الملك الدستوري

تُوِّج فيصل الأول ملكًا على مملكة العراق في بداية العشرينيات من القرن الماضي، وقد كان ملكًا متواضعًا بسيطًا، يحترم الدستور والقوانين الوضعية، كان شاعر العرب الأكبر محمد مهدى الجواهري، مديرًا للديوان الملكي، وسكرتيرًا للملك.

يُذكَر أن الملك والجواهري يعملان بجد وحيوية في بناية الديوان التي يحرسها شرطي واحد، تصوروا شرطي واحد فقط يحرس الديوان، وجيش كامل يحرس المنطقة الخضراء، وعلى ما أذكر في عام ٢٠٠٤ ذهبنا كوفد لمقابلة الشهرستاني في المنطقة الخضراء، وبعد سلسلة من التفتيش، مررنا بنقطة تفتيش وحرس من الجنود النيباليين، أي من مملكة النيبال في جبال الهيمالايا؛ لأنهم ليس عندهم لغة للتفاهم مع كائن مَن يكون غير ضباطهم، المهم الجواهري عندما يتعب ويعطش يخرج للحديقة يشرب الماء من حنفية الحديقة المظللة بالأشجار؛ لأن ماءها نوعًا ما بارد لعدم وجود مبردات وثلاجات في ذلك الوقت، حيث كانت الدنيا ماشية على البساطة.. شاهد رجل عجوز وامرأة مسنة واقفان في باب الديوان وبيدهما ورقة.

الشرطي منعهما من الدخول، تكررت الحالة عدة أيام، الجواهري عز عليه

الموقف، فسأل الشرطي:

– ما الأمر؟

الشرطي:

– أستاذ عندهم عريضة استرحام للملك، ويوميًا يأتون من الصباح الباكر ولغاية انتهاء الدوام.

قال:

– دعهم يدخلون.

– سيدي أنا اسمي شلتاغ فلاح من الهاشمية وهذه زوجتي، صار لنا أسبوع مرابطين بباب الديوان، نريد نسترحم "الملك" والشرطي هذا يمنعنا، مشكلتنا ولدنا الوحيد كاطع محجوز بالأمن يقولون سياسي ضد الملك، ولدنا معيلنا الوحيد لخاطر الله ساعدنا.

أخذ الجواهري العريضة مهمومًا للملك.

– ما الأمر يا أبا فرات؟

– مولانا هذان العجوزان ولدهم موقوف؛ لأنه يريد إسقاط الملك.

– أبو فرات أعطِ أمرًا بإطلاق سراح الولد.

– مولاي نستفسر من الأمن؟

الملك:

– لا؛ لأنه إذا كاطع ابن شلتاغ يقدر يسقط الملك فلا خير للعراق بهذا الملك.

علج الفكر

يحكى أن أحد ملوك الجن له فتاة في ريعان شبابها، باهرة الجمال، فارعة الطول.

رغبت أن تحضر زواج ابن عمها الأمير علي في ولاية تبعد عنهم يوم مسير على الفرس، ألحت الفتاة على أبيها وأقنعته أن يدبر أمر ذهابها، فاستجاب الملك حبًا لابنته، وكلف أحد العبيد الأشداء موضع ثقة الملك... أوصاه أن يحفظ الأميرة، ويرعاها ويسهر على خدمتها، فقال العبد:

– أمرًا وطاعة مولاي الملك.

وهكذا شدوا الرحال مع انبلاج الفجر، الأميرة امتطت مهرتها الأصيلة المطعمة بالحرير والخز، والعبد امتطى جواده، وتوكلوا على الله لقطع الجزيرة الواسعة بين البلدين، كان الوقت شهر حزيران، وعندما حان وقت الظهيرة واشتدت أشعة الشمس، أخذ العرق يتصبب من الأميرة، وظهر عليها التعب فخففت من ملابسها فظهرت زنودها وشيء من صدرها وساقيها، العبد يختلس النظرات ووسوس له الشيطان فاشتهاها، حاول جاهدًا أن يكبح جماح نفسه ولكن النفس أمارة بالسوء، قال:

– يا أميرتي نجلس سويعة في ظل هذه الشجرة نرتاح قليلاً ونأكل ونشرب ثم نواصل المسير.

توقفوا وترجل من جواده واقترب من الأميرة ليساعدها على النزول من مهرتها، احتضن الأميرة وعندما لامس جسمه جسمها وشم رائحة المسك والعنبر ثارت

غرائزه وفقد السيطرة على نفسه فسعى لاغتصابها، الأميرة تذود عن نفسها بكل قوة ومع الوقت ضعفت مقاومتها وبلغ بها الإجهاد وخارت قواها شيئًا فشيئًا وقد تقطعت أجزاء كثيرة من ملابسها فتكشفت مفاتنها، ازداد العبد شراسة، والأميرة بين اليأس والاستسلام، عندئذ سمع بدوي من الرعاة صوت استغاثة الأميرة، فبادر بضربة عاجلة للعبد بمكواره على رأسه، أردفها بضربة ثانية قاضية قتلت العبد، أجلس الفتاة وسترها بعباءته، وذهب إلى المهرة فأعطاها بعض ثيابها، وبعد أن ارتاحت الأميرة، وشربت كوزًا من الماء، شكرت البدوي وأثنت على مروءته وشجاعته.

وقالت:

– أنا بنت الملك شعبان، نسكن الوادي الأخضر، مسافة نصف نهار.

فقال البدوي:

– أنا قضيت عمرى يا ابنتي هنا وأعرف كل المسالك والدروب، سأوصلك لأهلك لا تخافي.

ركب فرس العبد وساعد الأميرة بامتطاء مهرها وساروا، وعند المغيب مع آخر خيط من خيوط الشمس وصلوا الوادي الأخضر، اندهش الملك فقصت له ابنته ما أصابها من العبد، ولولا لطف الله، ومروءة هذا الرجل لحصل ما لا يُحمَد عقباه، رحب الملك بالبدوي وأجلسه بجانبه مجلسًا كريمًا، وقال له:

– أنت أنقذت شرفي، وشرف عشيرتي، وحياة ابنتي، اطلب مني ما شئت أيها الشهم حتى لو أردت نصف مملكتي والله أعطيتك إياها عن طيب خاطر محلل

وموهوب.

قال البدوي:

– مولاي أترى تلك الغيمة السوداء؟ إنها ألف ألف بقرة حلوب، وهناك الغيمة السوداء الثانية إنها ألف ألف من الجمال النوق العصافير، أما الغيمة الثالثة فليس لها عدد من الأغنام، وعندي ألف من الرعاة، ولا أعرف عدد الحلابات، كل ذلك وأنا بهذا الزبون وهذه الغترة وهذا الحزام وتلك الخيمة، فطوري
كسرة خبز وكوز حليب، ومثلها الغداء، وعشائي كسرة خبز وقليل من الخاثر
أطال الله عمرك فماذا تريد أن تعطيني؟

ألح عليه الملك فقال:

– أمهلني لأستشير.

قال الملك:

– لك ثلاثة أيام.

رجع عكاب إلى أهله واجتمع بوجهائهم وأخبرهم قصته مع ملك الجان شعبان فاحتاروا بالجواب، ولكن شيخ ذو حكمة وبصيرة قال له:

– يا عكاب اطلب من ملك الجان أن يحل عليك حلالك.

اقتنع عكاب برأي الشيخ الحكيم، وذهب إلى الملك وأخبره بهذا الرأي الذي اهتدى إليه.

ثار الملك وخار ودار وقال:

– لا هدى لَمن هداك، أتعرف يا رجل؟ نحن أربعة عشائر كبيرة من الجن ملوكها

أنا وأخوتي نعيش من خيرات حلالك ولكن علينا الآن الرحيل مبروك عليك حلالك.

واقترب من عكاب وأخرج من فمه (علج الفكر)، بعدها بفترة وجيزة بنى عكاب له قصرًا منيفًا وتزوج ولبس الدمسقس والحرير، وكان له هودج وعربة تجرها الخيول، وخدم وحشم، ومضيف تقام به الولائم وذاع صيته في الجزيرة كلها.

هذه الحكاية حدثني بها والدي أبو بشير بعد أن عدنا من زيارة قريب ميسور الحال ولكنه وعائلته يعيشون بأردأ حال لا منامهم منام، ولا طعامهم طعام.

اسمع يا ولدي: بخيل العلم عندما يرحل يأخذ علمه معه، وبخيل المال يترك ماله لسواه يتمتعون به في الحياة، فالحياة حلوة تمتعوا بنعمها ما دام في الحيل قوة، وكل ملجوم يحس في حلقه علج الفكر عليه أن يبصقه بعد قراءة هذه (الحكاية الزغيرونة) ويتمتع بماله في حياته، ودمتم سالمين.

أشباه المثقفين

مرض جدي، وطلبت من صديقي الذي كان يدرس في المعهد أن يساعدني في مرافقة جدي للطبيب، فقال:

- إنها فلاونزة وأنا متدرب على زرق الحقن وعندي إبرة بنسلين أضربا لجدك ويطيب.

فأستسهلت الأمر ووافقته، وفعلاً زرق جدي الإبرة وغط جدي في غيبوبة والله الساتر، ونقلناه فورًا إلى الدكتور، وشرحت له ما حصل وأعطيته غلاف الإبرة، قال:

- مَن حقن هذا المريض هذه الإبرة المشؤومة؟

فأشرت إلى صديقي، فسأله الطبيب:

- ما عملك؟

فأجابه:

- ما زلت طالبًا في المعهد.

فأطرق الطبيب قليلاً من الوقت وقال:

- اسمعوني، لا تخافوا من المثقفين ولا من الجهلاء؛ لأنهم لا يعلمون ما عمل الأخ ولكن خافوا من أشباه المثقفين مثل الأخ الذي تجاوز حدودة بدون علم ولا فهم، والله الساتر.

الراحة، العصا

قالوا: راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام.

العصا

قيل العصا لَمن عصا، وقيل العصا من العصية، وسُئل أعرابي أقبل من البادية:

– ما بيدك يا رجل؟

قال:

– عصا أعدها لعداتي، وأركزها لصلاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيي، ليتسع بها خطوي، وألقي عليها كسائي، فيسترني من الحر، ويقيني من القر، وتدني ما بعد مني، وهي محمل سفرتي، وعلاقة أدواتي، ومشجب ثيابي، وأعتمد بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب، تنوب عن الرمح في الطعان، وعن الحراب في مقارعة الأقران، ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تحصى.

الثـور و الحِـبّ [١]

الشرق الأوسط وخاصة الدول العربية، منطقة غنية بثرواتها الطبيعية وبأسواقها المفتوحة المستهلكة للبضائع بشراهة غير مسيطر عليها، أمريكا والدول الغربية الصناعية تنظر لنا كبقرة حلوب تدر ما يكفينا من الحليب وزيادة، لا يحق لنا أن نشربه، فهم شركاؤنا بما نملك، وعليه يجب أن نأخذ أقل من كفايتنا والباقي يأخذونه بالمروة أو بالقوة مثلهم مثل تعامل الإقطاعي مع الفلاح أيام زمان، عليك أن تأكل وتلبس وتشرب بحدود، وليس عليك الحق أن تستثمر ثرواتك أو تصنع أو تصدر شيئًا إلا بواسطتهم وعبر شركاتهم، وأن تكون بحمايتهم ووفق ما تقتضيه سياستهم ومصالحهم... العراق، سوريا، ليبيا، اليمن مثلاً حاولوا مجرد محاولة أن يتجاوزوا قليلاً الخطوط الحمراء المرسومة، فماذا عملوا هم؟! أذابوا شحمهم، وأكلوا لحمهم، ودقوا عظمهم، وأقعدوهم على البساط الأحمدي، ثم أخذوا البساط...

بلدنا العراق أدخلوه في حرب ضروس مع إيران فاحترق الأخضر واليابس، ولكي يأخذوا منا البساط أدخلوه في حرب ثانية مع الكويت المحمية الأنجلو أمريكية، والنتيجة ضحايا لا تعد ولا تحصى وتخلف في كل المجالات ومن سوء إلى أسوء، وتعال طلع رأس الثور الذي عصى في الحِبِّ... حيث يقال والعهدة على الراوي، أن عائلة فلاحية في إحدى القرى تطرز حافة مياه هو الحمار

(١) الحِبّ / وعاء كبير من الفخار

يملكون ثورًا مستفادين منه في تدوير ناعور الماء الذي يسقي زرعهم، كذلك ينفعهم ماديًا في تلقيح أبقار القرية والقرى المجاورة.
في يوم صيف قائظ عطش الثور فوجد حِبًا فيه قليل من الماء فأدخل رأسه في الحب فعصت قرناه في داخله، فحاول جاهدًا إخراجه دون فائدة، حاول الفلاح مساعدته دون نتيجة، استعانوا بشيخ العشيرة فأشار عليهم بقطع رأس الثور فقطعوه، لكن رأس الثور بقي عالقًا في الحِب، فأشار عليهم بكسر الحِب فكسروه، فضاع الثور وضاع الحِب.

أبيل ونازل من اللّه

يحكي أيام زمان في ولاية البصرة أيام حكم الولاة، أفلست خزينة الولاية، فجلس الوالي والقاضي ورئيس الجندرمة في ديوان الولاية وربطوا صخل قربهم، وبعثوا إلى الصاغة اليهود فحضروا، وتجمعوا في باب الديوان، صاح المنادي الصائغ حزقيل:

– ادخل إلى الديوان.

القاضي يسأل:

– حزقيل انظر هذا الحيوان ماذا ترى صخل أم حصان؟

– مولاي بدالك هذا صخل.

– القاضي لا يا ملعون الوالدين تضحك على المحكمة وتغشها وتقول على الحصان أنه صخل، غرامة عليك مائة ليرة، اطلع برة يا غشاش.

الصاغة في باب الديوان يسألون حزقيل:

– ما الأمر؟

قال لهم:

– سألوني عن حيوان مربوط، فقلت لهم صخل فشتموني وغرموني وقالوا هذا حصان يا غشاش.

نادى المنادي الصائغ شميل:

- ادخل.

القاضي يسأل شميل:

- ما هذا الحيوان يا شميل صخل أم حصان؟!

شميل:

- مولاي بدالك هذا حصان.

- لا يا ملعون الوالدين تقول على الصخل أنه حصان لا يا غشاش، غرامة عليك مائة ليرة، اطلع برة.

الصاغة في باب الديوان يسألون شميل:

- ما الأمر؟

- قلت لهم حصانًا فغرموني مائة ليرة وشتموني وقالوا هذا صخل.

المنادي يُدخِل الصائغ خضوري، يسأله القاضي نفس السؤال فيقول خضوري:

- مولاي هذا أبيل (بلاء) ونازل من الله، إن قلنا صخل قلتم حصان وإن قلنا حصان قلتم صخل.

الـمـلـل

الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده؛ ولذلك الذي يعيش بمفرده، أي بغير أن تكون له صله بالآخرين، هو الله؛ لأنه ليس بحاجة لأحد لأنه قائم بذاته، ولهذا الكتب الدينية تقول الله واحد أحد، ليس له شريك ولا ولد، ورغم أن كتابنا المقدس يذكر أن الملائكة يسبحون للحي العظيم، ولا نعرف هل هذا التسبيح عن قرب أو عن بُعد، وكذلك الحيوان يستطيع أن يعيش لوحده بسبب عجزه عن الإحساس بنفسه وبغيره، والإنسان يستطيع أن يعيش لوحده فقط عندما يكون في حالة ملل، عندما يكون معزولاً عن الآخرين فلا يشعر بنفسه، ولا بغيره، والملل الذي يصيب الإنسان يجعله أقل رغبة وتذوقًا للدنيا والحياة، فيكون طعمها على اللسان غريبًا، وألوانها في العين غريبة، ورنينها في الأذن غريبًا، وملمسها أيضًا غريبًا؛ فالملل هو الذي يجعل كل ما حولنا غريبًا، فنكون غرباء في هذه الدنيا.

فالشعور بالغربة هو بداية الملل، تأنف العين من الرؤيا، وتعاف الأذن الاستماع، ويغثنا لمس أي شيء حولنا، وعندما خلق الحي العظيم آدم وحده شعر آدم بالملل، فخلق الله حواء أنيسًا له.

والحكومات الدكتاتورية الشمولية في البلدان المتخلفة تعاقب المناضلين

السياسيين بوضعهم في السجن الانفرادي زنزانات ضيقة محكمة مظلمة؛ لفرض الملل علي المناضل بغرض نزع آدميته وسلب الإحساس والشعور منه، وقطعه عن التواصل مع الآخرين وإصابته بالملل كما كان يحدث في الحاكمية وسجن الحوتة في بغداد مثلاً، ولكن فاتهم أن المناضلين بالحب يطردون الملل؛ لأنهم يحبون مبادئهم وانتمائهم وأيدولوجيتهم وبالتالي يحبون شعبهم... وهنا في السويد يشغلون الناس بالعمل ومراجعة مكاتب العمل وبالحركة؛ ليزيحوا الملل خاصةً في فصل الشتاء الجليدي، أما في بلدنا العراق فالإنسان هناك مجهد يبحث عن الرزق والغاز والنفط والكهرباء ومراجعة دوائر الدولة، حتى اللطم في المواكب الحسينية في عاشوراء؛ بسبب الملل من البطالة والظلم والفقر والجهل.

ومن الملل تعاقبت الإمبراطوريات القديمة البابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية، ومن الملل من الدولة الأموية جاءت الدولة العباسية، ونحن العراقيون مللنا دولة المحاصصة ومللنا الغربة فمتى يأتي الفرج؟

وهكذا من الوثنية تعاقبت على الناس المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية، ومن الكاثوليكية خرجت البروتستانتية.

ومن الملل من أوربا اكتشفوا أمريكا، ومن الملل من الكرة الأرضية يسعى الإنسان بواسطة الأقمار الصناعية ومحطات الفضاء والمسبارات الجوالة أن يجد كواكب بديلة يعيش فيها.

ومن الملل من الإقطاع قامت الثورة الفرنسية، ومن الملل من الرأسمالية قامت الثورة الروسية، ومن الملل من الشيوعية ظهرت الوجودية، ثم ظهرت اتجاهات

اللامعقول في المسرح والفن، أوَ ليست الجرائم التي يرتكبها الإنسان ما هي إلا بسبب الملل! حتى الشعوب تطرد الملل بالحروب المدمرة؛ ولهذا قال الحكماء أن الحل الوحيد للخلاص من الملل هو أن نحب بعضنا بعضًا، أن تكون لنا صلات وتواصل وعمل وعلاقات اجتماعية مبنية على الحب، علينا أن نحب الناس، نحب الحياة، نحب الكون، كل الكون، فأنا أحب وأنت تحب وشهريار يحب وشهرزاد تحب، إذًا بالحب نطرد الملل، ونحن في غربتنا لكي لا نصاب بالملل علينا أن نحب ونتواصل؛ فالحب والحنان والعواطف والعمل والتواصل، أجمل وأحلى ما يتمتع به الإنسان.

المسئولية

أعجبتني جملة جميلة للكاتب الرائع هيثم: (المسؤول لا يريد أن يصدق، بأننا لا نلغي شخصه، بل عمله).

وهذا يُذكِّرني بما حدث مع ولدي الصغير سلوان، وهو طبيب أخصائي في المستشفى التعليمي في مدينة أوبسالا في السويد، حيث كلفه مدير المستشفى أن يوزع الواجبات على الأطباء الأخصائيين أيام الجمعة والسبت والأحد، فوزعها بعدالة حسب اجتهاده.

له صديق من الأطباء الأخصائيين، صدفة كان واجبه في الجدول يوم الأحد فجاء غاضبًا إلى سلوان يسأله:

- لماذا وضعت اسمي يوم الأحد بالذات وأنا وعائلتي كل يوم أحد نحضر القداس الديني في الكنيسة؟

فأجابه سلوان:

- ومن أين لي أن أعلم أنك كل أحد تذهب مع عائلتك للكنيسة، ثم إني لم أفكر بهذا الموضوع، وممكن حل الموضوع أن نبحث عن بديل لك.

لكنه كان حانقًا غاضبًا وخرج من الغرفة وهو منزعج ومهموم، تأثر سلوان وذهب لمدير المستشفى يطلب منه إعفاءه من هذه المهمة، ألح المدير في معرفة السبب، فحكى له سلوان ما حصل بينه وبين الدكتور ديفيد، ابتسم المدير

وقال:

- دكتور سلوان هو لا يقصدك شخصيًا بل يقصد العمل الذي تقوم به، يقصد المنصب الوظيفي لا غير.

وفي اليوم الثاني كان سلوان يتناول إفطاره في مطعم المستشفى فتفاجأ بالدكتور ديفيد، وقد جلب إفطاره وجلس بجانب سلوان على نفس الطاولة وسلم سلامًا جميلاً، فتذكر سلوان كلام مدير المستشفى ودقته وصدقه.

الحب

«حب هل الحرفين مش أكثر أد الدني وأكبر» كما يغنيها المطرب وديع الصافي.
الحب أجمل كلمة بالأدب العربي، كبيرة ولكننا لا نراها، نحسها، نشعر بها، ندركها، نعيشها، تسعدنا، تحزننا، تعذبنا، تحرقنا لكننا لا نراها، لها أسماء وصفات مثل "الهوى، الهيام، العشق، الوجد، الجوى..." وليس هناك مَن يستطيع أن يصف لنا الهوى، لا قيس وليلى، ولا قيس ولبنى، ولا عزة وكثير، ولا جميل وبثينة، ولا العقاد وسارة، في الأدب العربي الذي قرأناه وعشناه أيام الصبا والشباب. ومن حقنا أن نضحك ونحن ننشد هذا البيت لأبي نواس:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فو الله ما أدري الهوى كيف يوصف!

ويفسر لنا شوقي معنى هذا البيت:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى لعل الذي لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته فو الله ما أدري الهوى كيف يوصف

واستطرد شوقي قائلاً:

ألوم معذبي فألوم نفسي وأغضبها ويرضيها العذاب

ويقول في نهج البردة:

يا لائمي في هواه والهوى قدر لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

ويؤكد هذا البوصيري:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

ويتغنى الرافعي فيقول:

يا مَن على البعد ينسانا ونذكره	**لسوف تذكرنا يومًا وننساكا**
أن الظلام الذي يجلوك يا قمر	**له صباح متى تدركه أخفاكا**

ويحاول إبراهيم ناجي أن يصف لنا الحب:

هل رأى الحب سكارى مثلنا	**كم بنينا من خيال حولنا**
ومشينا في طريق مقمرٍ	**تثب الفرحة فيه قلبنا**

ويصعب على بيرم التونسي وصف الحب باللغة الفصحى فيلجأ إلى اللهجة المصرية:

الحب كده وصال ودلال ورضا وخصام **أهوه من ده وده الحب كده مش عايز كلام**

ولم يصف لنا أحد منهم شكل الهوى، وما هو الهوى ؟

الابتسام

زرت متحف اللوفر في باريس ولاحظت ازدحام في إحدى قاعاته، والزوار متسمرين أمام لوحة مساحتها متر مربع تقريبًا، فانحشرت وسطهم، أنا أمام لوحة جيكوندا المشهورة للجميلة موناليزا للرسام ليوناردو دافنشي، وسر عظمة هذه اللوحة الخالدة ابتسامة موناليزا وقدرة دافنشي على تجسيد ابتسامتها الرقيقة من أي زاوية تنظر منها، وكيف تَمكَّن دافنشي من ضبط الابتسامة قبل أن تكون ضحكة.

كنا مجموعة أصدقاء من المندائيين في ستوكهولم نلتقي كل أسبوع في نادي أور الاجتماعي نتباحث في شتى المواضيع السياسية والاجتماعية والتنظيمية والفلسفية والدينية، ولكن أجمل فقرة في اللقاء هي فقرة النكات والضحك التي لا نختلف عليها فهي تبعث فينا المتعة والراحة؛ لأن مقدار حضارة الناس قدرتها على الضحك وهذا يعني تضحك مع الناس وليس عليهم.

وابتسم للدنيا تبتسم لك؛ فالابتسامة تضيء العقل وتدفئ القلب، وليكن قلبك باسمًا ليظهر على وجهك وهذه نعمة من نعم الخالق.

ما أجمل كلمة ابتسام أولها أب وآخرها أم، ومَن يبتسم للناس، يكسب محبتهم ولا يلتفتون لملابسه القديمة؛ لأن الناس تنظر لوجهك الباسم ولا تنظر لملابسك مهما كانت أنيقة، وأنت لست بحاجة لمعرفة اسمي لتبتسم لي، وابتسم الآن فقد لا تقدر على ذلك غدًا.

ضاع الأمان

قصة جميلة لشاب جميل، طبيب أسنان، أحبته فتاة رائعة الجمال والحياء تتردد على عيادته لسلامة أسنانها اللؤلؤية، تَعرَّف عليها وأَحبَّها حبًا شغل عليه حياته وعمله، سعادته أن يفكر بها بكل لحظة من حياته؛ ولأنها من عائلة محافظة معروفة، أبوها شخصية أكاديمية وسياسية مرموقة، تقدم لخطبتها بعد موافقتها، تردد الأب كثيرًا بزواج ابنته الوحيدة من شاب من عامة الناس حتى لو كان طبيبًا ناجحًا، ولكن إلحاح الأم وإصرار نادية ليَّنا قلب الأب المثقف الواعي.

تزوج رعد ونادية وعاشا سعيدين وأنجبا ولدًا جميلاً وذكيًا، نادية فتاة مطيعة ذوبت شخصيتها بشخصية زوجها من فرط حبها له، ولا ترد لأمها طلبًا مهما كان، تحولت حياتهما لحياة رتيبة مَلَّها الزوج وانتقدها مرارًا وتكرارًا، يريد لزوجته التي يحبها شخصية في قراراتها، شخصية في آرائها، يريدها أن تشاكسه ولو لمرة واحدة، لقد أصابه الملل من كلمة «نعم، حاضر، بلي» ومَلَّ من توجيهات

أمها لها، فانفجر غاضبًا وهو يردد مع نفسه موالاً يغنيه ماجد المهندس مقدمة لأغنيته المشهورة «علمودك... أحبك وأريدك... وأتمنى لو تذبحني بيدك... ودي والله ودي... أشوفك مرة ضدي... حتى ما يكتلني حبك... ولو كتلني آني

شهيدك... تعودت حبك وظلمك... خل يكولوا الحب أعمى... أحلى حب اللي يعذبك ويخلي القيد بإيديك... آني أحبك آني أرديك».

هكذا حفظها... وهكذا يدندها مع نفسه ويركز على مقطع «ودي والله ودي أشوفك مرة ضدي»، نبه زوجته مرارًا أن لا تكون طينة طيعة لهذا الحد ولكن دون فائدة، وفي ساعة غضب وانفعال ترك رعد البيت وأرسل لنادية ورقة الطلاق، صُعِقَت نادية وانهارت وبكت وهي تقول «ماذا فعلت يا إلهي؟».

اتصلت برعد مرات ومرات ولكنه لا يرد عليها، أخذت ولدها وشنطة ملابسها، وذهبت لأهلها الذين أصابهم الذهول، لاموها وأنَّبوها وقالوا لها «هذا سوء اختيارك، ولكننا سنزوجك تاج رأسه».

دخلت غرفتها وندبت حظها العاثر واتصلت بصديقتها المحامية صفية لتخفف عن نفسها، جاءت صفية لزيارتها وهدأتها وتجاذبتا أطراف الحديث، ونصحتها صفية أن تقيم دعوة قضائية على رعد بسبب ما وقع عليها من ظلم دون سبب مبرر، وبعد نقاش وافقت نادية وخوَّلت صفية بإقامة الشكوى شرط أن لا تحضر يوم المرافعة حفاظًا على اسم والدها السياسي، وهكذا كان.

استغرب رعد الأمر كيف ستواجهه نادية العاقلة المطيعة، رفضت المحكمة الدعوة؛ لأن الشرع يحلل الطلاق، الزوج عاد للبيت وهو مندهش من جرأة نادية، وتفاجأ بوجود نادية في البيت وهي ترتب حاجات البيت المبعثرة، وقفا مشدودين يتبادلان النظرات.

بعد هذا السكون المطبق نطق رعد بصوت متهدج:

- أنا آسف لما حدث وأعتذر وأرجو قبول اعتذاري، سامحيني إنها نزوة صحوت منها، وعلى كل حال لم نخسر شيئًا، هذا أنا وهذه أنت وهذا ولدنا وهذا بيتنا.

تلعثمت نادية ولكنها سرعان ما استجمعت شجاعتها وقالت بصوت متهدج تخنقه العبرة:

- لا، أنا خسرت الكثير، نعم خسرت الكثير يا رعد، خسرت الأمان.

العدل أساس الملك

قرأت قبل أيام موضوع نشره صديقي العزيز صلاح جبار عوفي، عن إنشاء دولة جديدة صغيرة المساحة والسكان اسمها (العدل أساس الملك)، ويُحكَى أن أميرًا من بلاد فارس قدم إلى المدينة المنورة وسأل:

- أين إيوان الخليفة عمر؟

فأشاروا لظل نخلة قد أخذ فيه الخليفة غفوة:

- هذا هو الخليفة.

فعجب وقال:

- عدلت فآمنت فنمت.

فما بالكم اليوم من المنطقة الخضراء المحصنة والحمايات والصرفيات!

وحكايتنا أن أحد الولاة في زمن الخليفة العباسي المنصور غصب بستان لرجل دون وجه حق، فشكاه للمنصور قائلاً:

- مولاي أأذكر حاجتي، أم أضرب لك مثلاً قبل ذلك؟

قال المنصور:

- اضرب مثلاً.

قال الرجل:

- مولاي، إن الطفل إذ أصابه ما يكره شكا لأمه؛ لاعتقاده أن لا ناصر له

غيرها، فإن ترعرع شكا لأبيه؛ لظنه أن أباه أقوى من أمه، فإن كبر شكا للوالي؛ لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإن رجح عقله شكى إلى الخليفة؛ لأنه أقوى من كل الناس، فإن لم ينصفه ويحل مشكلته ويعطيه حقه، شكى إلى الله سبحانه وتعالى، وقد أصابني ضررٌ وليس هناك فوقك أو أقوى منك إلا الله.

فقال:

- اطمئن والله ننصفك ونعيد لك حقك ونحل كل مشاكلك.

وكتب إلى الوالي أن يعيد له بستانه، ويهتم به، ويهيئ له أسباب الراحة.

السائس والسياسي

يُحكَى أن ملكًا من ملوك أيام زمان يملك مهرة بيضاء جميلة موضع اهتمامه واعتزازه وعنايته، يهتم بها وبتربيتها وكأنها بنته.

السائس المشرف عليها تقدم به السن، وأُحِيل إلى التقاعد، فطلب الملك من الوزير الأول أن يجد له سائسًا بديلاً:

– مولاي الملك، هذا السائس الجديد.

– مولاي، أنا سياسي ولست سائسًا.

الملك:

– ما الفرق! هذا يسوس الناس وهذا يسوس هذه المهرة، فأنت في كل الأحوال سائس، أريدك أن تعتني بهذه المهرة وتداريها كما تهتم بعينك.

– حاضر مولاي الملك.

وبعد عشرين يومًا من العمل المضني، هرب السائس، ولكن تمكن الحراس من إلقاء القبض عليه وإحضاره للملك.

الملك يحاسب السائس عن سبب هروبه:

– مولاي، صحيح هذه مهرة أصيلة ولكنها لم ترضع من حليب أمها الأصلية، لقد غشوك بها، وأنا خفت من ذلك فهربت.

الملك يزجر السائس ويؤنبه ويرميه في السجن ويقطع عليه الطعام والشراب،

الملك يستدعي الوزير الأول الذى أهداه هذه المهرة ويطلب منه أن يخبره حقيقة هذه المهرة وإلا عرض نفسه للعقاب الصارم:

– مولاي، والله إنها مهرة أصيلة وأمها مهرة أصيلة، ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان، حيث ماتت أمها في الولادة فاضطررنا أن نرضعها من البقرة، هذه كل الحكاية.

الملك يستدعي السائس من السجن ويسأله:

– كيف عرفت أنها لم ترضع من أمها الأصلية؟

– مولاي، المهرة الأصلية تأكل عليقتها وهي مرفوعة الرأس، وتأكل العشب الطازج، أما هذه فتأكل أي شيء أمامها وكأنها بقرة من الأبقار.

تعجب الملك من فطنة السائس وقال للحرس:

– أعطوه تمنًا ومرقًا ليأكل حتى يشبع.

وقال له:

– أحسنت، أريدك في خدمة الملكة زوجتي لتستفيد من فطنتك.

وهكذا بعد عشرة أيام من الخدمة عند الملكة هرب السائس، ولكن الحرس بأمرٍ من الملك تلقي القبض على السائس، ويقدمونه مذنبًا أمام الملك:

– لماذا هربت أيها السائس؟

– مولاي، أعطني الأمان وسوف أخبرك الحقيقة والله.

– لك الأمان فأخبرني ماذا لديك؟

– مولاي، الحقيقة مُرَّة وأنا أخاف منك.

- قل؛ فأنا أعطيتك الأمان يا رجل.

- زوجتك مولاي تربية ملوك ولكنها ليست بنت ملوك.

- وكيف عرفت بذلك؟

- مولاي، لاحظت أنها عندما تتكلم تغمز بعينها وهذه من عادات الغجر (الكاولية).

غضب الملك وأمر بسجن السائس وقطع الطعام والشراب عنه وذهب لأهل زوجته وطلب منهم إفهامه الحقيقة حتى لو كانت مُرَّة، فأخبروه:

- صحيح أيها الملك لقد عرفنا بعد زمن من ولادتها أن بنتنا الحقيقية ماتت في الولادة وأن المُولِّدة والخدم خافوا من انتقامنا منهم فجاءوا بهذه البنت من الغجر دون علمنا ولكننا ربيناها تربية ملوك.

عاد الملك مهمومًا وأمر بإحضار السائس وإطعامه تمنًا ومرقًا، وشكره على فطنته، وأخبره أنه من اليوم يعمل في خدمة الملك شخصيًا؛ ليستفيد من نباهته.

السائس في اليوم الثاني يهرب، ولكن الحرس يلقون القبض عليه ويقودونه للملك لمحاسبته:

- سيدي الملك، سامحني لأني خفت أن أقول لك الحقيقة فتؤذيني.

الملك:

- وأي حقيقة أخرى يا رجل؟

- مولاي، أعطِني الأمان.

- لك الأمان يا سائس.

- مولاي، هل تعلم أنك لست من نسل ملوك؟

- ماذا تقول أيها الكلب؟ ارموه في السجن واقطعوا عنه الطعام والشراب.

الملك يفكر وهو بين الشك واليقين وذهب مهمومًا لأمه الملكة الأم وأجبرها أن تقول له الحقيقة المُرَّة، الملكة وهي تبكي:

- اسمع يا ولدي، مرت على زواجي من أبيك سبع سنوات دون إنجاب، وهددني الملك بالطلاق وزواجه من غيري، وأنا كنت أعرف أنه السبب ولكنه يكابر، فاضطررت أن أعاشر الطباخ وأحمل، فأنت من صُلب الطباخ يا ولدي.

قال لأمه:

- اكتمي السر ولا تبوحي به لأحد أبدًا.

وعاد فاستدعى السائس من السجن، وقال له:

كيف عرفت أني لست ابن ملك؟

- مولاي الأمان.

- لك الأمان والله.

- مولاي، الملوك عطاياهم ذهب وفضة وجواهر، وأنت عطاياك تمن ومرق فأكيد أنت لست من نسل الملوك.

تعجب الملك من فطنة السائس وذكائه، وأمر أن يكون الوزير الأول؛ ليستفيد من فطنته ونباهته لأنه حقًا سياسي وليس سائسًا، ويا مكثر السُّيَّاس الذين يحكمون كسياسيين، وقادة عسكريين.

اللقـلـق

تُحدثنا التوراة (العهد القديم) الكتاب المقدس لليهود، أن يهوه (الله) يكلمونه ويكلمهم ويسير أمامهم في النهار على هيئة عمود دخان، وفي الليل على هيئة عمود نور، وأن ملكهم داود بعد أن استتبت له الأمور طلب من الله أن يبني له بيتًا، فقال الله:

- أنت لا تبنيه لأن يديك تلطخت بدماء الأبرياء؛ لكثرة حروبك يا داود وإنما ابنك الملك العادل سليمان مَن يبني بيتي.

ولهذا وهب الرب قدرات ومعجزات خارقة للملك سليمان بن داود، منها قدرته أن الجن والحيوانات والطيور تطيعه وتكلمه ويكلمها وتفهمه ويفهمها.

وهكذا كان الأمر، النبي سليمان يعقد اجتماعات دورية يعظهم ويأمرهم وهم ينفذون ما يريد.

في أحد اجتماعاته مع الطيور أوعظهم أن مَن يرتكب إثمًا أو معصية فإن الله يحاسبه عليها بعد عشرين عامًا، وانفض الاجتماع، وطارت الطيور عائدة أدراجها إلى أوكارها، وكان القلق من ضمن مَن حضروا الاجتماع وسمع الموعظة، فكر اللقلق بهدوء ما هو فاعل وقد أوصته زوجته أن يجلب معه خرقة من القماش تلف بها فرخها في العش لتحميهم من البرد ووخز العيدان، اللقلق طائرًا في السماء حائرًا بين تنفيذ طلب زوجته وبين تحذير النبي سليمان، وهنا

لاحت للقلق امرأة تغسل الملابس وقد أوقدت موقدًا لتسخن الماء وأمامها طشتًا وبجانبها كوم من الملابس، وشاهد اللقلق دشداشة بيضاء تفي بالغرض وتلبي طلب زوجته وفكر هنيهةً بموعظة النبي سليمان وقال في نفسه:

– الله كريم بعد عشرين عامًا تتغير الأحوال ومائة عمامة تنقلب.

وانحدر باتجاه الدشداشة ونقرها من طرفها وأطبق عليها وشرع بالطيران بجهد جهيد، وحاولت المرأة تدارك الأمر وهي ترى اللقلق يسرق الدشداشة فهرعت إلى خشبة متقدة وضربت بها اللقلق وهو يهم بالإقلاع للطيران فجاءت الضربة في الدشداشة فسقطت من الخشبة جمرات على الدشداشة، اللقلق طائر والهواء قد أذكى الجمرات، وحال دخول اللقلق لعشه اشتعل حريق في بيت اللقلق فماتت الفراخ وماتت أم اللقالق واحترق جناحا اللقلق وذيله، وتمكن بقدرة قادر أن يحط على غصن شجرة مقابل عشه وهو يذرف الدموع حسيرًا كسيرًا متألمًا.

مرَّت الأيام واللقلق قد غاب عن اجتماعين متتاليين، فسأل النبي سليمان الهدهد عنه فأجاب:

– لا أعلم يا مولاي.

فقال له:

– ابحث عنه وأخبرني.

فأجاب الهدهد:

– أمرك مطاع يا ملك الإنس والجان وكل طيرٍ وحيوانٍ.

بحث الهدهد في كل مكان ووجد اللقلق وكأنه المالك الحزين، بحالة مزرية، واستغرب الهدهد وسأل:

- ماذا أصابك يا صديقي؟

فأجابه:

- تصور يا أبا الهداهد نبي ويكذب؟ أتذكُر ما قاله لنا في موعظته؟

- نعم، أذكُر ذلك.

- اسمعني يا أخي، أنا سرقت الدشداشة من هنا، وأنا الهدم بيتي من هنا، فأين العشرين عامًا التي قال عنها نبيك الكاذب؟

صفن الهدهد وهو لا يملك الجواب ووعد اللقلق أنه سيسأل النبي ويعود ثانيةً، وبعد حين عاد الهدهد وأخبر اللقلق:

- يهديك النبي سليمان التحية ويعزيك بمصابك الجلل ويقول لك هذه العقوبة لذنبٍ اقترفته أنت قبل عشرين عامًا، أما عقوبة الدشداشة فهي قادمة إليك لا محالة في الطريق؛ لأن الله يمهل ويهمل.

ملاحظة: يوجد مرقد النبي سليمان على الطريق الممتد بين مدينتي البصرة والعمارة على حافة الهور، وأهل البصرة يزورونه ويقدمون إليه النذور.

وصية حكيم

أوصى لقمان الحكيم ولده فقال:

- يا بني، كن حذرًا من اللئيم إذا أكرمته، ومن الكريم إذا أهنته، ومن العاقل إذا هجرته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الجاهل إذا صاحبته، ومن الفاجر إذا خاصمته، وتمام المعروف تعجيله.

يابني، ثلاثة أشياء تحسن بالإنسان، حسن المحضر، واحتمال الإخوان، وقلة الملل للصديق، واعلم يا بني أن أول الغضب جنون وآخره ندم.

يا بني، ثلاثة فيها الرشد، مشاورة الناصح، ومداراة العدو والحاسد واللئيم والتحبب لخلق الله.

يا بني، إياك والمغرور، مَن وثق بثلاثة أمور، يصدق ما لا يراه ما خلا الله، ويصاحب مَن لا يثق به، ويطمع فيما لا يناله.

يا بني، أبعد نفسك عن أصدقاء السوء، وعمَّن يعتقد أنه أحسن من الناس وهو أرذلهم، وعمَّن كان له صاحب ناصره بالحق والباطل وتخلى عنه بين ليلة وضحاها واصطف مع مبغضيه.

يا بني، احذر الحسد لكي لا تفسد أخلاقك ويضعف إيمانك ونفسك ويعقبه الندم، ولا تكن نمامًا ولا تخن أمانة أبدًا.

يا بني، هذه وصيتي إليك والسلام.

من هوان الدنيا

قال حكيم هندي متشائم «من هوان الدنيا يمكن وصفها بسبعة أشياء: مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومفروض ومسموع ومبصر: أما المأكولات فأحسنها العسل وهو لعاب ذباب، وأطيب المشروبات الماء، ويستوي في شربه الإنسان وأحقر الكائنات، وأفضل الملبوسات الحرير وهو لعاب دودة، وأشرف العلاقات المفروضة الزوج والزوجة، ونحن معشر الرجال لا نستطيع أن نعيش معهن، ولا نستطيع العيش بدونهن، وأطيب المشمومات المسك، وهو دم الغزال، والمسموع والمبصر مشترك بين الناس والبهائم».

سور الصين العظيم

الصين القديمة تعنى بكين التي تقع في وادٍ كبيرٍ تحيط به سلاسل جبلية تتباين في ارتفاعها، إمبراطور الصين العظيم تشين، ووزراؤه يناقشون مشكلة الدفاع عن الحدود الجنوبية التي دائمًا يأتي منها الغزاة والعواصف والجراد، ويفكرون في طريقة لمنع غزو الأعداء، قال الإمبراطور:

– كل مرة نُفاجَأ بالغزاة ونحتاج لعدة شهور لنجهز جيشًا لطردهم من بلادنا وهذه مدة كافية ليحتلوا مناطق شاسعة يعبثون بها ويسبون نساءنا ويقتلون رجالنا وينهبون أموالنا، ما رأيكم لو بنينا جيشًا قويًا يقوده قادة أكفاء نحركه على وجه السرعة باتجاه الأعداء؟

قال الوزير الأعظم:

– إنها فكرة ممتازة يا سيدي ولكنها صعبة التنفيذ؛ لأن الجيش يحتاج إلى ضبط وربط ودقة وسرعة تنفيذ الأوامر.

– وما الضير في ذلك أيها الوزير الأعظم؟

– سيدي، إن منحتني صلاحيات مطلقة أنا أبني لك هذا الجيش.

– أرني أيها الوزير مثلاً لذلك.

– أمرًا وطاعة سيدي.

كانت محظية الإمبراطور ومحظيات الوزراء معهم جالسات للترفيه واللهو وتقديم الخدمات، قال:

– لنبدأ بالمحظيات، ونُشكِّل منهن فصيلاً وسنرى.

قال الإمبراطور:

– لك ما طلبت، ولك مني مطلق الصلاحيات افعل بهن ما تريد.

الوزير يأمر المحظيات (حريم السلطان أيام زمان) أن ينتظمن صفًا واحدًا، الوزير الأعظم ينظم نسق الصف ويقف أمامهن ويصيح بصوت جهوري:

– استعد.

فتضحك محظية الإمبراطور، يتقدم لها الوزير الأعظم ويستل سيفه ويقطع رأسها والجميع في ذهول، يصيح الوزير الأعظم:

– استعد.

فيستعد الجميع بقوة وحماس يمينًا تراصف إلى اليمين در... عادةً سر... فصيل قف... تُنفَّذ الأوامر بدقة عالية.

– سيدي هكذا يُبنَى الجيش.

الإمبراطور يفيق من هول الصدمة قائلاً:

– إذًا لنبني أول جيش.

وهكذا كان أول جيش نظامي.

كلف بناء الجيش أموالاً طائلة أرهقت الخزينة الإمبراطورية، فكر الإمبراطور تشين لماذا لا نبني سورًا عظيمًا حول الصين ولمرة واحدة ونحل المشكلة؟ وهكذا جُنِّدَت الأمة الصينية ومواردها في ذلك الزمان لبناء سور الصين العظيم.

وفي منتصف السبعينيات زرت هذا السور العظيم المبني من الحجر والموصوف بدقة بناء عالية الذي يمتد مئات الكيلو مترات بحدود ٦٧٠٠ كم عبر الجبال

والوديان ليحيط بالصين القديمة، أُقدِّر عرضه بثلاثة أمتار تقريبًا وكل مئة متر تقريبًا بُنِيَت قلعة، تشاهده من الطائرة كثعبان أو تنين عظيم التف حول بكين يتسلق الجبال ويمر في الوديان.

بدأ بناؤه في القرن الثاني قبل الميلاد، واستمر بناؤه أكثر من ألف سنة وتعاونت سلالة تشين وسلالة ميونغ، وهو أطول بناء علي الأرض ومن عجائب الدنيا السبع، ولو استُخدم حجر السور لأمكن بناء سور سُمكه متر وارتفاعه خمسة أمتار حول الكرة الأرضية.

يعتبر المَعلم الوحيد الذي يشاهده رواد الفضاء؛ لأنه يمتد من البحر الأصفر لغاية صحراء غوبي، المهم لاحظ أباطرة الصين أن السور وحده لا يمكنه حماية الصين القديمة؛ لأنه يمكن للغزاة اختراقه ولا بد من وجود جيش قوي يحميه ويمنع الغزاة من اجتيازه، ومع هذا تمكن المغول من اجتيازه واحتلال الصين لمدة مئة عام.

غباء أم ذكاء

تزوج ابن عم أحد أمراء زمان، فوجه له دعوة حضور حفلة الزواج وأرسل له مأمورًا يخبره بذلك، فكر الأمير وقرر عدم الذهاب لبُعد المسافة ولأن صحته لا تساعده على السفر، قال للمأمور:

– سأرسل معك عشرين خروفًا هدية زواج ابن عمي الأمير مع رسالة تهنئة وتبريك.

وأمر الحاجب أن يسلم المأمور عشرين كبشًا من السمان ويعطيه الرسالة، المأمور والخراف يواصلون رحلتهم من قرية لقرية، وفي إحدى القرى على الطريق رأى قصاب القرية الخراف، فأعجب بكبشٍ سمينٍ فقال للمأمور:

– هل تبيعني هذا الكبش السمين؟

وعلى سبيل المزاح طلب المأمور من القصاب مبلغًا جيدًا فوافق وأخرج المبلغ من كيسه لغرض إغرائه، فكر المأمور مليًا وقال في نفسه «إنها هدية أمير لأمير وعددها كثير فليس من المعقول أن الأمير سيعدهم وهو في غمرة فرح الزواج».

وهكذا باع الخروف السمين واستلم الثمن المحتاج إليه لطريق السفر ولشراء ملابس له وهدايا لأهله، وصل المأمور مع الخراف إلى المدينة وتوجه فورًا لقصر الأمير وسلمه الرسالة:

– مولاي، هل أضع الخراف في زريبة الأغنام؟

– انتظر أيها المأمور لأقرأ رسالة ابن عمي، يقول ابن عمي أنه أرسل لي عشرين

خروفًا فدعني أعدها.

بعد أن عدها وجدها تسعة عشر خروفًا، فقال:

- أيها المأمور، إنها تسعة عشر وليس عشرينًا كما تذكر الرسالة.

- مولاي، إنها عشرون خروفًا.

- طيب عدها أيها المأمور.

المأمور يعد ويقول:

- مولاي، إنها عشرون.

يعيد الأمير العد فوجدها تسعة عشر، ويعدها المأمور ويدَّعي أنها عشرون، وليتأكد الأمير من العدد نادى على عشرين من حرس القصر وقال للمأمور:

- عدهم.

فقال بعد أن عدهم:

- مولاي، إنها عشرون.

زيادة في التأكيد قال الأمير للحرس ليصيح الأول واحد والثاني اثنين وهكذا للعشرين، وصاح واحد اثنين ثلاثة... عشرون... وسأل الأمير تمام الحرس عددهم عشرون، فأجاب:

- نعم مولاي.

- طيب عندما أصفق كل حارس يسرع بأقصى سرعة ويمسك له خروفًا.

وقال الأمير للمأمور:

- وبهذا يجب أن يمسك كل حارس خروفًا له.

- هذا صحيح أيها المأمور.

- نعم مولاي هذا صحيح.

صفق الأمير فأسرع الحراس ومسك كل واحد كبشًا إلا حارس واحد بقي بدون كبش، الأمير يسأل:

- أين كبش هذا الحارس أيها المأمور؟

- مولاي، هذا الحارس غبي؛ لأنه لو أسرع لمسك كبشًا مثل أصحابه، عليك أن تعاقبه والذنب ذنبه وليس ذنبي كما ترى مولاي الأمير.

الصداقة

المشكلة أن الصداقة كالعداوة؛ لأنك في الحالتين مشغول فكرك كيف تحافظ على الصداقة وكيف تتجنب شر العداء، والصداقة تحتاج منك إلى تضحية لتحرص عليها، وهذا الحرص يجعلك أن تمشي كثيرًا من الأغلاط وتغض الطرف عنها، لكي تتجاوز متاعب الصداقة، فهي كالبذور في الفاكهة التي تحبها، كالشوك في الورود، كالنحل في جني العسل، وعليك أن تقبلها؛ لأنه لا حلاوة من غير نار، ولا نار من غير دخان، ولا لذة من غير تعب، ولا عاطفة من غير قلق وخوف، ولا حياة بدون صديق أو حبيب، والحياة بلا أصدقاء أقسى من الحياة التي بها كثير من الأصدقاء.

ويبقى الإنسان في حيرةٍ من أمره، يعتريه القلق والخوف واليأس والأمل إلى أن يقتنع أن الصداقة مثل العداوة شر لا بد منه، فالحب والكراهية مثل الليل والنهار، مثل الشمس والظل، مثل الماء والنار، كالحياة والموت.

وأروع علاقات الصداقة هي ما بين الرجل والمرأة، ولكنها من أقسى العلاقات، فسهل أن تكون صديقًا وصعبًا أن تكون عشيقًا، وأصعبها أن تكون زوجًا ناجحًا وتقتنع وتقنع به الآخرين لتكوين عائلة سعيدة برباط شرعي، ولكن لا نعلم ما يُخبِّئه لنا المستقبل ونحن نعيش في السويد، ونرى بأم أعيننا كثيرًا من

السويديين الناضجين قد أسسوا عوائل بلا قيود، وربما تكون سعيدة بلا زواج شرعي. بطريقة السامبو (المعيشة المشتركة) ليحتفظ كلٌّ منهم بحقوقه الاقتصادية دون أن يتحمل أحدهم مسئولية الثاني، وهذا ما يتعارض مع الأخلاق والدين والتقاليد بمقاييسنا التي تربينا عليها؛ فالخوف والتوجس من المستقبل ومن الشباب الذين تربوا في هذا المجتمع، وتعلموا عاداتهم وأسلوب حياتهم، خاصةً وقد خفت كثيرًا سيطرة الأب والأم على الأولاد؛ لأن الدولة هنا تقوم بواجب العناية والرعاية والإنفاق مقام الأم والأب، ولهذا على العوائل المندائية بذل جهود استثنائية للمحافظة على صداقة أولادهم، وضرورة تمسكهم بالقيم والأخلاق والعادات الحميدة وثوابت الدين المندائي وبناء هذه الصداقة على الحب والإيمان والمعرفة وكل ما هو راقٍ ومتطور؛ لمواكبة الجانب المضيء من العصر، وواجب على المؤسسات المندائية أن تبذل قصارى الجهود للمحافظة على النشأ المندائي... ودمتم.

موظف حكومي

محسن فلاح مجتهد في مشروع المسيب الكبير في مدينة الحلة، يدير مزرعة صغيرة في جهة النهر الأخرى، ويملك ثورًا معروفًا في المنطقة بقدرته العالية على تلقيح الأبقار، يستطيع تلقيح سبع أبقار في اليوم الواحد، في جهة النهر الأخرى من المشروع، المقابلة لمزرعة محسن توجد شركة حكومية لتربية الأبقار، ولديهم سبعة ثيران لتلقيح تلك الأبقار، كل ثور يستطيع أن يلقح بقرة واحدة في اليوم الواحد فقط، أي أن جهد ثيران الشركة السبعة يساوي جهد ثور محسن لوحده.
اجتمع مجلس ادارة الشركة ودرس الموضوع وبعد نقاش وأخذ ورد ودراسة الجدوى الاقتصادية، قرروا بالإجماع بيع السبعة ثيران التي تملكها الشركة وشراء ثور محسن بثمنها، باع محسن الثور للشركة بعد أن أغروه بالمال رغم اعتزاز محسن وحبه وحنانه لثوره وعنايته بطعامه وشرابه ومعنوياته، احتفلت الشركة بالثور الجديد وبقدرته العالية على التلقيح وتركوه يسرح مع الأبقار الكثيرة العدد، وعندما جاء موسم التلقيح لم يستطع الثور أن يلقح أكثر من بقرة واحدة في اليوم الواحد، استغرب مجلس الإدارة وبعثوا يطلبون محسن لمعرفة السبب، قال لهم محسن:

– أنتم حولتم الثور إلى موظف حكومي حاله حال الآخرين.

حرية الكتابة

أيام زمان في الستينيات والسبعينيات كانت تُشكِّل الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون العراقية لجنة تخصصية لاختيار أصوات المطربين الهواة، بعدها يتم دعمهم وصقل موهبتهم التي حباهم الله بها ليطربوا الناس ويشنفوا آذانهم بشكل جميل ولحن رائع وكلمات هادفة، فكان لنا زهور حسين، وحيدة خليل، سليمة مراد ومحمد القبنجي، ناظم الغزالي، رضا علي، داخل حسن، حضيري أبو عزيز ناصر حكيم، مائدة نزهت، عفيفة إسكندر، سعدون جابر، كاظم الساهر، وآخرون من المبدعين من المطربات والمطربين، ومن الملحنين والموسيقيين من الذين أطربونا ونقلوا الأغنية العراقية نقلات نوعية، وهذا ما تكرسه الآن البرامج المشهورة مثل ستار أكاديمي وأحلى صوت وعرب أيدل، ومع أنها لجان متخصصة في الطرب أشركوا الجمهور المتذوق معهم في الاختيار، فأصابوا مرة وأخطأوا مرات.

وفي الثمانينيات تحول الطرب والغناء لدعم المعركة ورفع معنويات المقاتلين والمواطنين فتغير الذوق العام من عاطفي إلى قتالي، والغريب بالأمر أنه تم ترويج هذه الأغاني في الحفلات والزواج والأفراح.

وفي التسعينيات أطلت علينا قناة الشباب ففتحت المجال لكل مَن هب ودب

وادَّعى أنه مطرب فأفسدوا الذوق العام بأصوات معظمها نشاز وكلمات هابطة وألحان صاخبة، مازلنا نعاني منها في حفلات الأعراس، ومع هذا استطاع هذا اللون أن يستهوي الأغلبية من الشباب ليرقصوا على أنغامها؛ لكونها تعتمد على الرتم السريع، والحكم أولاً وأخيرًا للناس التي تميز ما بين الغث والثمين، فالناس مشارب وأذواق وكل واحد بعقله وذوقه راضٍ.

إنه ثمن الحرية والديمقراطية والتشتت، ولكن نتمنى تجنب المعاكسات والتجريح والنقد السلبي الموجه للأشخاص وليس للعمل، وكما قالوا الكلمة الطيبة صدقة، فليس لنا دولة وإمكانات مادية، وليس لنا قيادة مركزية يطيعها الجميع لترسم لنا المسارات.

نحن تحكمنا أخلاقنا وتربيتنا ووشائج القربى والدم، لحد الآن لم نستطع أن تكون لنا إذاعة أو قناة تلفزيونية أو مدارس تعليم لغتنا المندائية، فرواه الماري بجهود شخصية تَمكَّن أخوة لنا من إنشاء هذه الكروبات المندائية الإلكترونية لتزرع بها أزهارنا الجميلة ونسقيها دموعنا آهاتنا على ضياع الوطن الأم العزيزة ونحن نرجو الفرج القريب والظاهر أنه قريب، وكلنا يعلم مع الزهور الجميلة الفواحة لا بد من وجود الشوك وبعض الأحراش التي يجب التخلص منها إن أمكن بهدوء وعقلانية وقناعة بأسلوب تربوي مقنع هادف، والزمن كفيل بثبات الصالح وطرح الطالح؛ لأنه لا يصح إلا الصحيح... وهكذا هي حرية الكتابة.

حلم معن بن زائدة

من أشهر حُلماء العرب عبر التاريخ معن بن زائدة، إذ يُحكَى أنه تولى ولاية العراق، وكان قد اشتهر بالحلم والكرم، وأراد القوم أن يختبروا حلمه فاتفقوا مع أعرابي إن تمكن أن يُخرج معن عن حلمه يعطوه عشرة من الإبل، وإن أخفق يأخذون بعيره، وافق الأعرابي على الرهان، وكان فصيحًا جريئًا، فدخل على معن دون أن يأذن له، وقال:

– أتذكر إذ لحافك جلد شاه وإذ نعلاك من جلد البعير؟

قال معن:

– نعم، أذكر ذلك ولا أنساه.

قال الأعرابي:

– فسبحان الذي أعطاك ملكًا وعلمك الجلوس على السرير.

قال معن:

– سبحانه وتعالى.

قال الأعرابي:

– فلست مسلمًا ما عشت دهرًا على معن بتسليم الأمير.

قال معن:

– إن السلام سنة يا أخا العرب.

قال الأعرابي:

- سأرحل عن بلادٍ أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير.

قال معن:

- إن أقمت أهلاً وإن رحلت فسهلاً.

قال الأعرابي:

- فجد لي يا ابن ناقصة بشيء فإني قد عزمت على المسير.

فقال معن:

- أعطوه مئة دينار.

أخذها الأعرابي وقال:

- قليل ما أتيت به وإني لا أطمع منك بالمال الكثير.

قال معن:

- أعطوه مئة دينار أخرى.

أخذها الأعرابي وقال:

- سألت الله أن يبقيك ذخرًا فمالك في البرية من نظير.

قال معن:

- أعطيناك مئتي دينار على ذمك، وهذه مثلها على مدحك، فماذا تريد منا؟

قال الأعرابي:

- مولاي، والله لو وزعوا حلمك هذا على الناس لكفاهم، وما سعيت لذلك إلا لرهان فرض عليَّ إما أخسر بعيري وإما أربح عشرة من الإبل، وهاهو حلمك

قد خسَّرني بعيري.

قال معن:

– أعطوه عشرة من الإبل.

فاندهش الأعرابي من حلم معن بن زائدة وكرمه، فذاع صيته في كل مكان.

الحمامات الثلاث

يُقال والعهدة على القائل، إن شيخًا حكيمًا عادلاً يحبه أبناء عشيرته، رعاة الغنم فهو كبيرهم وقدوتهم وفريضتهم، يطيعونه ويحترمونه ويشاورونه في كل صغيرة وكبيرة، ويقضون أماسيهم وسمرهم كل يوم يرشفون القهوة العربية في مضيفه على حافة الهور في قرية من قرى جنوب العراق، كلهم سعداء يصغون لحديث شيخهم الحكيم تشنف أسماعهم رنة الفناجين والساقي يدور عليهم وتعطر أنفاسهم رائحة الهيل العطرة، والشيخ الحكيم يقص عليهم كل ليلة حكاية زغيرونة فيها حكمة وموعظة، وبعد أن يتناولوا العشاء مع الرز والروب والتمر والفجل، يشكرون الله على نعمه، ثم يذهبون لتفقد أغنامهم قبل أن يناموا، وفي الصباح الباكر مع النجمة يسرحون في مواشيهم حيث الكلأ والماء وهم يرددون أهازيجهم على صوت الناي والمطبك وخرير الماء.

حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، حيث هاجم قطيعٌ من الذئاب القرية الوديعة الآمنة وأكل عددًا من الأغنام، فهاجوا وماجوا وارتعدت فرائصهم من الخطر القادم واستغاثوا بشيخهم الجليل، فأشار عليهم بإحكام زرايب الأغنام وتشديد الحراسات، لكن الأمر ازداد سوءًا وزاد عدد الأغنام التي تُقتَل كل ليلة، فعادوا يستنجدون بشيخهم الجليل والشيخ لا حول له ولا قوة.

وذات مساء جاءوا للمضيف ليناقشوا شيخهم في كيفية الخلاص من هذا البلاء فلم يجدوا شيخهم ولا عياله ولا أغراضه، واتضح لهم أن شيخهم قرر الرحيل دون أن يعلم أحد، ولاحظوا في وسط المضيف أن هناك قفة مقلوبة فاقتربوا منها وقلبوها فوجدوا ثلاث حمامات إحداهما رفرفت وطارت والثانية جناحها مكسور فهرولت بعيدًا، والثالثة مذبوحة غارقة بدمها فاستغربوا الأمر وأخذ أحدهم ينظر بوجه الآخر ومظاهر الخوف بادية عليهم، وساد صمت مطبق لهنيهة من الزمن، قطعه صوت رجل عجوز يحترمه الجميع ويستأنسون برأيه السديد، قال:

- يا قوم إن شيخكم رجل حكيم يقول لكم مَن يستطيع الطيران فليرحل بسلام مثل الحمامة التي طارت، ومَن لا يستطع فليرحل ماشيًا مثل الحمامة الثانية، ومَن يود البقاء فمصيره محفوف بالمخاطر؛ لأن شيخكم أدرك أنه لا يستطيع حمايتكم من هذه الذئاب المسعورة.

وكان هذا حالنا نحن المندائيون في الوطن الأم العراق، مَن كان يملك مالاً وجرأةً طار إلى بلاد آمنة، ومَن لم يستطع غادر إلى دول الجوار أو إلى مدن شمال العراق كملاذٍ آمنٍ، ومَن بقي فمنهم مَن قُتِل أو سُلِب ومنهم مَن وضع نفسه في خطر، نسأل هيي قدمايي أن يحفظهم ويبعد عنهم كل مكروه، فهم الخمرة والمدافعون عن حقوقنا وتراثنا وأرضنا الطيبة، وهم حراس أوفياء لأهلنا الذين رحلوا عنا "رواه نهويلهم" فهم المركز الأساسي لنا نحن المندائيون، فهم شمسنا ونحن نجوم ندور حولهم تشدنا إليهم قوة الجذب، وإرث عظيم وآصرة روحية متينة مغروسة في النفوس، فلهم منا نحن المغتربون كل الحب والتقدير والاحترام.

اللي راده كله فاته كله

أخوان اثنان من أهالي ناحية الحلفاية من حاضرة العمارة يمتهنان الحدادة، من قلة العيش وعدم توفر فرص العمل قررا السفر إلى الكوت واستقر بهما الحال في قضاء الصويرة.

واستأجرا محلاً في طرف السوق قريبًا من نهر دجلة، تعرفا على نجار مشهور فنان في صناعة الأبواب الكبيرة المرصعة بمسامير أبو طرة (مسمار كبير يُصنَع يدويًا رأسه عريض مثل طرة أبو الفلسين أيام العهد الملكي)، واتفقا أن يزوداه بهذه المسامير وبالرزات والكيلونات، نصبا سنداهما ونقعا مطارقهما بالماء

وشحذاها، ونصبا كورهما ومنفاخهما وأوجروهما، وباشرا بالعمل الشاق خاصة في فصل الصيف.

كان الوقت شهر مايس حيث بدأ الجو يميل للحرارة لكن العيشة تتطلب تحمل المشقة، تعرف عليهما سيد ضرير يؤم الجامع الذي يقع مقابل محلهما ليؤدي صلاة الصباح كل يوم، ويجلس في محلهم لغاية صلاة الظهيرة بعدها يذهب لبيته.

طلب النجار من الأخوين أن يجهزا له كمية من المسامير وهما منهمكين في عملهما بكل جدٍّ ومثابرة وأثناء طرق الحديد وهو ساخن بقوة يرددان الأهازيج الشعبية؛ لزيادة المعنويات وطرد التعب، ومع مرور الأيام أصبح لديهما شيء

من المال جمعاه وخبأه الأخ الكبير بعلم أخيه الأصغر تحت الفراش الذي يجلسان عليه في المحل.

انتهى شهر مايس ومر شهر حزيران وجاء شهر تموز وزادهما الله شيئًا من رزقه الحلال وهما فرحين مستبشرين يعدون الأيام للعودة لأهلهم في العيد الكبير، زارهما النجار وطلب منهما تصنيع ستمائة مسمار، ودفع لهم كامل المبلغ مقدمًا؛ ليشجعهما على سرعة الإنجاز، فرح الأخوان وشاركهما فرحتهما صديقهما السيد الضرير، وباشرا العمل وقد وجدا لهما أهزوجة يردداها عندما يطرقا الحديد وهو ساخن، يصيح الأخ الكبير حيلي (أي قوتي)، فيرد عليه الأخ الصغير حدري (أي تحتي)، وهكذا يرددان هذه الأهزوجة مرات ومرات عند طرق المسامير الساخنة، انتبه السيد الضرير للأهزوجة وفهم معناها أنهما يقولان (إن قوتنا بمالنا وهذا المال تحتنا)، وانتظر ليوم الجمعة حيث أستأمناه على المحل وذهبا إلى الشط ليستحما وتَلمَّس الفراش الذي يجلسان عليه فوجد صرة النقود تحته أخذها وخبأها بالعباءة ورتب الفراش كما كان، وحال عودتهما ذهب إلى بيته، جاء النجار فاستلم المسامير المُنجَزة وأعطاهما عربون وجبة جديدة، وذهب الأخ الكبير يقلب الفراش يبحث عن صرة النقود فلم يجدها، تلعثم الأخوان ولم يعرفا ماذا يفعلان، الأخ الصغير صرخ:

– والله السيد سرقنا لأنه فهم ما نقول.

الكبير بحكمته قال للصغير:

– اصبر فإن الله مع الصابرين إن الأمر يحتاج يا أخي إلى حلم وحكمة.

في صباح اليوم الثاني جاءهم السيد وجلس في المحل والأخوان يعملان وكأن شيئًا لم يكن، وعندما طرقا الحديد صاح الأخ الكبير لو خلاهن (تركهن)، فرد عليه الصغير جان جملناهن (كان زودناهن) ورددها طالما هما يطرقان المسامير الساخنة.

قال السيد مع نفسه:

– الظاهر أنا تعجلت كان المفروض أترك النقود فترة أخرى لحين ما يستلمون كامل المبلغ من النجار وآخذها مرة واحدة.

وانتظر الجمعة بفارغ الصبر وعندما استأذناه للذهاب للشط للاستحمام انتهز الفرصة وأعاد صرة النقود تحت الفراش، عاد الأخوان وذهب السيد، قلَّبا الفراش فوجدا صرة النقود ففرحا بها وغيَّرا مكانها، وفي اليوم التالي وهما يطرقان الحديد صاح الأخ الكبير (اللي راده كله) فرد عليه الأخ الصغير (فاته كله) ورددها وهما فرحين.

وهكذا ذهبت مثلاً شعبيًا بين الناس «اللي راده كله فاته كله» بمعنى (الطماع الذي يريد كل شيء يضيع منه كل شيء).

اليد

(هديتي للكاتب المحبوب هيثم والي)

عندما كنت في مقتبل العمر أعجبت بالكاتب المصري أنيس منصور، وبعموده الأسبوعي في جريدة الأخبار القاهرية، تذكرت شيئًا من عموده فتذكرت عزيزًا على قلبي لعلها هدية مفيدة:

جلس الكاتب سارتر في حديقة منْزله، والتفت فجأة إلى عروق يده، فتأمل حجمها ولون أظافره وباطن الكف وأنامله، أدهشته يده لو وضعها بين مئات الأيدي (لا أتذكر هل اهتدى إليها أو ما اهتدى إليها)، ولكنها يده وهي مختلفة عن كل الأيادي، ومن هذه اليد خرجت أروع الأعمال الأدبية والفلسفية.

وعندما سُئل الأديب المبدع فكتور هيجو كيف يتدفق الفن البديع من أنامله الممتلئة؟، قال: إنني أكتب كل يوم سطرًا.

يريد أن يقول إنه بالعمل المستمر تتحقق الغاية، ولكن لم يكن هذا الجواب الذي يقصده، فلم يكن السؤال عن كمية الإبداع الهائل في الرواية والقصيدة، ولكنه أراد أن يقول ليس المهم يدي معناها وشكلها ولونها ومدلولها، ولكن الأهم هو ما يفيض منها...

تقبل تحياتي.

الأميرة الجميلة

في مدينة كوفنتري الإنكليزية قرب لندن مساء كل يوم أحد يجتمع الناس في ميدان المدينة وعيونهم شاخصة صوب قصر الأميرة الجميلة ينتظرون حدثًا جميلاً سيحدث، فسألنا صديقتنا الإنكليزية سارة، زوجة زميلنا محمود فندي:

– ما الأمر وما الذي سيحدث؟

فقالت:

– دقائق وتعرفون ما سيحدث.

هناك جسر جميل معلق يربط بلكونة القصر بساحة صغيرة مُعلقة وسط الميدان، وما هي إلا دقائق حتى خرجت فتاة خارقة الجمال، قوامها رشيق وشعرها ذهبي يغطي ظهرها ومؤخرتها وقد شبكت يديها على صدرها وهي عارية تمامًا تمتطي صهوة جواد أبيض، سار الحصان ببطء شديد فوق الجسر لغاية الساحة حيث وقف قليلاً ثم لفَّ لفةً كاملةً ورجع إلى القصر والناس تصفق لها، بعدها بدأت الاحتفالات وكأنهم في كرنفال أُعِد له مسبقًا بعناية، لغاية هذه اللحظة لم تكن الأمور واضحة لنا، سألنا سارة واسمها الحقيقي (اَن) من اسكتلندا عن توضيح لما جرى، فقالت:

– هذه أميرة من الدوقية من عائلة أرستقراطية غنية في زمن مضى مرت إنكلترا بأزمة مالية حادة جراء حروبها المستمرة مع فرنسا، وعندما قرر نابليون بونابرت زعيم فرنسا غزو إنكلترا عن طريق البحر قررت إنكلترا بناء أسطول ضخم

لتهزم فرنسا، المشكلة في توفير المال اللازم، تبرعت الأميرة بكل ما تملك من أموال وتجارة وأراضٍ، دعت لقصرها أغنياء إنكلترا للتبرع بالمال وكان أغنى الأغنياء رجل يهودي يهيم بجمال الأميرة، فقال طلبك يا سيدتي مجاب وبما تطلبين ولكن بشرط أن تفرجينا على جسمك الجميل الذي وهبهُ لكِ الله، أنتِ تملكين الجمال ونحن نملك المال، فقالت لكم ما تريدون، فخلعت ملابسها كاملةً وسترت أجزاء من جسمها بشعرها الطويل ويديها الجميلتين ودارت في صالة القصر وصفق لها الأغنياء ودفعوا أموالاً كثيرة بَنتْ بها إنكلترا أسطولاً عظيمًا هزمت به نابليون في معركة واترلو (الطرف الأغر) الشهيرة، وبعد مرور كل هذا الزمان قررت بلدية مدينة كوفنتري أن تحيي ذكرى هذه الأميرة فعملت هذا النصب تخليدًا لهذه الأميرة على طريقتهم وتذكيرًا بالحدث كما حدث قبل زمن مضى، والعرض ما زال يتكرر كل يوم أحد.

ولحد الآن منظر غريب عجيب فهل هو حقًا تخليد أم منظر في نظرنا نحن العرب معيب؟

اللكَلكَي

كنيسة العذراء في بغداد من الكنائس القديمة المشهورة، في رأسها ناقوس كبير عندما يحركه الشماس خوشابا بقوة تسمع دقاته منطقة الكرادة كلها، في فصل الشتاء تأتي الطيور المهاجرة للعراق ومنها اللقالق، واحد منها يبني عشه داخل الناقوس العالي.

الشماس خوشابا يدق الناقوس بقوةٍ فلا يسمع له صوتًا فيستغرب ويبحث عن السبب، فيرى عش اللقلق[1] وقد بناه اللقلق داخل الناقوس، يتسلق بجهد جهيد وينظف الناقوس من العيدان الكثيرة المتشابكة، ولكن اللقلق يعاود بناء العش بسرعة فائقة، الشماس خوشابا يحتار في أمره ويبحث عن حل لهذه المشكلة العويصة.

يخبر القس المسئول عن الكنيسة ويرجوه أن يساعده بالخلاص من هذا اللقلق، فكر القس بطريقة عملية للخلاص من هذا اللقلق فأشار على الشماس بفكرة:

– يا خوشابا ضع فوق سطح الكنيسة تحت الناقوس كوزًا من عرق هبهب العالي التركيز وبجانبه شيء من شرائح لحم الخنْزير المملح المقدد، فعندما يأكل اللقلق اللحم المالح سوف يعطش فيشرب عرق الكوز فيدوخ فأمسكه وتخلص

(١) اللقلق / اللكَلكَ بالعامية العراقية

منه بذكاء وشطارة، مفهوم ياخوشابا؟

– نعم، مفهوم يا غبطة البطريك.

وهكذا مسكَ الشماس خوشابا اللقلق، وهو يقول له:

– أنا أريد أن أعرف يا عديم الذمة والضمير أيها اللقلق اللعين، أنتَ من أي ملة دين! فإن كنت مسلمًا كيف شربت العرق وأكلت لحم الخنْزير؟ وإن كنت يهوديًا أو مندائيًا فكيف أكلت لحم الخنْزير المحرم أكله عند اليهود والمندائيين؟ وإن كنت نصرانيًا فلماذا تخرس الناقوس يا اللكَلكَي يا ابن اللكَلكَي؟

فذهبت مثلاً شعبيًا عند الناس.

ملاحظة:

لحم الخنْزير محرم عند المسلمين (وحرَّمنا عليكم الميت والدم ولحم الخنْزير) ومحرم عند اليهود (لأن حافره مدموج لا يشق إلى ضلفين مثل الأغنام والأبقار)؛ فاليهود يحللون الحيوانات المجترة التي لها حافر يشق إلى ضلفين فقط.

ومحرم عند الصابئة المندائيين (وحرَّمنا عليكم الميت والدم والمشوة والحامل والمرضع والحائض والتي أجهضت، والكاسر والجارح وكل ما مسه حيوان مفترس)؛ ولأن الخنْزير من الكواسر فهو حرام.

البـر و العقـوق

يُحكى أن حكيمًا أراد أن يعرف عن قرب أكثر الناس بِرًّا، وأكثر الناس عقوقًا، فامتطى جواده وأخذ يطوف في الأحياء، حتى انتهى إلى شيخ في عنقه حبل يستقي بدلو الماء من الساقية ساعة الهجير والحر شديد، وخلفه صبي يصيح به إذا تعب أو غلبه النعاس، استشاط الحكيم غيظًا من الصبي وصاح به:

- اتقِ الله في هذا الشيخ الضعيف، ألا تخاف الله؟!

قال الصبي:

- إنه أبي.

فقلت:

- لا جزاك الله خيرًا على فعلك القبيح هذا.

قال الصبي للحكيم:

- أرجوك أن تسكت، فهكذا كان يصنع هو بأبيه، وكذا كان يصنع أبوه بجدَّهِ.

فقلت هذا أكثر الناس عقوقًا.

ثم واصلت المسير حتى انتهيت لشاب في عنقه زنبيل فيه فراش وثير وشيخ مُقعد لا يقوى على شيء، أتعبته سنين العمر، وهو يداريه ويزقه الطعام والشراب، كما يزق الطير الرؤوف فراخه، ويحنو عليه ويظلله ويُقبِّل كل ساعة رأسه

ويديه.

فقلت له:

– ما هذا أيها الشاب النبيل؟

فقال:

– هذا أبي، وقد خرف فأنا أكفله.

وقد تعلمت منه كيف كان يعتني ويداري أمه وأبيه عندما شاخا وعجزا، قلت والله هذا أكثر الناس برًا، وعدت أدراجي وقد رأيت أكثرهم عقوقًا وأكثرهم برًا.

الحسنة بعشر أمثالها

يُحكى أن أعرابيًا ترك أهله وسلفه وهاجر إلى الجزيرة، وهو يملك ليرة واحدة لا غير ليعمل مع الرعاة في رعي الأغنام، وبعد ردحًا من الزمن، حنَّ لأهله وقرر العودة، باع ما يملك من غنمات وزبدات، وباع كوخه وما يملك من عفش وكانت الحصيلة عشر ليرات صرَّها وتحزَّم عليها وعلَّق خرجه على كتفه فيه ملابسه وزاد الطريق وعلق في الكتف الآخر قِربة ماء.

اتكل على الله وهمَّ بالمسير، وبعد مسير عدة أيام ارتاح في خان الربع على الطريق وبعدها واصل المسير ليصل خان النص بعد ثلاثة أيام مسير، وقرر أن يرتاح، دخل الخان فوجد الناس وواعظًا يعظهم قائلاً:

- أيها الناس الحسنة بعشر أمثالها، مَن يعطي جائعًا رغيف خبز سيجازيه الله بعشرة أرغفة، ومَن يعطي محتاجًا درهمًا واحدًا فإن الله يجازيه بعشرة دراهم.

الأعرابي سمع كلام الواعظ واقتنع به ولام نفسه وقال:

- كم أنا مغفل! تغربت عدة سنين حتى غدت الليرة عشر ليرات بالجهد والتعب والسهر، وهذا الواعظ يؤكد مَن يعطي محتاجًا ليرة يعوض بعشر ليرات بيسرٍ وسهولةٍ ودون تعب وغربة.

وهكذا خرج من الخان ووزع ليراته العشرة على الفقراء الجالسين بباب الخان.

وظل ينتظر أن يعوضه الله بمئة ليرة، مرت الأيام وخلص زاده وباع عباءته وحذاءه وصايته وهو يُمنِّي النفس بحديث الواعظ دون فائدة، جاع الرجل وهو لا يملك طعامًا ولا حلالاً، فأخذ يبحث في المزابل، فسقط في بربخ وأخذ يطبش يريد الخروج فجاءت بالصدفة في يده صرة فلوس فسارع في فتحها ووجد فيها تسع ليرات فحمد الله وشكره وأخذ من الصرة ليرة صرفها، أكل وشرب واشترى له ملابس واستحم ودخل إلى الخان يريد خرجه فوجد نفس الواعظ يعظ الناس نفس الموعظة (إن الحسنة بعشر أمثالها) صاح الأعرابي بالواعظ (والله أنت تجذب وأنا الصادج... العشرة بتسعة والــــــ... للزردوم).

العجوز البطرانة

يُحكى أن عجوزًا إنكليزية تسكن لندن في الستينيات في شقة للإيجار، تأخرت عن دفع إيجار الشقة ثلاثة أشهر لعوزٍ أصابها فأنذرها مالك الشقة، فكرت العجوز بمخرج فكتبت رسالة عنونتها إلى الحي العظيم الله ربنا جميعًا، تطلب منه مالاً مقداره تسعين باون لتسديد ما بذمتها من طلب للمالك، ساعي البريد احتار لِمَن يسلم هذه الرسالة، قرر أن يسلمها للبوليس ليحتار بها.

مدير الشرطة رأف بحالها وجمع لها من المنتسبين ما مقداره ثمانون باون ووضعها بظرف وكتب عنوانها وأرسلها لها، بعد حين سلم ساعي البريد رسالة ثانية من العجوز إلى مدير الشرطة، جاء فيها:

– ربي وخالقي وأنتَ أدري بحالي، أنا أشكرك لتلبية طلبي ولكن في المرة القادمة لا ترسل النقود إلى البوليس؛ لأنهم سرقوا منها عشرة باونات دون وجه حق.

فطنة سقا

يُروى أن ملكًا من ملوك أيام زمان تعوَّدَ أن يتفقد أحوال الرعية متنكرًا، وذات يوم شتاء بارد وهو يتجول على شاطئ الفرات على جواده، لاحظ سقا الماء ينْزل النهر ليملأ قِربته بالماء الصافي ليبيعه على الناس الميسورة الحال مقابل ثمن قليل، فعزَّ على الملك الموقف وتعاطف مع السقا المسكين الذي كان يرتجف بقوة من شدة برودة الماء، فقال:

– أيها السقا، ثلاثة، وثلاثة، وثلاثة، ما عوضن ثلاثة؟

فأجابه السقا:

– ثلاثة أكد وأَفي، وثلاثة أكد وأدين، وثلاثة أَكد وأَذب بالشط، وثلاثة أَكد حتى أَعيش.

أعجب الملك بجواب السقا الفطن فقال لهُ:

– لا تبيع فطنتك برخيص.

جاوبه:

– لا توصي حريصًا.

عاد الملك إلى قصره وهو فرحان لفطنة السقا، واجتمع مع وزرائه، وقص عليهم ما دار بينه وبين السقا، وطلب تفسير ذلك وأمهلهم ثلاثة أيام، تعبوا في إيجاد

الحل المقنع الصحيح، وخوفًا من عقوبة الملك بعثوا للسقا وأخبروه أن الرجل المتنكر الذي سأله كان الملك، والآن نريد حل هذه الأحجية، فقال:

- نعم، ولكن بشروط.

- اطلب، لكَ ما تريد أيها السقا.

أريد من كل واحد منكم سلة من الذهب فأنتم سبعة، حايلوه ماطلوه دون فائدة، السقا مُصِرٌّ على طلبه، وعندما اقترب الموعد، قالوا للسقا:

- لكَ ما طلبت ولكن أسعفنا بالحل.

- بكل ممنونية، السنة أربعة فصول ربيع، وصيف، وخريف وشتاء، كل منها مدته ثلاثة أشهر، والمفروض أنا أعمل ثلاثة فصول السنة، وأرتاح فصل الشتاء لشدة برودته، ولكن ما باليد حيلة لأنه أكد ثلاثة وأَفِي دَين تربية أمي وأبي لي، وثلاثة أُسلِّفها لأولادي عندما أشيخ يعيدوها لي، وثلاثة ضائعة أصرفها على بناتي اللواتي يذهبن لأزواجهن، وثلاثة أشهر الشتاء أكد حتى أعيش أنا وزوجتي، أما سؤال الملك لا تبيع رخيص؛ لهذا طلبت منكم سبع سلال من الذهب لأن مستقبلكم كوزراء مرهون بالجواب الصحيح.

أخبر الوزراء الملك بالحل، لكن الملك عرف أنهم استقوه من السقا، فعزلهم ونصَّب السقا الوزير الأعظم وطلب منه أن يختار مَن يساعده في إدارة البلاد وإعمارها، وإسعاد العباد.

القاضي العادل

يُحكى أن ملكًا من ملوك أيام زمان كان يتنكر بزي أعرابي، ويمتطي جواده ويتجول كل يوم جمعة في الأزقة والأسواق، يتعرف على حقيقة أحوال الرعية، وذات يوم جمعة مرَّ في السوق الكبير للمدينة ولاحظ رجلاً أعرج وسط زحمة الناس، فعطف عليه واقترب منه وأردفه على الحصان وخرج به من زحمة السوق وطلب منه أن يترجل، ولكنه امتنع، وادَّعى أن هذا حصانه وأخذ يستغيث ويستنجد بالناس، وهو يصرخ:

– يا ناس يا عالم هذا الأعرابي يريد سرقة حصاني وأنا رجل معوق بحاجة إليه، انصفوني واحموني من هذا السارق.

تجمع الناس والحراس وأخذوهم للقاضي، الأعرج يُقسِم ويؤكد للقاضي أن هذا حصانه، ولكن الأعرابي بكل ثقة ووقار وأدب جم يؤكد للقاضي أن هذا حصانه، قال القاضي للحراس:

– خذوا الفرس إلى اسطبل الخيول لحين البت بقضايا الذين سبقوهم.

القضية الأولى:

– ما قضيتك يا رجل؟

– مولاي اشتريت من بائع الدهن هذا كيلو من الدهن الحر بسعر درهمين

وأعطيته دينارًا ولم يُرجِع لي الباقي.

بائع الزيت ينكر ذلك ويقسم:

- مولاي والله لقد أعطيته الباقي ووضعها في جيبه.

القاضي يطلب من الحراس أن يُحضِروا إناءً فيه ماء حار ويطلب من المشتري أن يضع ما في جيبه من فلوس في الإناء، وعندما لاحظ أن شيئًا من الزيت قد طفا على وجه الماء، قال:

- النقود لبائع الزيت واجلدوا المشتري سبع جلدات لكذبه وادعائه بالباطل.

القضية الثانية: الإقطاعي يدَّعي أن هذا الغلام الأبكم اشتراه من سوق الرقيق ويعمل عنده فلاحًا في أرضه، وقد سرق الغلام منه هذا المعلم، المعلم يقول:

- إنه يكذب يا مولاي القاضي؛ فهذا الغلام الأبكم تبنيته منذ سنين وعلمته أمورًا كثيرة.

القاضي يعطي الغلام قلمًا حبرًا ودواة ويطلب منه أن يملأه حبرًا، الغلام بكل دقة وهدوء يملأ القلم، فيأمر القاضي بجلد الإقطاعي لكذبه وإدعائه بالباطل.

القضية الثالثة: التاجر يقدم للقاضي وثيقة مُصدَّقة وموثقة بشهود أن له بذمة هذا الفلاح مائة ليرة في حالة عدم التسديد خلال عام واحد له الحق أن يقطع كيلو لحم من جسم الفلاح وكيفما يشاء.

الفلاح:

- مولاي كنت مجبرًا على الاستدانة، وكنت أظن بإمكانية تسديدها في موسم الحصاد، ولكن خاب ظني بسبب الفيضان وهذا قدر الله مولاي.

القاضي يأمر التاجر أن يقطع كيلو لحم من جسد الفلاح دون أن يريق قطرة دم واحدة؛ لأن الوثيقة تقول كيلو لحم فقط، التاجر:

- مولاي هذا مستحيل.

القاضي:

- وتنفيذ وثيقتك أيضًا مستحيل، اجلدوا التاجر؛ لأنه ظالم لا يخاف الله ولا يرعى الرعية.

القضية الرابعة: القاضي يأمر الأعرابي بدخول اسطبل الخيول والتعرف على حصانه.

الأعرابي يتعرف على حصانه بين عددٍ من الخيول، ويمسك لجامه، ويقول:

- هذا هو جوادي.

فيرد عليه القاضي:

- صدقت.

القاضي يأمر الأعرج أن يتعرف على حصانه في اسطبل الخيول، الأعرج تعرف على الحصان وقال:

- هذا هو جوادي.

فيرد القاضي:

- صدقت.

ولكن أعطوا الجواد للأعرابي، واجلدوا الأعرج لكذبه وإدعائه بالباطل.

الأعرج يحتج ويقول:

- مولاي لقد تعرفت على الحصان وأنت قلت صدقت.

القاضي يقول:

- نعم، أنا أردت من هذا أن يعرفك الحصان وليس أنت مَن تتعرف عليه، عندما دخلت أيها الأعرج لم يبالِ بك الحصان وجفل منك، وعند دخول الأعرابي فرح به الحصان، وتحمحم وهز له رأسه وذيله وشمه، وهذا دليل قاطع أنه فعلاً جواده.

وهنا فتح الأعرابي لثامه وأعلن عن نفسه، وقال:

- أيها القاضي العادل، أنت من اليوم مستشاري الخاص، وولي عهدي، بارك الله في عدالتك وذكائك أيها القاضي العادل.

أوعدك بالوعد وأسقيك يا كمون

الحكيم لقمان أيام زمان، طبيب حاذق وحكيم زمانه لا يجاريه في مهنة الطب حكيم في الأرض يعالج الملوك والأمراء والناس فيشفيهم من الأمراض.

يعمل مع لقمان صبي شاطر يساعده في عيادته ويسهر على خدمته اسمه كمون، حصل ذات يوم أن بعث الملك حاجبه يدعو الحكيم لقمان للقصر لأمر جلل حيث دخل نداس (حشرة متعددة الأرجل) إلى مخ ولي العهد ابن الملك كبير الأمراء عبر أذنه اليسرى.

حضر لقمان وصبيه كمون على وجه السرعة مع أدواتهما وعقاقيرهما إلى قصر الملك فاستقبل الملك الحكيم لقمان، وطلب منه إنقاذ الأمير بأي ثمن، فكر الحكيم لقمان بأن يخرج الحشرة اللعينة بوضع قطرات من السبيرتو في أذن الأمير، وعندما تشم الرائحة تخرج من أذن الأمير ولكن دون نتيجة.

الأمير يصرخ من شدة الألم وأمه الملكة تصرخ معه والخدم والحشم والحرس وقد نصب الجميع مناحة في القصر، حزن الملك حزنًا شديدًا وهو يرجو من الحكيم لقمان أن يفعل شيئًا.

اضطر لقمان يخدر الأمير ويحاول جاهدًا إخراج الحشرة بالملقط لكن الحشرة بعيدة وتشبثت بمخ الأمير المسكين بأرجلها العديدة، يضطر الحكيم لقمان أن

يُجرِي عمليه جراحية كبرى للوصول للحشرة، حاول رفعها بالملقط عدة مرات بهدوء دون فائدة.

الوقت يمضي مسرعًا والتخدير يخف تأثيره مع مرور الوقت ولقمان في حيرة من أمره، والصبي كمون يتفرج وهو غاضب من أستاذه الحكيم لقمان، وفي لحظة غضب صاح:

– النار يا حمار.

انتبه الحكيم لقمان لصوت صبيه كمون وحمى ملقطًا وكوى رأس الحشرة فماتت، فرفعها بيسر وسهولة من مخ الأمير وأكمل علاجه وعاش الأمير وفرحت العائلة المالكة وكرموا لقمان وانهالت عليه الهدايا والأعطيات، ولكن الحكيم لقمان عزت عليه نفسه وشتيمة صبيه كمون فقال:

– اسمع يا كمون من اليوم إما أنا الحكيم وإما أنت.

وتخاصمًا وتراهنا أن يعطي أحدهما للآخر سمًا يشربه فمَن عاش فهو الحكيم، اتفقا أن يشرب السم أولاً لقمان الحكيم، جهز كمون السم، احتاط لقمان الحكيم من مفعول السم فشرب سائلاً زيتيًا لطلاء جهازه الهضمي، وطلب من زوجته وولده بعد أن يشرب السم عليهما أن يشرِّطوا جسده بهذا المبضع تشريطًا خفيفًا ثم يطلوه بهذا العسل ويفتحوا عليه خلية النحل هذه لامتصاص السم، هكذا تقول الحكاية والعهدة على الراوي، وهكذا كان، وينجو الحكيم لقمان من السم، ويتماثل الشفاء، ويأتي دور كمون في شرب السم الذي سيجهزه له أستاذه الحكيم لقمان، لقمان الحكيم يعد كمون أنه سيجهز له سمًا

قاتلاً خلال أسبوع.

كمون ينتظر مصيره المحتوم من الخوف لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وقد أضناه التفكير وأتعبه، انتهى الأسبوع الأول والحكيم لقمان يخبر كمون أنه يحتاج أسبوعًا آخر لإعداد مادة سمية تستطيع أن تقتل ثورًا خلال دقائق.

كمون ينتظر وقد هزل هزالاً شديدًا ومرض، وهكذا الحكيم لقمان يؤجل الموعد عدة مرات إلى أن مات كمون قبل أن يشرب السم، فقال الحكيم لقمان:

- أواعدك بالوعد وأسقيك يا كمون.

فذهبت مثلاً، ومعذرة من أطبائنا الكرام؛ لكونها من سوالف جداتنا أيام زمان.

اسألوني قبل أن تفقدوني

من الموروث الإسلامي الذي سمعناه وتعلمناه:

الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب كان شجاعًا وشاعرًا وأديبًا وحكيمًا، قيل أنه قبل أن يغتاله الفارسي ابن ملجم، سأل أصحابه، اسألوني قبل أن تفقدوني، فسأله أحدهم:

- يا أمير المؤمنين، مَن أقوى الأقوياء بعد الله سبحانه؟

فرد عليه أبو الحسن:

- وأنت ماذا تقول أيها الأعرابي؟

قال:

- أنا أقول الجبل؛ لأنه من الرواسي لا تهزه ريح ولا تحركه قوة.

قال أبا الحسن:

- لا؛ لأن الحديد أقوى من الجبل لأنه ينبشه.

قال الأعرابي:

- صدقت.

فأجابه:

- لا، إن النار أقوى من الحديد فهي تصهره.

قال الأعرابي:

– صدقت يا أمير المؤمنين.

قال أبو الحسن:

– لا، إن الماء أقوى من النار لأنها تطفئها.

قال الأعرابي:

– صدقت.

قال أبو الحسن:

– لا؛ لأن الهواء أقوى من الماء لأنه يحمله بخارًا وينْزله مطرًا.

قال الأعرابي:

– صدقت.

قال أبو الحسن:

– لا؛ لأن الإنسان أقوى من الهواء فهو يستنشقه ويسخره فيُدوِّر به الطواحين ويُسيِّر به السفن.

قال الأعرابي:

– صدقت.

قال أبو الحسن:

– لا؛ لأن المسكر (الكحول) أقوى من الإنسان فإن شربه يفقد صوابه.

قال الأعرابي:

– صدقت.

قال أبو الحسن:

- لا النوم أقوى من المسكر؛ لأن الإنسان لو نام سيجلس صاحيًا وقد طار المسكر.

قال الأعرابي:

- صدقت يا أمير المؤمنين، النوم سلطان.

قال:

- لا الهم أقوى من النوم؛ لأن الإنسان المهموم لا ينام، فاعلم أيها الأعرابي أن الهم هو أقوى الأقوياء.

فقال الأعرابي:

- صدقت، ثم صدقت، ثم صدقت.

ولهذا أيها الأصدقاء الهم ملعون فاجتنبوه، فما بالك نحن المندائيون نبحث عن الهم ونعشقه وإلا لماذا هذه الفُرقة وهذه الخلافات ونحن أخوة في الدين والدم والرحم؟!

الـهـدف

يُحكَى أن رجلاً نحويًا (لغويًا) وجاره قد سافرا في تجارة إلى بلاد بعيدة، ومرض النحوي وطلب الراحة ولكن طالت فترة التعافي فعزم جاره على الرجوع إلى أهله فحمَّله النحوي رسالة لأهله وقال:

- يا جاري العزيز إن وصلت بالسلامة إن شاء الله قل لأهلي وجزاك الله عني خير جزاء، لقد أصابه صدع في رأسه، وبلى في أضراسه، ووقعت الخَمدة في أنفاسه، وقد فترت عيناه، وسافت ركبتاه، وأصابه وجع في ظهره، وضَرَبان في صدره، وهزال في كبده، وتقطُّع في أوصاله، وخفقان في قلبه، وألم في صلبه، وماء في عينيه، وآلام في مفاصله، وارتخاء في حَنَكه، ونبضان في صدغيه، وسكون في نبضه، وسكْتَة في لسانه...

فقال الرجل:

- يا جاري العزيز، أيها النحوي البليغ، أنا أكره أن أُطيل الكلام ولست بقادر حفظها، سأقول لأهلك مات والسلام.

التخطيط والشخابيط

في الستينيات نحن مجموعة من الشباب الأصدقاء، أنهينا مرحلة الإعدادية في البصرة، ومطلوب أن نقدم أوراقنا للقبول المركزي في جامعة بغداد التي لم يكن في البلاد غيرها، ومن ضمن الوثائق المطلوبة شهادة الجنسية، وعدم المحكومية، ولكل واحدة قصة وحكاية، معاملة شهادة الجنسية بدأت بوساطة، ورشوة، وانتظار ساعات وساعات طويلة، ولعدة أيام، بعدها سلمونا كل واحد ظرفًا مختومًا، قسم منه معنون إلى جنسية العمارة، وقسم إلى جنسية الناصرية حسب مسقط الرأس، ومن مركز هذه المحافظات وبعد معاناة أرسلوها إلى نواحينا المولود فيها أهالينا في قلعة صالح، والحلفاية، ومسعيدة، وسوق الشيوخ، وغيرها، وهنا تسكب العبرات وبعد التي والتيا، وشهود الزور الذين يشهدون لك أن أباك وجدك مولودًا في هذه الناحية وهم لا يعرفونك ولا تعرفهم!!! سلمونا المعاملة وقالوا: اذهبوا لبغداد ليمنحوكم شهادة جنسية، وهناك ملحمة اخرى وانتظار، ورشاوى حتى تستلم بعد أيام الشهادة إن لم يرجعوك بسبب خطأ في الاسم أو الختم غير واضح أو هناك نقص في اسم جدك لتبدأ رحلة العذاب من جديد.

أما عدم المحكومية فحدِّث ولا حرج، خلال عدة عقود لم يحصل تطور يُذكَر منذ العهد العثماني مرورًا بالاحتلال الإنكليزي والنظام الهندي الذي نقلوه إلينا والعهد الملكي والعهود الجمهورية المتعاقبة من سيء إلى الأسوء، ما شاء الله كلها

شخابيط في شخابيط سجلات ليس لها أول وليس لها آخر، مرة تُسرَق، ومرة تُحرَق، ومرة تُزوَّر، وهكذا دارت دورة الزمن وجئنا نعيش في بلدان الغربة وحط بنا الرحال إلى السويد، يمنحونك هوية شخصية فيها رقم شخصي، وعندما تراجع أي دائرة رسمية أو شبه رسمية أو حتى طبيب أو مستشفى أو صيدلية تذكر لهم رقمك الشخصي فتظهر على شاشة الكومبيوتر معلومات كاملة عنك فلا يسألك المسؤول ولا تسأله، يزودك على الفور بأي وثيقة تستحقها؛ لأنها من حقوقك، هوية، جواز سفر، تأييد، دواء، طبيب، أي شيء تحتاجه ومن حقك، لا علاقة لك بوزير ولا مدير، وليس هناك وساطة ولا رشوة ولا انتظار ولا ملل، ناس يفهمون، وخططوا لكل شيء فَرَيحوا وارتاحوا، ونحن مازلنا نتبجح أننا بلاد الحضارات وأصل النيرات ومصدر إنتاج الخربطات والشخبطات، والصراعات والتطرفات والطائفيات والإثنيات.

متى نتخلص من الشخابيط ونبدأ بالتخطيط... متى؟!

خذوا الحكمة من أفواه المجانين

يُحكَى أن ملكًا قصد يومًا التفرج على المجانين، تيمنًا بالحكمة (خذوا الحكمة من أفواه المجانين) فلاحظ بينهم شابًا وسيمًا لطيفًا، معتني بنفسه وهندامه، ويشع من عينيه بريق الذكاء وشمائل الفطنة، سأله الملك عدة أسئلة فأجاب عنها بأحسن جواب، فأعجب به وطلب حضوره للقصر، تجرأ الشاب المجنون بالحديث، وقال للملك:

– لقد سألتني عن أشياء وأنا أجبتك عنها، وأنا أسألك سؤالاً واحدًا، وأرجو أن تجاوبني عنه أيها الملك الجليل.

قال الملك:

– اسأل ما تريد.

قال الشاب:

– متى يجد النائم لذة النوم؟

ففكر الملك وقال:

– يجد النائم لذة النوم حال نومه.

فقال الشاب المجنون:

– في حالة النوم وليس للنائم إحساس!

فقال الملك:

– قبل الدخول في النوم.

فقال الشاب المجنون:

– كيف توجد لذة قبل وجودها؟

فقال الملك:

– يجد النائم لذة النوم بعد النوم.

فقال الشاب المجنون:

– كيف توجد لذة النوم وقد انقضى وقته؟

هنا تحير الملك وزاد إعجابه بالشاب المجنون وقال:

– والله إن هذا لا يحصل من كثير من العقلاء.

وقال له:

– اليوم أنت ضيفي ونديمي.

جلس الملك في مضيفة العامر، وطلب طعامًا وشرابًا، وتناول كأسًا وشرب، وناول الشاب المجنون كأسًا وقال له:

– اشرب بصحتك، فأنت اليوم ضيفي.

فقال:

– أيها الملك أنت شربت هذا لتصير مثلي، فأنا أشربه لأصير مثل مَن؟

فاتعظ الملك ورمى الكأس، وأقسم ألا يشرب خمرًا بعد اليوم، وقال:

– حقًا صدق مَن قال (خذوا الحكمة من أفواه المجانين).

الاسم و المال

حدثني جدي يوسف سالم بخيتان في مجلسه هذه الحكاية؛ ولأن فيها عبرة وموعظة أحببت أن أحكيها لكم:

حاتم تاجر من تجار البصرة المعروفين، صادق أمين موضع ثقة، واضح وصريح يحبه ويحترمه كل التجار، له ولدان مرداس وفارس يعملان معه في التجارة، هرم الرجل وخارت قواه وداهمه المرض اللعين، فكر وقرر أن يُقسِّم ما يملك على ولديه بالتراضي والاتفاق، قال:

- يا ولداي العزيزين اسمعاني وأطيعاني.

فردا عليه بصوت واحد:

- أمرك مطاع.

قال:

- أحببت أن أُقسِّم بينكما ما أملك في حياتي؛ لكي لا تختلفان بعد مماتي.

وبعد هنيهة من الصمت، قال الرجل:

- أحدكما له المال، والثاني له الاسم، فليختار أولاً أخوك الأكبر مرداس، فإختار المال

وتحصيل حاصل أصبح لفارس اسم أبيه، قال الأب:

– أصبح لك اسمي، فبيتي ومضيفي ومتجري لك، وأنا مطمئن أنك ستحافظ على اسمي.

ولفظ أنفاسه ومات وعيونه شاخصة بعيون ولديه يرجوهما أن يكونا وفيان للعهد.

أخذ مرداس المال، كل المال، وهاجر إلى بلاد بعيدة لا يعرفها فارس، فارس فتح أبواب مضيف أبيه وبيته مثلما كان أبوه وأحسن، وفتح المتجر واستعان بالتجار أصدقاء أبيه وخلال مدة وجيزة أعاد كل شيء، وطوره ووسع تجارة أبيه.

فارس اسم على مسمى، تزوج ورزقه الله بأولاد وبنات وغدا من التجار الذين يشار لهم بالبنان.

مرت السنين، وفكر فارس أن يبحث عن أخيه الحبيب مرداس، فودع عياله وامتطى صهوة جواده وساح في الأرض يسأل عن أخيه، مرت أيام وأسابيع وأشهر وهو لا يكل ولا يمل، وفي يوم من الأيام قد بلغ به التعب مبلغًا كبيرًا ونال حصانه الإجهاد والعطش، فدخل سوق المدينة وسأل عن طعام ومنام وسايس يرعى جواده ويعتني به، فقالوا له هناك وقفة الأغنام والخيول تسأل عن راعي الغنم مرداس، والتقى هذا الراعي وجلس معه يتجاذب أطراف الحديث، وتأكد بالدليل القاطع أنه أخيه ابن أمه وأبيه، تعانقا وبكى أحدهما على كتف الآخر وتذكرا أيام الصبا وأبيهما وأمهما وأجهشا بالبكاء.

سأل فارس أخيه مرداس:

– ما الذي أوصلك لهذه الحال يا أخي، اصدقني القول.

قال:

– من سوء حظي تزوجت امرأة طماعة جشعة لا ذمة لها ولا ضمير عندها، ولم يحسن أهلها تربيتها، كانت هذه المرأة المارقة قسمتي ونصيبي، استحوذت على المال والحلال بددته حتى أصبح حالنا بأسوء الأحوال، فكما ترى أنا أراعي هذه الصخول الأربعة التي تعود لها.

اتفقا أن يذهبا إلى بيت مرداس على ألا يقول فارس ولا مرداس أنهما أخوان؛ لان مرداس يخاف من زوجته.

طرقا الباب فصاحت:

– مَن الطارق؟

قال مرداس:

– أنا ومعي ضيف.

زمجرت وعربدت وشتمت وهددت وتوعدت، بعدها فتحت الباب وهي تمهمه وتدمدم، فأعطاها فارس ليرة من الذهب فهدأت سرائرها وفرشت لهم فراشًا، فأعطاها ليرة ثانية وأمرها أن تعد لهما الطعام، وبعد أن ارتاحا وأكلا وشربا، قال فارس:

– إن عندي عملاً لزوجك وسيرافقني حيث أعيش، وسأجعل منه رجلاً ناجحًا في حياته.

خرج الأخوان إلى السوق وذهبا إلى الحمام بعد أن اشترى لأخيه هندامًا جديدًا وجوادًا أصيلاً وحسامًا، وأقفلوا راجعين لديارهم، مرت ليالٍ وأيام وفي الطريق مرا بمزرعة رقي فاشترى فارس واحدة، وبعد حين وصلا الدار، ولما علمت زوجة فارس هلهلت وكبرت ورحبت بزوجها وبضيفه الغالي العزيز عم

أولادها، غسلت أيديهما وأرجلهما وهي تحيي وتفيي.

نادى عليها فارس:

- يا زوجتي الغالية.

فردت عليه:

- أنا فداك.

قال:

- قدمي لنا الرقية نَتَلهى بها لحين إعداد الطعام.

وما هي إلا لحظات وقد قدمت الرقية في صينية وبجانبها صحن وسكينة وفوقها منشفة، مسك فارس الرقية وطبطب عليها وصاح بها:

- يا امرأة بدلي هذه بأخرى أحسن منها.

قالت:

- حاضر.

أخذت الصينية وما بها، بدلت الصينية والماعون والسكينة والمنشفة وقدمتها، وطبطب فارس وصاح:

- هذه الأخرى غير جيدة نريد غيرها.

وهكذا خمس مرات تبدل الزوجة كل اللوازم ما عدا الرقية؛ لأنه لا يوجد غيرها دون أن ترد بكلمة واحدة من فرط أدبها وحيائها وحبها واحترامها لزوجها أمام أخيه الضيف.

انتبه مرداس وقال لأخيه:

- يا فارس نحن اشترينا رقية واحدة، وحسب علمي بلدنا لا يوجد فيه رقي في مثل هذا الوقت من السنة، وإني أرى نفس الرقية تروح وترجع، ما الأمر يا فارس؟

قال:

- يامرداس زوجتي من حيائها وأدبها وحسن تربيتها لا تجرؤ أن تردني حتى لو كررت الأمر مئة مرة.

اندهش مرداس وقال لأخيه:

- بربك اصدقني ماذا فعلت لها لتطيعك كل هذه الطاعة وتحترمك كل هذا الاحترام؟

قال فارس:

- اسمع يا أخي مرداس وتعلم من أخيك الصغير : تزوجتُ من هذه المرأة الطيبة، وفي صباحية ليلة الزواج أردفتها على جوادي وقلت لها إننا ذاهبان للصيد والقنص، وأطلقت العنان للفرس فانطلق كالسهم المارق ينهب الأرض، وأحسست بالخوف يعتريها وهي تطوق خصري وتضغط عليه بقوة، وعندما وصل الحصان الجامح إلى حافة نهر عريض سريع الجريان جفل وارتد وهمهم ودمدم وأرعد وأزبد ووقف على قائميه، وكدنا نسقط لولا تمسكي باللجام وقوة قدميه، ترجلتُ من الفرس ووبخته ونظرت له شذرًا، وأنزلت زوجتي واستليت سيفي وصرخت بالحصان والله وتالله وبالله إن لم تعبر النهر لأدق عنقك هذا بسيفي، فهز رأسه رافضًا فضربته ضربة قاضية، وواجهت زوجتي

وجهًا لوجه وأنا أهز السيف المضرج بالدماء وصرخت بها والله وتالله وبالله إن لم تعبري النهر يكون مصيرك مثل مصير الحصان، فقفزت في اليمِّ وأخذها التيار الجاري وأنقذها بجهد جهيد من الغرق بآخر نفس، ومن يومها وهذه المرأة تطيعني فأحببتها واحترمتها وأسعدتها فبادلتني الحب والاحترام وبنت لي بيتًا سعيدًا.

استوعب مرداس الدرس وبعد حين حنَّ إلى عياله وقرر الرحيل، أعطاه فارس مالاً حلالاً وودعه خير وداع.

وصل مرداس بيته وعندما رأت زوجته الحلال والمال فرحت وهللت وكبرت، قال لها مرداس:

– لننسَ الماضي ونقلب صفحه ولننعم بهذا المال والحلال يابنت الناس.

وفي صباح اليوم الثاني قال لها:

– ما رأيك أن نذهب في نزهة للصيد والقنص؟

فوافقته فأردفها على جواده وطار بها باتجاه نهر يعرفه وحال وصولهما حافة النهر جفل الحصان وارتد فارتجل وأنزل زوجته جانبًا واستل سيفه وصرخ بالفرس أن يعبر، وعندما رفض ضرب عنقه ودار باتجاه زوجته وهزَّ الحسام وهو يقطر دمًا، فوجدها غارقة في الضحك ساخرة منه وهي تقول:

– يا أحمق الذي لا يُربَّى من الأول لا يقدر أن يُربَّى من تالي.

اللي اختشوا ماتوا

كانت أيام زمان الحمَّامات الشعبية منتشرة في المناطق الشعبية، ومن الموروث المصري أن حمَّامًا شعبيًا للنساء مشهور في باب اللوق – درب التبانة، يقع وسط سوق شعبي مزدحم بالمارة والمحلات والباعة المتجولين وبسطات الخضار ومقاهي الرجال، ويقابل الحمام جامع يؤمه المصلون، وعندما تضيق بالمصلين ساحة الجامع يفرشون جزءًا من الشارع المحاذي للجامع؛ لاستيعاب المصلين.

صادف أن حدث في الحمام حريق هائل ظهيرة يوم الجمعة في ذروة الازدحام، ابتدأ في غرفة الملابس وامتد إلى قاعة الاستحمام وهنا حدث هرج ومرج وتعالى صراخ النساء، وفُتحت أبواب الحمام، عدد من النساء قررن الهروب عاريات إلى الشارع وسط زحمة الناس طلبًا للنجاة مهما كان الثمن، وعدد آخر من النساء كان حياؤهن قد منعهن من الهروب فكلفهن حياهن، وتجمع الأهالي يسألون عن فلانة وفلانة فيرد عليهم الآخرون: (اللي اختشوا ماتوا)... فذهبت مثلاً عند الناس.

اختشوا: استحوا (خجلوا).

الديمقراطية و الديمضراطية

في مدينة قرب لندن اسمها كوفنتري كنا في دورة دراسية لدراسة علم الطيران في السبعينيات، وزعونا علي بيوت إنكليزية فكان حظي بيت زوجة اسمها باترشا برتبه رائد (ميجر) تعمل مديرة مركز الشرطة، وزوجها روني عريف شرطة (سارجنت) يعمل سائقًا لزوجته في المركز، علاقتهما في البيت مبنية على الحب والاحترام والتعاون، ولهما ولد وبنت يعملان في مدينة غلاسكو في اسكتلندا، صباح كل يوم بعد الإفطار يلبسان ملابسهما الرسمية، تفتح باترشا باب الشقة فيخرج روني مسرعًا ليهيئ السيارة، نتبعه ليفتح لها الباب الخلفي اليمين ويؤدي لها تحية الصباح مخاطبًا إياها بكلمة (نعم سيدتي) بأدب جم، ويغلق الباب بهدوء... يوصلاني إلى الجامعة ويذهبان، وهكذا كل يوم عدا يوم الأحد.

باترشا تنتمي لحزب المحافظين وروني لحزب العمال، ليلة السبت كنا جالسين في الصالة بعد أن عدنا من فسحة، قالت باترشا:

– بشير غدًا عندي زيارة انتخابية لعددٍ من عوائل منطقتنا أشرح لهم برنامج الحزب هل ترافقني؟

قلت:

– نعم.

زرنا عشرة عوائل قدموا لنا الشاي أو القهوة مع قطعة صغيرة من الكيك، وهي تشرح لهم برنامج حزب المحافظين، وعند الغداء شرحت لزوجها ما قامت به وتناقشا وتجادلا بهدوء ومحبة.

في الأسبوع الثاني رافقت روني لزيارة عوائل أخرى ليشرح لهم برنامج حزب العمال وهكذا.

تصوروا يُعلِّمون أنفسهم الديمقراطية على أصولها ويعلمونا الديمضراطية التي تُفرِّقنا وتجعلنا كتلاً متناحرة تسعى لمصالحها الخاصة على حساب المواطنة والوطن، أين ذهبت الحضارة التي بنيناها قبل سبعة آلاف سنة؟

حكمة مالك الحزين

يُحكَى أنه في زمن النبي سليمان ابن داود الذي كان له إعجاز محاكاة الطيور قد انفض اجتماعه مع الطيور بعد أن وعظهم حول قانون (العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم) وكان من ضمن الطيور، مالك الحزين، الذي توجه لعشه البعيد عن مكان الاجتماع.

شعر مالك الحزين بعطش شديد ورأى على بُعد نبع ماء أراد أن يرتوي منه، ولكنه خاف من الناس أن تؤذيه فتريث وحطَّ على غصن شجرة عالية يراقب نبع الماء إلى أن رأى شيخًا وقورًا ذا لحية بيضاء كثة وعمامة بيضاء كبيرة يشرب الماء من النبع، فاعتقد أن هذا الشيخ من التُقاة ولا يمكن أن يؤذيه، فنَزل من أعلى الشجرة وحط قرب النبع يريد أن يشرب الماء ليطفئ ظمأه، لكن الشيخ تناول حجرًا ورمى به مالك الحزين ففقأ عينه، فذهب شاكيًا إلى النبي سليمان بن داود مُذكِّرًا إياه بموعظته لهم هذا اليوم، أمر النبي سليمان أن تفقأ عين الشيخ، اعترض مالك الحزين على هذا الحكم وقال:

- مولاي إن عين الشيخ لم تسبب لي الأذى وإنما الذي غشني فيه لحيته وعمامته؛ ولهذا فإنني أطالبكم بنتف لحيته وحرق عمامته لأنهما السبب فيما لحقني من أذى وحتى لا يخدع غيري بهما.

رجـل وليس ككـل الرجـال

عندما تمر سريعًا وتقف في محطات لرجال مندائيين يشار لهم بالبنان؛ لخدماهم الجليلة للإنسانية والعلم والأدب والمعرفة، عليك أن تقف في محطة آل قرة وعميدهم ثابت بن قرة وما قدمه من علوم المعرفة للإنسانية جمعاء، فأصبح من حق الشاعر العباسي أن يرثيه بقصيدة عصماء مطلعها:

كل شيء ما خلا الله مائتُ   ومَن يغترب يرتجي ومن مات فائتُ
نعينا العلومَ الفلسفيات كلها   خبا نورها إذ قيلَ مات ثابت

ومحطة ثانية تجبرك أن تقف عندها، إنها محطة أبو إسحاق الصابي، هذا العالم المندائي الفذ الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدة من غرر الشعر العربي مطلعها:

أَعلمتَ مَن حملوا على الأعوادِ   أرأَيت كيف خبا ضياء النادي
جبلٌ هوى خرَّ في البحر   فاغتذى من وقعةِ متتابع الأزبادي
ما كنت أعلمُ قبل اليوم   أن الثرى يعلوُ على الأطوادِ

وأصبح من حق خليفته الأستاذ الدكتور قيس مغشغش السعدي أن يُخلِّد ذكراه بكتابه الموسوم أبو إسحاق الصابي.

ومحطة ثالثة مذهلة، إنها محطة العالم الفذ عبد الجبار عبد الله السام، الذي رثاه شاعر لا يحضرني اسمه:

وما ميتتَ أبا سنان ميتة واحدًا لكنه بنيان قــومٍ تهدما
وعيون الناس ألفهمُ بواحدٍ وواحدهم بألفٍ إن قال رما

تذكرتها هكذا.

(وحجايتنا الزغيرونة) عن الهمام فلاح الحيدر وما قدمه من جهد متميز وحسن التنظيم والإدارة الرائعة في المؤتمر السابع للاتحاد، لقد كان هذا الرجل زمبلك التشغيل والسيطرة والتحكم على مجريات الفعاليات، طاقة ديناميكية متحركة في كل الاتجاهات، يستقبل الضيوف في محطة القطار وفي المطار، ينظم قاعة الاجتماعات ويضبط كل الإيقاعات، يشرف على أمور المطعم بكل تفاصيله، يوزع الهدايا، يستقبل الناس بالحب والبشاشة رغم أن عهدي به نادرًا ما يبتسم، تطغى عليه جديته بالعمل الدؤوب.

حقًا لقد كان أبو سامر قطب الرحى في المؤتمر ومجهز الطاقة لكل المجموعة الرائعة التى كان يقودها بجدارة وحنكة وكأنه قائد لكتيبة عسكرية متجانسة عالية التدريب.

والذي يلفت النظر امرأة كلها حيوية ونشاط وذكاء تملك طاقة هائلة اسمها "جبهة"، وهي اسم على مسمى تجدها في كل مكان سريعة الحركة متواضعة بسيطة، خدماتها تفوق الوصف بارك إلهي فيها وفيمَن سماها جبهة، لقد كانت تقاتل على كل الجبهات، وأرجو المعذرة من الآخرين الذي كانوا يعملون بصمت وبهدوء، كل واحد منهم كان مِفصلاً حيويًا في نجاح هذا التجمع

المندائي الكبير، وإلى مزيدٍ من العطاء. لأن ما قدمته الجمعية الثقافية المندائية في لوند أصبح مستوى القاعدة التي يجب أن ننطلق منها كطائفة راقية متطورة موحدة الكلمة والجهد والإمكانات وأصبح واجبًا على قادتنا النجباء أن يوحدونا.

السديم

السديم: اسم علم مؤنث بمعنى الضباب الرقيق، وهي بقع سحابية متوهجة من الغبار والغاز المنتشر في الفضاء ويتركز في برج العقرب، ويأتي السديم بمعنى الفتاة الجميلة أو نهر السديم، وهذه الغيمة تنشأ من تكاثف أو تصادم.

كان الفلكيون يا صديقي لا يعلمون غير مجرتنا درب التبانة، ولكن بواسطة التلسكوبات العملاقة التي ذكرتها ومنها هابل كانوا يرون بقعًا ضبابية متناثرة في الفضاء سموها سحابة أو سديمًا وكانت تبدو على شكل حلزوني، واعتقدوا في بادئ الأمر أنها جزء من تركيب مجرتنا.

ولكن العالم الفذ أدوين هابل اكتشف أنها ليس كلها سُدُمًا ولكنها مليارات من النجوم جمعتها الجاذبية وشكّلت المجرات الكونية، وأدرك أن مجرتنا ما هي إلا واحدة من عدد ضخم من المجرات.

المجرات

تحدثنا باختصار شديد عن السديم والثقب الأسود، وهنا نكمل الحديث عن المجرات باختصار شديد أيضًا:

المجرات: المجرات عالم عجيب غريب منفرد مهيب من أعداد لا تُحصَى من النجوم المشدودة إلى بعضها بالجاذبية تسبح في الفضاء الواسع بديناميكية، وهذه المجرات تتأثر بجاراتها من المجرات الأخرى والكبيرة تبلع الصغيرة عن طريق الثقب الأسود فيزداد الكبير حجمًا ويتغير شكله.

والمجرة عبارة عن تجمع هائل من النجوم وتوابعها ومن الغبار والغازات المنتشرة بين النجوم مضاف لها المادة المظلمة والكل تربطها الجاذبية.

والمادة المظلمة: هي أحد أشكال الطاقة ولها علاقة بتمدد الكون ولها علاقة بالمادة المفقودة في الكون، وعلينا فهم النظرية النسبية للعالم الفذ أينشتاين ومعرفة قيمة الثابت الكوني؛ لنتعرف على الطاقة المظلمة وسرعة تمدد الكون، ويقول العلماء أن نسبة الطاقة المظلمة **٧٢%** من الكون و **٢٣%** مادة مظلمة وفقط **٥%** مادة مرئية.

ومن متابعة التجاذب الحاصل بين المجرات تبين أن مقدار المادة المظلمة المتوفرة لا يتعدى **٣٠%** من المادة اللازمة لإيقاف تمدد الكون.

وتُحسَب المادة المظلمة طبقًا لمعادلة أينشتاين، $E = mc2$ (الطاقة أو قوة الجاذب تساوي الكتلة في مربع المسافة) ومنها ومن معادلات معقدة يمكن حساب كمية المظلمة المتبقية لإيقاف تمدد الكون ولها علاقة بتكيف المادة والطاقة وبالثابت الكوني لأينشتاين وهذا بحد ذاته يختلف عن مجال كوينتي سينس؛ لأن هذا يتغير بتغير الزمان والمكان.

إن المسبارات تحاول أن تقيس الأشعة الميكرونية الخلفية لإعطاء قياس دقيق للطاقة المظلمة ولكن تبقى الحقيقة المطلقة يا أبا عزام مبهمة، وما زال العلم يحاول الوصول للحقيقة في هذا الكون الهائل، ومثل هذه الأمور تحتاج إلى شرح تفصيلي معزز بوسائل إيضاح متطورة ومجموعة سلايدات وصور فضائية من المسبارات التى تطوف الكون، ولكن ليس كل شيء ممكن الاطلاع عليه.

الثقـب الأسـود

الثقب الأسود: يقع في مركز المجرة وتكون فيه الجاذبية شديدة جدًا ولا تسمح للضوء أن ينعكس، ولكن هذا الثقب صغير مقارنةً بكتلته الهائلة، لكنه يستطيع أن يبلع نجومًا وشموسًا، والزمن متوقف فيه ولا تعمل كل القوانين الفيزيائية، وأنت تستطيع أن تنْزل في مركز الثقب الدوار، شرط في المركز وليس في المحيط، ولو رجعت ستلاقي نفسك لأن الزمن متوقف (ويَمْ حسين جنتي بوحدة صرتي باثنين).

ويوجد في مجرتنا التبانة ثقب أسود على بُعد (٣٠٠٠٠) ثلاثون ألف سنة ضوئية وكتلته بقدر كتلة الشمس أربعة ملايين مرة، ولكنه متوقف وغير فعال وما يخوف، وهذا الثقب الأسود إذا قرَّبناه للمتلقي نقارنه بعين الإعصار للعالم المندائي الفذ الأستاذ الدكتور عبد الجبار عبد الله، وكيف يستطيع أن يبلع البواخر العملاقة وكيف ممكن أن يكون مركز الإعصار مثل تسونامي المشهور.

الجـود من الموجـود

يوم كان الدينار دينارًا قيمته عالية، كان (طعمة) راعي غنم يعيش في منطقة الحضر الأثرية مع زوجته وولده وابنته في كوخ بسيط، يعتمدون في فطورهم وعشائهم على حليب الأغنام ومنتجاته من الخاثر واللبن والزبد والجبن والقيمر، وعشاؤهم المفضل يسمونه خميعة (عبارة عن خبز تنور مثرود بالحليب والزبدة، أو التمن والروب وقليل من التمر)، أما الغداء فهم يربون الدجاج والوز ويستفادون من لحمها وبيضها، ويبيعون دهن الأغنام الحر وبعض النعاج التي لا تلد الكباش؛ بسبب عمرها، ويشترون بثمنها حاجتهم من الأسواق القريبة من السكر والشاي والرز والطحين وبعض البقوليات، وبالقرب من الكوخ لديهم قطعة أرض صغيرة حرثوها لزراعة الخضروات الضرورية.

حياة بسيطة متواضعة، سماء وأرض واسعة، ورحمة الله عليهم في توفير الماء والكلأ المزروع هنا وهناك، قرَّر طعمة وولده حارس أن يحفرا بئرًا للماء، وهكذا بدأ المشوار يوميًا بعد عودتهما من رعي الأغنام يقضيان بعض الوقت في الحفر، وأثناء الحفر عثرا على تمثال أثري صغير من الذهب الخالص، فرحا به، وفكرا وقررا أن يذهبا للمدينة لبيعه.

سارا ليلتين فوصلا الموصل وفي مدخل المدينة شاهدا سوق بيع الجمال والخيول

والأبقار ولاحظا أن هناك رجلاً قد مسك خطام بعيره وهو يصيح (هذا البعير بمئة دينار فمَن يشتري؟) فارس صاح فرحًا:

- أبي والله أتعبنا المسير، أرجوك اشترِ لنا هذا البعير.

فقال الأب:

- يا ولدي حارس، هذا البعير غالٍ لا نقدر عليه.

ذهبا إلى الصائغ وباعا تمثال الذهب بمبلغ كبير، وقررا العودة وعند مرورهما بسوق لبيع المواشي سمعا رجلاً يصيح (هذا البعير بخمسمائة دينار فمَن يشتريه؟) تقدم الأب ودفع لصاحب البعير المبلغ واشتراه، فاستغرب حارس وقال لأبيه:

- البارحة كان سعره مئة دينار فقلت لي أنه غالٍ ولم تشترِه، واليوم تدفع يا أبي خمسة أضعاف المبلغ لتشتري نفس البعير سبحان الله.

قال الأب طعمة لولده:

- اسمع ياحارس، البارحة لم نكن نملك المئة دينار؛ ولهذا كان البعير غاليًا علينا، واليوم نحن نملك الخمسمائة دينار؛ لأنه أصبح لدينا مال كثير فأصبح البعير رخيصًا؛ لأن الجود من الموجود.

الهم والغم يزيلان الشحم

كان أحد الملوك القدامى سمينًا، كثير الشحم واللحم، يعاني الأمرين من زيادة وزنه، فجمع الحكماء ليجدوا له حلاً لمشكلته ويخففوا عنه قليلاً من شحمه ولحمه، ولكن لم يستطع أحد منهم إيجاد حل لتخفيف وزنه.

وجاء رجل عاقل لبيب متطبب، فقال له الملك:

- عالجني ولك الغنى.

فقال له الرجل:

- أصلح الله الملك، أنا طبيب منجم، دعني حتى أنظر الليلة في طالعك لأرى أي دواء يوافقك.

فلما أصبح الصباح، جاء إلى الملك وقال:

- هل تعطيني الأمان؟

فلما أمَّنه الملك قال:

- رأيت طالعك يدل على أنه لم يبقَ من عمرك إلا شهر واحد، فإن اخترت عالجتك وإن أردت التأكد من صدق كلامي فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخل عني وإلا فاقتص مني.

فحبسه الملك، ثم احتجب الملك عن الناس وخلا وحده مهمومًا مغتمًا، فكلما

انسلخ يوم ازداد همًا وغمًا حتى هزل وخف لحمه، ومضى لذلك ثماني وعشرين يومًا لم يذق طعامًا إلا قليلاً، أو يكاد لا يأكل، وأخرج الرجل من الحبس، وقال له:

– ماذا ترى؟ وكم بقى لدي من العمر؟

فقال المتطبب:

– أعز الله الملك أنا أهون على الله أن أعلم الغيب، والله أنا لا أعلم عمري، فكيف أعلم عمرك؟ ولكن لم يكن عندي دواء إلا الغم، فلم أقدر أن أجلب لك الغم والهم وانقطاع الشهية إلا بهذه الحيلة، وإن الغم والهم يذيبان الشحم.

فأجازه الملك على ذلك وأحسن إليه غاية الإحسان، وذاق الملك حلاوة الفرح بعد مرارة الهم والغم.

ذكاء كلثوم

في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، كان والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان أحد أذكى أذكياء العرب اسمه كلثوم، وكان معارضًا قويًا للحجاج، يسفه أفكاره وينتقد خطبه وقراراته، فشكاه إلى الخليفة عبد الملك وشكا تجاوزات كلثوم على ملك بني أمية، فأمر الخليفة عبد الملك والي العراق الحجاج بقطع رأس كلثوم.

أم كلثوم امرأة مسنة تجاوزت التسعين من العمر، وكانت مرضعة للخليفة عبد الملك، قابلت الخليفة واسترحمته أن يعفي عن ولدها كلثوم فَرَقّ لها لكبر سنها وما شربه منها من حليب، وقال لها:

– أيتها الأم ما تعودت أن أصدر أمرًا وأتراجع عنه، ولكن إكرامًا لكِ سأطلب من الحجاج أن يعطيه فرصة النجاة وهو وما كتبه له حظه.

أمر الحجاج أن يضع ورقتين في كيس يكتب في واحدة منها (يُعدَم)، وفي الثانية (لا يُعدَم)، ويتم أمام تجمع الناس وبحضور ممثل الخليفة، ويحق لكلثوم أن يسحب واحدة منها وهذا هو حظه، علم كلثوم بالأمر وهو يعرف حق المعرفة أن الحجاج يكرهه ومتأكد بأنه سيكتب بالورقتين كلمة (يُعدَم) فاحتاط للأمر مستفيدًا من ذكائه، وجاء يوم التنفيذ ووقف الجميع في ساحة الإعدام وتقدم

الجلاد وبيده الكيس، وأخبر كلثوم أن عليه يمد يده في الكيس ويُخرِج ورقة واحدة ينفذ ما كتب بها، إما يُعدَم، أو لا يُعدَم.

كلثوم الذكي يُخرِج ورقة واحدة من الكيس ويبلعها على الفور والناس في دهشة، هنا سأله ممثل الخليفة:

– ماذا فعلت يا كلثوم وأنت لا تعلم ولا نحن ما في هذه الورقة؟

قال كلثوم:

– مولاي أكيد إن الورقة في الكيس عكس الورقة التي بلعتها.

وعندما أخرجوا الورقة من الكيس وجدوا فيها كلمة (يُعدَم)، وهذا يعني أن الورقة التي بلعها كلثوم فيها (لا يُعدَم)، وهكذا أنقذه ذكاؤه من مكيدة الحجاج؛ لأنه كان متأكدًا أن الحجاج كاد له وكتب بالورقتين (يُعدَم).

قِسْمة

جاء أحدهم إلى الشاعر الكبير الجواهري وقدَّم له قصيدة وسأله إن كانت هذه القصيدة تؤهله أن يكون شاعرًا؟

وبعد أن تأملها "أبو فرات"، قال له:

اسمع يا ولدي، هناك شاعر، وعبقري، وحمار... أنا شاعر، أما اللقبان الآخران فتقسماهما أنت والمتنبي.

الحكمة

من الموروث العربي، أن ثلاث سنين عجاف أصابت العرب في الجزيرة العربية، فاتفقت عشائر العرب أن تُشكِّل كل عشيرة وفدًا من وجهائها وتستغيث بالخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز في دمشق الشام، وبعد رحلة طويلة وشاقة، استقبلهم الخليفة العادل، ورحب بقدومهم وتجشمهم عناء السفر، ولاحظ أن وفد إحدى القبائل الكبيرة يتقدمهم صبي طلب الإذن بالحديث، فقال له الخليفة:

- يا بني اترك الكلام لَمن هو أسنُ منك.

فأجابه الغلام:

- يا مولاي لو كانت الحكمة بالسن لكان في مجلسك هذا مَن هو أحق في الخلافة.

فاستدرك الخليفة الأمر وقال:

- يا بني هات ما عندك.

فقال الصبي:

- يا أمير المؤمنين لقد أصابتنا ثلاث سنين عجاف، سنة أذابت الشحم، وثانية أكلت اللحم، وثالثة دقت العظم، فإن كان ما عندك مالنا فنحن أولى به، وإن

كان مال الله فنحن عباده، وان كان مالك فأحسن به علينا، فالله يحب المحسنين.

فأطرق عمر هنيهة وقال:

– أعطوهم ما يريدون.

الدينـار و الدرهـم

المتجردة فتاة رائعة الجمال، شاعرة وأديبة، أهلها من وجهاء أهل البصرة، وأبوها شيخ العشيرة وحكيمها، تقدم الحجاج بن يوسف لخطبتها من أبيها يوم كان واليًا قويًا على العراق أيام الدولة الأموية، أُحْرَج أبوها غاية الإحراج، وأراد له مخرجًا فقال:

– أنا أستجيب لطلبك هذا، ولكن أعطني بعض الوقت لتنال رضا ابنتي.

فاتح الأب ابنته، قال:

– يا ابنتي تعلمين مَن هو الحجاج وسطوته، ومكانته عند الخليفة عبد الملك بن مروان فالله درك بنفسك وأبيك وعشيرتك، إننا نرجو المروءة فيك، ولا تجبريني أن أتخذ قرارًا أكرهه وأندم عليه.

قالت:

– أبتي امنحني بعض الوقت.

قال:

– لكِ ماطلبتِ يا عاقلة أمك وأبيك.

كتبت المتجردة قصيدة عصماء إلى الخليفة عبد الملك تستغيث بها من الحجاج، أعجب بها غاية الإعجاب وطلب من أحد المقربين له من أهل العراق أن يصف

له المتجردة، فقال:

- يا مولاي أما عن العلم والأدب فحَدِّث ولا حرج فهي شاعرة مفلقة وفي كل شيء متفوقة، من أشراف أهل البصرة، كل الرجال يتمنون رؤيتها وفي قلوبهم حسرة.

قال الخليفة:

- هذا جمال الخُلُق، وما جمال الخلقة.

قال:

- يا مولاي إنها طويلة القامة، عظيمة الهامة، معسولة الريق، يشع من عينيها بريق كأنها نخلة جليلة أو مهرة أصيلة، جدائلها بطولها، أطال الله عمرك.

فكتب لها الخليفة يطلب الزواج منها، وقال:

- اطلبي وتمني عليَّ ما تريدين.

قالت المتجردة:

- أريد أن يزفني لك الحجاج، وأن يمسك خطام بعير هودجي ماشيًا وحاديًا من البصرة إلى الشام.

فأجابها:

- لكِ ما تريدين.

وكتب بذلك للحجاج يأمره.

أحضر الحجاج الهودج وأركب الأميرة المتجردة معززة مكرمة، ومسك خطام البعير وهمَّ برحلته الشاقة الطويلة، هنا أسقطت المتجردة عن عمد دينارًا من

الذهب من هودجها، وقالت للحجاج:

- ناولني الدرهم يا هذا.

فالتقطه الحجاج من الأرض وقال:

- مولاتي إنه دينار من الذهب.

قالت:

- سبحان الله الذي أبدل الدرهم بدينار.

الدنيا مصالح

غشيم مَن يعتقد أن في العلاقات الدولية توجد صداقات، الحقيقة هناك مصالح والذي يفهم يحقق مصالح بلده، وسأروي لكم حكاية صغيرة بهذا الصدد؛ ولا أذكر اسم الدولة :

كنا وفدًا رسميًا عالي المستوى، ذهبنا لدولة صديقة جدًا لشراء معدات مهمة. استقبلونا في المطار باحترام كبير وتقدير عالٍ ورافقونا إلى القاعة VIP وكانت الضيافة على أرقى ما يكون، بعدها سيارات المرسيدس السوداء على عدد أعضاء الوفد، وفي كل سيارة سكرتيرة مترجمة... سار الموكب إلى أرقى فندق في العاصمة.

المهم صباح اليوم الثاني سلمونا البرنامج ما أروعه! تحقق الاجتماع الاول مع عدد من المسئولين أصحاب القرار وزراء ومدراء إنتاج على مستوى عالٍ، سألونا عن حاجتنا وأنهم على استعداد للتعاون الفوري معنا؛ لأننا أصدقاؤهم الأعزاء وسيكون التجهيز حال توقيع العقود، سألنا كبيرهم عن الاعتمادات المالية وأسلوب الدفع، فقلنا في الحقيقة لا توجد لدينا اعتمادات مالية والدفع يكون بالأجل، قالوا نعتبر الموضوع لقاءً ويُؤجَّل الاجتماع إلى غد.

جاء الغد، حضرنا الاجتماع فتفاجأنا أن وفدهم قد تغير وحضر آخرون ليسوا بمستوى المسئولية وليسوا أصحاب قرار، وقالوا لنا طلباتكم هذه سندخلها ضمن الخطة الخمسية القادمة ويصير خيرًا وتعيش الصداقة العراقية، وإلى اللقاء في موعد آخر.

إنها المصالح يا سادة، عندك فلوس تأخذ العروس، ما عندك فلوس لو مئة لحية تبوس، والحياة تعلم دروس.

اللئـام

عبد الغفار الأخرس، شاعر من شعراء العراق، فعلاً أخرس، يُقرَأ شعره من قِبَل زملائه.

أشاروا عليه أن يذهب للهند للعلاج، وهناك بعد أن أُجريت له الفحوصات، قال له طبيب مشهور:

– يا عبد الغفار، أنا أُجري لك عملية في المخ، إما تنطق أو تموت، هل أنت موافق؟

أجاب عبد الغفار:

– أنا لا أضحي كلي بجزئي.

واليوم كل الكتل العراقية مهما كانت مسمياتها لديها استعداد أن تضحي بالعراق كله في سبيل مصلحتها الخاصة، فتصوروا الفرق بين هؤلاء اللئام وبين الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم فداءً للعراق، فالمجد لشهداء الوطن والخزي والعار لكل السياسيين الذين دمروا البلاد وشردوا العباد ونهبوا أموال الناس، وقادوا البلاد إلى التخلف والإفلاس، فهل يكفي أن نصفهم باللئام؟

القهـوة و الشـاي

يُحكَى أن أحد أباطرة الصين القديمة أيام زمان كان مولعًا بالطبخ، وفي إحدى سفراته لمزارع القصر الإمبراطوري، كسر غصنًا من شجيرةٍ قريبه من موقد النار وحرك بها ماء القدر المغلي ولاحظ تغير لون الماء وكلما استمر في تحريك الماء ازداد دكانة، وشم رائحة طيبة استحسنها، تذوق الماء فاستذوقه، ملأ قدحًا منه وشربه فأحس بالراحة والحيوية والنشاط وطيب الريق وصفاءً للذهن، حطب كمية من الأغصان وأخذها معه للقصر، شاع الأمر بين الحاشية والحرس الإمبراطوري، ومنهم انتشر بين الناس، ونقله التجار إلى أنحاء العالم كتجارة رابحة بعد أن انتشرت زراعة هذه الشجيرات في عموم الصين، كما اشتهرت زراعة البن في اليمن والبرازيل، ومن هناك انتشرت.

وحكايتنا في عهد الملك جورج والد الملكة فكتوريا، اختلس الأخوان مونت ورايت المؤتمنين على خزينة الملك مالاً، وأراد الملك أن يعاقبهما أشد عقاب، أمر الملك حرس السجن أن يشرب مونت ست أكواب من القهوة يوميًا؛ لأنه الكبير، ورايت ست أكواب من الشاي.

كان الجميع في إنكلترا فى ذلك الزمان يؤمنون أن القهوة والشاي تقصر عمر الإنسان وتتلف صحته، ويعتقدون أن القهوة أكثر ضررًا على الصحة من

الشاي، وهكذا كان الأمر، بعد عمر طويل مات الملك ومات الحراس وما زال مونت ورايت يتمتعان بصحة جيدة.

عاش مونت مئة سنة دون مشاكل صحية تُذكَر، وعاش أخوه رايت مئة وأربعة من السنين بالتمام والكمال.

بعد ذلك تغير اعتقاد الإنكليز وأخذوا يشربون القهوة و الشاي بشراهة، وأصبحت لها جلسات خاصة، وذوق خاص يتمتع كل الناس بشرب القهوة والشاي ويتفنون بصناعتها، وأنواعها، وطرق تحضيرها وأصبحت المشروب المفضل عند كل الناس في مجالسهم وضيافتهم، فمن منا اليوم يستطيع الاستغناء عن القهوة والشاي؟

الـكَـوده

الحلفاية من نواحي حاضرة العمارة على نهر المشرح المتفرع من دجلة ويصب في هور السناف المتصل بهور الحويزة، بيوت ومضايف أهلنا المندائيين منتشرة على ضفاف النهر من السوق تقريبًا وباتجاه نهر الجادل.

في الصيف عند المغرب تُفرَش على حافة النهر البسط المزركشة والسجاجيد الملونة المنقوشة باللون الأحمر الغالب، ووسائد الصوف الحمراء الزاهية، وتُنصَب دلال القهوة، وفي الشتاء يُنقَل المضيف إلى الديوانية المطلة على النهر مبنية من اللبن أو الطابوق ومسقفة بالجندل والبواري (جمع بارية).

وكان هناك شخص اسمه مطنش مشهور يسف (يحوك) البواري، مات فجأة، فالنسوان يلطمن عليه لطم العمارة ويرددن: (عمت عيني على مطنش سفاف البواري الما يخرنش) على أساس مطنش اخترع المسبار الذي سبر أغوار الفضاء، وقطع ملايين الأميال خلال عشر سنوات طيران، ووصل إلى مكان محدد لمعرفة أسرار تكون الكون، وأسرار الحياة والخلق والتكوين الحقيقية.

في الليل تحلى سوالفهم التي لا تخلو من الملحة والحكمة، وهذه حجاية زغيرونة سمعتها في مضيف جدي مكلف سوادي أبو قاسم –رحمه الله– أيام زمان، والعهدة على الراوي.

خنيفر صياد سمك متعافي، طويل القامة، مفتول العضلات، عريض المنكبين، شلوخ.
خنيفر وعدد من الصيادين يندفعون في هور الحويزة لصيد السمك بالفالة والفانوس في الليل وبالسلية والشبك في النهار، الخير وفير، شيخ حيال كلف الصركال عودة أن يأخذ من كل صياد ربية في الشهر ضريبة صيد يسمونها (كَوده) وأظنها كلمة فارسية.
كل الصيادين يدفعون الكَوده ما عدا خنيفر؛ لأن الصركال عودة يعرفه قويًا وعنيدًا، الشيخ يرغب برفع الضريبة إلى ربيتين والصيادين يَشوُن بخنيفر.
الشيخ يحاسب الصركال عودة، ويعترف عودة للشيخ أن خنيفر لم يدفع الكَوده منذ ثمانية أشهر وأنه لا يقدر عليه؛ لأنه يعيش وسط الهور ويمنع الصيادين من الصيد في منطقته، الشيخ يأمر الحوشية بإحضار خنيفر فورًا وبالقوة.
ستة من الرجال الأشداء مسلحون ببنادق البرنو اندفعوا بزوارقهم إلى عمق الهور وعندما عثروا على خنيفر ألقوا القبض عليه وكتفوه، وأتوا به كَود بند للشيخ في مضيفه:
– ولكْ خنيفر تدفع ثماني روبيات طلب عليك فورًا.
– محفوظ الله وكيلك ما عندي.
– شوف خنيفر اختار واحدة من ثلاثة لو تلهم ثماني لهمات من هذا الخثي (مخلفات الحيوانات) لو حمود العبد يركعك بنعاله هذا اليابس على رأسك ثماني ركعات، لو تدفع الثماني ربيات، اختار لك واحدة منهن.
خنيفر:
– محفوظ أَلهم الخثي وأمري إلى الله.

أول لهمة وثاني لهمة راد يزوع مصارينه.

- محفوظ دخيلك راح أموت خلي حمود يضربني أرحم.

حمود بنعاله الشطراوي اليابس يضربه بقوة على رأسه، يتطاير شرر من عيون خنيفر، الضربة الثانية وقع على الأرض وهو يصرخ:

- دخيلك محفوظ دخيلك يا طويل العمر أدفع والله أدفع.

خنيفر يُخرِج صرة فلوس من عبه ويدفع ثماني ربيات للشيخ وهو الممنون.

والرباط نحن العراقيون بسبب رعونة حكامنا وزجنا في حروب لا مبرر لها، أكلنا أردأ الطعام، وضربونا فأوجعونا الأمريكان، ودفعنا ما نملك وما لا نملك، ضيعونا وضاعوا، وما زال الحبل على الجرار، والله الساتر.

إنقاذ فقير

الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم رحمه الله، قائد ثورة تموز المجيدة، كان يسكن العلوية في بيت بسيط مؤجر، وكان سائق سيارته العسكرية ينقله صباح كل يوم إلى وزارة الدفاع عبر شارع رشيد، حيث يمارس عمله كرئيس للوزراء وقائد عام للقوات المسلحة، كان الزعيم يلاحظ رجلاً عجوزًا يضع أمامه قدرًا صغيرًا ملفوفًا بخرقة قماش بيضاء؛ ليحافظ على حرارة ما فيه، وسلة صمون، حيث كان يبيع للعمال كبة وصمون.

يقف الرجل بكل همة ليحيي الزعيم عندما تمر سيارته بدون حماية، تحية عسكرية مضبوطة، ذات يوم لم يشاهد الزعيم بائع الكبة، ولمدة ثلاثة أيام متتالية، أوقف السيارة وطلب من السائق أن يسأل عنه فقالوا له إنه مريض، بعد ثلاثة أيام أخرى شاهد الزعيم الرجل، ولكن بدون قدر الكبة وسلة الصمون، فوقف قربه، وسأله عن صحته وأحواله، ولماذا لا يبيع الكبة، بكل حياء أجاب الزعيم عبد الكريم:

– سيدي كل ما عندي صرفته للطبيب والدواء.

فأخرج الزعيم محفظته، وأعطاه عشرة دنانير من راتبه (عندما كان الدينار يساوي نحو ثلاثة دولارات، والدنيا بعدها بخير) وطلب منه أن يعود لمزاولة عمله.

ويُذكَر أن الزعيم في كل رأس شهر يعطي من راتبه عشرة دنانير لفقير يشاهده على قارعة الطريق ويطلب منه أن يزاول عملاً بهذا المال البسيط والكبير في معانيه.

لو فكر كل مقتدر أن يعطي رأس مال بسيط لفقير ليجد عملاً، ولو بسطة متواضعة، لتمكنَّا في بلادنا من إنقاذ الفقراء، ولو بالحد الأدنى طالما الحكومة لا تقدر أن تعطي شيئًا للفقراء والمحتاجين، ولا يوجد ضمان اجتماعي للمعوزين والعاطلين عن العمل، كما هو الحال في الدول المتقدمة.

بسبب نهب وسرقة المال العام، ومما يُذكَر أننا نحن المندائيون باستمرار نجمع مبالغ عن طريق الأيادي البيضاء أو غيرها من أخوتنا المندائيين المحسنين للعوائل المتعففة وباستمرار.

وأنا أقترح أن نعطي لكل رب عائلة متعففة مبلغًا من المال، ولمرة واحدة، يكون بمثابة رأس مال بسيط يزاول به عملاً بسيطًا ليربح يوميًا رزقًا حلالاً للعائلة دون أن يضطر أبناء الطائفة لمساعدته بين الحين والحين، وكأننا نعالجه من مرض مزمن، وبهذا يمكن إنقاذ أعدادًا من الفقراء ليعيشوا بكرامة حياة بسيطة دون الحاجة لمساعدة متكررة وهي لا تسمن ولا تغني من جوع.

هـاي وين و هـاي وين

في ٢٠ من حزيران ١٩٧٨ سافرنا إلى لندن أنا وزوجتي وابني سرمد، وفي مطار هيثرو كان بانتظارنا الصديق العزيز المهندس محمود فندي، وزوجته الاسكتلندية سارة (واسمها الحقيقي انا)، سارت بنا سيارهما بقيادة سارة إلى مركز لندن لغرض التسوق ومن ثم الذهاب إلى مدينة كوفنتري.

في منطقة الهايد بارك (الطرف الأغر) تبعتنا سيارة مرور بوليس وأوقفتنا، نزل ضابط بوليس برتبة نقيب وقال إن ضوء الإشارة الأيمن الخلفي عاطل، غرامة عشرة باونات وقطع لنا وصلاً وسلمه إلى سارة، وأردف قائلاً:

- قفوا في هذا الكراج ولا تغادروا إلا بعد إصلاح العطل.

حاولت أنا ومحمود تبرير الموضوع دون فائدة، تركنا ضابط المرور وذهب ليجلس في سيارة البوليس ليراقبنا، فتح محمود مصباح الإشارة العاطل وذهبنا لشراء البديل، وعندما عملت الإشارة أومأ لنا:

- يمكنكم الذهاب.

غضبت سارة واحمرت شحمتا أذناها وأرنبة أنفها ووجنتاها ونزلت دمعتان من مقلتيها وهي تتوعد ضابط المرور.

حاولنا تهدئتها لكنها تركت القيادة إلى محمود، بعد ساعة من الزمن وصلنا مدينة

كوفنتري، وطلبت من زوجها أن يذهب مباشرة إلى النائب مستر سمث ممثل منطقتهم في مجلس العموم (البرلمان)، قابلنا السكرتيرة وأدخلتنا إلى مكتب مستر سمث، غرفة فيها مكتب فخم ولكن كرسي واحد للضيوف فقط جلست عليه سارة:

- ما الأمر؟

قدمت له وصل الغرامة وقالت:

- هذا الضابط ظلمني؛ لأنه عاقبني عقوبتين على خطأ واحد، هل هذا جائز في القانون البريطاني؟

أجاب:

- لا قطعًا.

قالت:

- أريد حقي إذن يا سيدي النائب.

اتصل النائب بمدير شرطة الهايد بارك وأعطاه رقم وصل الغرامة المُوقَّع من قِبَل النقيب فيليب هادين وطلب إعلامه هل النقيب مذنب أو لا قبل أن يتخذ إجراءاته بالموضوع.

بعد دقائق معدودة قال له نحن قادمون بعد ساعة زمن.

النائب قال لنا:

- الآن الساعة الثانية عشر (١٢:٠٠) تستطيعون الراحة، موعدنا هنا الساعة الواحدة (١٣:٠٠).

عدنا في الموعد المحدد بعد أن تناولنا الغداء ولكن سارة لم تأكل شيئًا، ما زالت غاضبة، دخل عقيد مرور بعده سيدة برتبة رائد مرور ثم نقيب ألبرت، وبعد مناقشة سريعة بين العقيد والنائب، سلم العقيد على سارة وقال لها:

– باسمي واسم شرطة الهايد بارك نقدم اعتذارنا لكِ، وهذه باقة ورد هدية وخمسون باوند تعويض.

وقامت الرائدة فقدمت عددًا من أكواب القهوة قائلة لها:

– كلما شربتِ بها قهوة اذكرينا بخير.

بعدها تقدم ألبرت معتذرًا واضعًا يده على صدره، النائب:

– قال مِسّ فندي أنتِ موافقة؟

سكتت وبعد إلحاحنا نطقت بكلمة: نعم.

انتهى الموضوع وعدنا في طريقنا إلى البيت وأنا مندهش من الذي يحصل أمامي، سألت سارة لو أن العقيد لم يتجاوب مع النائب ماذا يحصل؟ قالت سارة يتم إستدعاء وزير الداخلية لمجلس العموم لمسائلته بعد أن يؤيد طلب النائب من عدد عشرين نائبًا من زملائه، طيب قلت أنا: ولو رفض النائب شكواك ماذا تفعلين؟ قالت سارة في الانتخابات القادمة أعتلي منضدة وسط الناخبين وأصيح بأعلى صوتي لا تنتخبوا هذا الجبان الذي أهدر حقي.

قلي بربك هل هناك وجه مقارنة بين نوابنا العراقيين ونوابهم، وقلت مع نفسي (هاي وِينْ وهاي وِينْ) نكتة مشهورة واللبيب يفهم.

ســوء فهــم

كنا مجموعة من المهندسين العراقيين نتدرب في روسيا على معدات تكنولوجية متقدمة، وقد أتقنَّا اللغة الروسية نوعًا ما، أي نستطيع أن نكتب ونقرأ ونتفاهم مع الناس.

وفي ليلة من الليالي عملنا حفلة بسيطة في غرفتي في القسم الداخلي، وحصلت ضجة والكل نيام، فجاءنا العقيد المهندس "سَرجي" وأخبرنا:

– إن ما تفعلونه ممنوع لأنه يؤثر على راحة الآخرين، ويعتبر مخالفة للنظام.

قلت له:

– طيب ساعة زمن وننهي الحفلة.

– ولا دقيقة، أقول لك ممنوع تقول لي ساعة زمن؟ أنتم لا تفهمون ما أقوله.

– نحن نفهم أكثر منك، فأنا أستطيع أن آخذك للشط وأُرجعك عطشان.

قال:

– هذا أمر طبيعي؛ لأنني لن أشرب من ماء النهر لأنه ملوث.

فضحكنا جميعًا وهو مندهش وسألني عن ماذا تضحكون وعندما فهم الموضوع ضحك معنا وانتهي الأمر على خير؛ لأن الروس شعب يمتاز بالطيبة والبساطة ودماثة الأخلاق.

أينشتاين

سُئل أينشتاين:

– لماذا تؤمن بالروحانيات وأنت عالم العلماء وعبقري زمانك وصاحب النظرية النسبية؟

قال:

– هناك كثير من الظواهر التي لا أستطيع تفسيرها وكثير من الأسئلة لا أملك جوابًا لها؛ ولهذا أحتاج الغيبيات لأنسب لها ذلك، وأتخلص من الإحراج.

وسُئل أينشتاين أيضًا:

– لماذا دائمًا تقول أنا يهودي، وأنت عالم أممي لكل الناس والإنسانية جمعاء؟

قال وأشار إلى قوقعة حلزون على المنضدة تُستخدم كنفاضة سكاير وتحفة فنية:

– ماذا تسمون الجسم الحي في هذا القوقعة؟

قالوا:

– حلزون.

– وإذا ترك هذا الحلزون هذه القوقعة وخرج منها، ماذا تسمونه؟

قالوا:

- أيضًا حلزون.

قال أينشتاين لهم:

- إذن أنا إذا بقيت فأنا يهودي، وإن خرجت أنا أيضًا يهودي؛ ولذا أنا أقول دائمًا أنا يهودي، وهذه حقيقة أعتز بها وهي من مقومات شخصيتي واحترامي لنفسي وأهلي.

يوم بؤس.. ويوم نعيم

يُحكَى أن الملك نعمان بن المنذر كان له يومان، يوم بؤس ويوم نعيم، أول مَن يقابله في الصباح الباكر يوم النعيم، يغدق عليه العطايا، وفي يوم البؤس يقطع رأس كل مَن يقابله، وقد أقسم على ذلك.

كان النعمان مولع بالصيد والقنص، وذات يوم خرج مع حاشيته للجزيرة، وطارد غزالاً لوحده، فابتعد كثيرًا عن أصاحبه، وهبت عاصفة هوجاء حجبت الرؤيا، وضيعت الآثار والاتجاه. بحث عنه أصحابه طيلة النهار فلم يجدوه، وعندما أدلهم الظلام عادوا أدراجهم للحيرة يندبون حظهم العاثر بضياع ملكهم، تعب الملك وجواده لإيجاد مخرج من هذا المأزق القاتل، نفد الماء ونفق الحصان وتاه النعمان، سقطَ مغشيًا عليه من شدة التعب والعطش، بالصدفة مرَّ أعرابي حطاب على بعيره فشاهد رجلاً في حالة إغماء، فسقاه وحمله إلى كوخه البعيد، واعتنى به لعدة أسابيع إلى أن تشافى وتعافى، فأعاره البعير ليحمله للحيرة، وتقديرًا للضيافة والعناية أعطى الملك الحطاب خاتمه الشخصي، وقال له:

– عندما تأتي لزيارتي في القصر، ويشاهد الحرس هذا الخاتم بإصبعك سيدخلوك القصر.

عاد الملك للحيرة فوجد مظاهر الحزن والألم، وحالما شاهده الناس هللوا وكبروا وأقاموا الأفراح والليالي الملاح، وتمر الأيام والشهور على الحطاب وعائلته وقد

عضهم الجوع وأنهكهم الفقر المدقع؛ بسبب خسارتهم لبعيرهم الذي كان يساعدهم في حمل الحطب الذي يجمعونه ويبيعونه في السوق، وقد رزقهم الله بمولود جديد بحاجة إلى الحليب ومن الضروري شراء بقرة حلوب أو على الأقل نعجة، لكن العين بصيرة والإيد قصيرة.

زوجة الحطاب تلح على زوجها ضرورة الذهاب للملك وطلب المساعدة وإعادة البعير، والحطاب يرفض لعزة نفسه؛ ولأن الملك لم يذكره ويبعث في طلبه.

الطفل لا ينام طيلة الليل ويبكي من الجوع؛ لأن حليب أمه لا يكفيه، الزوجة تلح والحطاب استجاب لطلبها وشد العزم وتوجه إلى الحيرة في الليل فدخل المدينة مع أول خيط من خيوط الصباح، واقترب من حرس القصر وعرض عليهم الخاتم، وقص عليهم حكايته مع الملك، فرأفوا بحاله وأدخلوه حديقة القصر ليرتاح لحين استيقاظ الملك، نام الحطاب المُتعب من سفر الطريق على الأريكة، خرج الملك يتمشى في الحديقة وشاهد رجلاً نائمًا في الحديقة وكان هذا اليوم يوم بؤس، فأمر الحراس بقطع رأسه فصرخ الرجل:

– مولاي أنا الحطاب الذي أنقذتك من الموت، وهذا خاتمك، وبعيري عندك.

وقص عليه القصة، الملك لا يريد أن يحنث بقسمه، فعقد اجتماعًا موسعًا لوزرائه وحاشيته وأمر بقطع رأس الحطاب، الحطاب قص قصته مع الملك، وطلب الرأفة لتوديع عائلته، وإرجاع البعير لهم وسلَّم خاتم الملك لهم، قال له الملك:

– ما الضمان بعودتك ومَن يكفلك؟

نظر الحطاب في العيون فاختار أحد الوزراء الجالسين، الملك سأل الحطاب:

- لماذا اخترت هذا الوزير؟

فأجاب الحطاب:

- مولاي رأيت في عينه العطف، وعلى وجهه الخير والطيبة.

فسأل الوزير:

- ولماذا أنت ضمنته؟

- مولاي لقد اختارني دون الآخرين فتعاطفت معه.

قال الملك:

- لك لغاية غروب الشمس غدًا، وعند عدم عودتك سنعدم الوزير عوضًا عنك.

أمر الحراس:

- أعطوا الحطاب حصانًا.

فانطلق كالسهم، ورتب أمور عائلته، وودعهم وعاد مسرعًا، بدأت الشمس تجر ذيولها للمغيب وغطى الشفق عين الشمس، والحطاب لم يعد، فأمر الملك بقطع رأس الوزير، صاح الوزير الأول:

- ما زالت الشمس صفراء، والشفق موجود.

وفي لحظة غياب الشمس شاهدوا عجاجة قادمة من جهة الصحراء باتجاههم، ولما انجلى الأمر، وانكشف الغبار تبين أن الفارس هو الحطاب، استغرب الملك والحاضرون من صدق الحطاب ووفائه، سأله الملك:

- ما الذي أتى بك إلى الموت ياحطاب؟

- صدقي.

- ومن أين جاء صدقك؟

- من إيماني.
- إيمانك بمَن؟
- إيماني بعقيدتي.
- وما عقيدتك يا هذا؟
- ديني.
- وما دينك يا رجل؟
- إني نصراني.

فتنصَّر النعمان؛ ولأن الناس على دين ملوكها تنصَّر الجميع.

حيوانات النــو

حيوانات النو: عجول ضخمة الحجم كثيرة العدد تعيش بمجاميع كبيرة في أفريقيا، تلتهم يوميًا مئات الأطنان من الكلأ.

الحيوانات المفترسة تحوم حولها لافتراس طرائدها، الأُسود، النمور، الذئاب، وحتى الكلاب البرية، الغريب في الأمر أن الكلاب تهاجم حيوان النو في طرف القطيع، وتتجمع عليه تنهش به، يحاول الدفاع عن نفسه لكنه يضعف مع الوقت، يحاول الإفلات ولكن الكلاب تطوقه وتمنع انضمامه للقطيع، تبدأ الكلاب تنهش لحمه وهو يستجير بأهله وأبناء عمومته دون فائدة، يخور يدور وحيوانات النو تتفرج عليه ولا تحرك ساكنًا وهي تملك القوة والقرون وحجم الواحد منها بحجم كل الكلاب المهاجمة وعددها أضعاف أضعاف الكلاب المهاجمة، لكنها لا تفعل شيئًا وأمام أعينها يسقط المسكين، وتبدأ الكلاب بتقطيعه وأكله وحيوانات النو لا حول لها ولا قوة، لا تستخدم قوتها وقدراتها لإنقاذ أخيها المسكين وحمايته، تضحي به وهي متخاذلة جبانة رغم أنها تعلم علم اليقين أن الدور سيأتي على بقيتها. ولأن الكلاب عرفت أن هذه الحيوانات رغم كثرتها وقوتها لكنها متخاذلة تنتظر قدرها، ولكن لو تابعنا الجاموس البري الأسود كيف قتل لبؤة الأسد عندما اقتربت من عجله بنطحةٍ بقرونه الكبيرة نطحةً قاتلةً.

حيوانات النو الجبانة هذه عبرة ممتازة لنا نحن العرب كيف يتم الاستفراد بدولة عربية وتدميرها واحتلالها وبقية الأخوة العرب يتفرجون، والأدهى من ذلك يساعدون الذي يهاجم أخوهم ويسهلون مهمته له ويدفعون ثمن السلاح الذي استخدمه في قتل أخوهم وتدمير بلادهم سبحان الله.

فهل تعلمنا هذا من حيوانات النو وزدنا عليه؟ إن الله في خلقه شئون.

وهناك أمر غريب آخر، كل هذه الثروة الحيوانية البرية الهائلة وفي أفريقيا مجاعة، فإن علمنا أن نصف مليون من حيوانات النو هذه تنفق خلال هجرتها في موسم الجفاف من قِبَل الوحوش الكاسرة والطيور الجارحة والتماسيح أثناء عبورها الأنهار، لو أن أفريقيا منظمة وتفكر وتخطط مثل أوروبا لقضت على معظم الوحوش المفترسة وعزلوا عددًا منها في محميات أو حدائق الحيوانات؛ للمحافظة على النوع وللفرجة، وأبادوا البقية وحافظوا على الثروة الحيوانية الضخمة وأطعموا شعوبهم وأشبعوهم، يصيحون ويستنجدون بالآخرين لمساعدتهم وهم بنفس الوقت يهدرون ثرواتهم الكبيرة ويبددونها بسبب سوء التخطيط والكسل وعدم التفاهم والتعاون بينهم، مثلهم مثلنا نحن العرب، ثرواتنا هائلة من ثروات طبيعية وأراضٍ شاسعة ومياه وفيرة وشمس مشرقة وأيادٍ عاملة نصفها عاطلة عن العمل وغير متعلمة والفُرقة متفشية على أساس ديني ومذهبي وعشائري والحبل على الجرار... حقًا هناك شعوب متقدمة بقياداتها ونظمها وتخطيطها واستثمار قدراتها وثرواتها، وشعوب متخلفة.

الكلب مشمش

مشمش، اسم كلب أبيض صغير الحجم، حلو الملامح، ربيناه منذ كان عمره ثلاثة أيام على حليب النيدو إلى أن فتح واشتد عوده وبدأ يدرك ما حوله.

الأولاد يلعبون معه في حديقة البيت وهو يحبب نفسه لهم، عندما يحس أنه بحاجة إلى تواليت يطرق على الباب بيده فنفتح له الباب، فيذهب لمكان مخصص له في طرف الحديقة، والغريب أنه يحفر ويدفن مخلفاته ولا يترك لها أثرًا واضحًا.

كان مشمش مفيدًا لكونه كان جهاز إنذار كفئًا جدًا، يحس إذا ضيف وقف بباب الكراج قبل أن يدق الجرس فينبهنا؛ ولهذا بسبب وجود مشمش لم يُسرَق شيء من حديقتنا كالسابق، ومن غرائب الأمور التي حدثت أن مشمش سُرِق مرة من باب الكراج وفتشنا عليه كثيرًا دون فائدة، لكن صاحب الكشك في رأس الشارع أخبرنا أن شابًا وضعه في الكيس (كَونيه) وهرب به ونصحنا أن نذهب صباح يوم الجمعة إلى سوق الغزل احتمال نجده هناك.

وفعلاً ذهب ابني سامر، وخلال تجواله في السوق سمع نباح مشمش وهو في الكونيه، وأخذ يرفس بقوة وعنفوان، وقفز من الكونيه واحتضن سامر وهو يشمم به فادَّعى الحرامي أنه اشتراه بمبلغ كبير، فكان سامر أذكى منه حين قال له لقد سرقت كثيرًا من حاجيات البيت مع الكلب، فولى الحرامي هاربًا وعاد مشمش إلينا ففرح به الأولاد.

ومن غرائب الأمور عندما تكون في طعامه عظام كبيرة يلجأ لدفنها في نهاية الحديقة لفترة لحين تتفسخ فيُخرجها عند الحاجة ويأكلها بيسر وسهولة، وما زلت مستغربًا عندما بكى ونحن نودعه مهاجرين، وكيف شمنا وقبَّل الأولاد وهو يئن وكأنه يعرف أنه الوداع الأخير، وبعد خمس سنوات غربة عدت لبيتي الذي سكنته أختي، وعندما وقفت في باب الكراج، وطبعًا كانت الكهرباء مقطوعة كالعادة فاجئني عندما قفز من فوق الباب وأخذ يشمني ويُقبِّل ملابسي ويدور حولي، ويهز بذيله بقوة، ويجر طرف البنطلون يدعوني لدخول البيت...

إنه الوفاء. وفاء كلب غزر به العيش والملح ورد الجميل.

السدرة و العندليب

في بيتنا نبقة (سدرة) تظلل شباك غرفة النوم، زرعها أخي أبو أماليد رحمه الله، عندما جلبها من البصرة نبته صغيرة، والآن أصبحت شجرة وارفة الظلال.
في شهر نيسان ينضج نبقها الزاهي الألوان والكبير الحجم نسبيًا، والحلو المذاق كأنها حامض حلو، والكثيرة الناتج، شهر نيسان رغم أنه شهر الخير والحصاد والجو المعتدل، ندرة الفاكهة في الأسواق من ميزاته، قبل أن يكون هناك استيراد لكل شيء تقريبًا حتى للنبق؛ لأن فاكهة الشتاء انتهت وفاكهة الصيف تحتاج لنضوجها شوية وقت، ولهذا يكون في هذا الوقت أهمية خاصة النبق.
نجني يوميًا منها الشيء الكثير لنا وللجيران والأصدقاء، ولكن يبقى في أطرافها العالية شيءٌ من النبق يصعب جنيه؛ لصعوبة الوصول إليه، فيزداد نضجًا وجمالاً، هناك عدد من البلابل بنت لها عشوش في أعلى الشجرة، مع أول خيط من خيوط الفجر تبدأ هذه البلابل تغرد أحلى وأروع من تغريد بلبل إذاعة بغداد أيام زمان عند الصباح الباكر كل يوم.
لاحظت من غرائب الأمور أن العندليب يُحدِث ثقبًا في عددٍ من الثمار الناضجة جدًا ثم يحط قرب حنفية الماء التي يتسرب منها الماء حتى لو كانت مقفلة، يشرب شيئًا من الماء ويحتفظ بشيءٍ في منقاره ويطير، ويزق هذا الماء في الثمار الناضجة، ويكرر ذلك عدة مرات، وبعد فترة يحددها العندليب يشرب ما في داخل هذه الثمرة فيغرد تغريدًا بديعًا يسلب اللب.

سألت الفلاح عن هذا الأمر الغريب وتفسيره قال:

- أستاذ، إنه يخمر العصير داخل الثمرة فيحوله إلى عرق ممتاز أحسن من المستكي أو عرق حبة الحلوة، وأحسن من عرق هبهب ويعشيقة ولبنان.

والناس ظالمته تقول للي ما يفهم بسرعة هذا عقله عقل عصفور.

الضمير

خلال مراحل الدراسة خارج البلاد، تعرفت على أستاذ بدرجة بروفيسور إنكليزي الجنسية من أصول ألمانية اسمه أستاذ دكتور سول شانك، يُدرِّسنا مادة الأيرودواينمك (Aerodynamic)، في نهاية تلك السنة بلغ سن التقاعد، كانت زوجته إنكليزية الجنسية من أصول بلجيكية اسمها إيرينا، تعشق الشرق، وتحب اقتناء التحف التراثية، كانت بمنتهى السعادة عندما أجلب لها بعض الهدايا الفلكورية عند زيارتي لبغداد من سوق الصفافير، وأساور فضية من شارع النهر منقوش عليها آثار بلاد ما بين النهرين، كان زميلي وصديقي ياسين الشيخلي مكمل في مادة الأيرودواينمك ومادة ميكانيكا الطيران (Mechanic of flight) من حقه أن يأخذ معه مادة وينجح في مادة، المهم جاءني ياسين يستغيث بي لمساعدته، قائلاً:

– سأختار مادة الدكتور سول صديقك؛ لسببين الأول أنه صديقك، والثاني أنه سيُحال على التقاعد في الشهر القادم، لبلوغه السن القانوني.

ولم تقبل إدارة الجامعة تمديد خدمته، وبعد ثلاثة أسابيع جاء موعد الامتحان ونجح ياسين في الامتحان التحريري ولكن على الحافة، وبعد ذلك بأسبوع حدد موعدًا للامتحان الشفوي، حضرنا أنا وياسين إلى مكتب الدكتور ورحب بنا

وسألني:

– لماذا أنت هنا؟

قلت له:

– ياسين صديقي.

قال:

– طيب تفضل اجلس.

ياسين استلم ثلاث أسئلة أجاب عن واحد وتلكأ في الثاني والثالث، فانتفض الأستاذ غاضبًا منه وقال له:

– يجب أن تعيد هذه السنة.

تدخلت أنا وقلت له:

– أستاذ أرجوك ساعده لأجل خاطري وأنت بعد بكره ستنفك من الجامعة لكي نذكرك بخير.

فبحلق بي وقال:

– بشير أنا قاضي وعندي ضمير، وأنا لا أسمح لك بالتدخل في صميم عملي، هذا الطالب عليه أن يتعلم؛ لأنه سيكون مهندس طيران مسؤولاً عن حياة ناس، وأنت تعلم أن تفرق بين الصداقة والواجب، بلادكم متخلفة وعليكم تقع مسئولية النهوض بها مفهوم بشير؟ والآن مع السلامة.

صحيح الحياة تعلم الدروس.

موقف مشرف

نسبت مديرًا فنيًا لإحدى القواعد الجوية، والتحق الأخ العميد المهندس حامد نزال السعودي لهذه القاعدة بعد عودته من دورة تدريبية على طائرات متقدمة تكنولوجيًا، وكان حينها من أكفاء المهندسين وأكثرهم خبرة وعلمًا في مجال هندسة الطائرات.

رحبت بأخي وصديقي أجمل ترحيب، وهيأت له ومَن كان بمعيته كل المستلزمات الضرورية، كان فرحًا مسرورًا بكل هذه التسهيلات التي تساعده على البدء بالعمل الفوري، أدركت حينها أن العميد المهندس حامد أقدم مني عسكريًا، وفي هذه الحالة يجب عليه أن يكون هو المدير وليس أنا.

في صباح اليوم الثاني ذهبت للقيادة وأخبرتهم بالموضوع، قالوا:

– أنت مثبت وتبقى مديرًا، وغدًا أرسل لنا العميد حامد للتفاهم معه.

وقالوا له:

– أنت ترتبط فنيًا بالقاعدة وإداريًا معنا.

فقال لهم:

– أنا والعميد المهندس بشير متفاهمان ومتفقان فنيًا وإداريًا ولا توجد أي مشكلة من أي نوع.

وعند عودته عاتبني وقال:

- يا أخي أنا يسعدني ويشرفني أن نعمل سويًا، وأنا لا يهمني المنصب بقدر ما يهمني أن نتعاون لنبني صرحًا فنيًا كفئًا يكون منارًا للجميع يهتدون به ويتعلمون منه.

فقلت له:

- سيدي العزيز أنت مسؤول عن وحدتك مسئولية كاملة ولك كل الصلاحيات وأنا أتعاون معك إلى أبعد مدى.

وخلال ستة شهور تمكننا من بناء معمل (وحدة هندسية) متقدمة لتصليح الطائرات والمعدات وكانت موضع إعجاب الجميع، لقد كان العميد حامد رجلاً كفئًا قديرًا خبيرًا عالًما في مجال اختصاصه، الجميع يحبونه ويحترمونه ويُقدِّرون كفاءته العالية، وعندما يأتي لزيارتي في المكتب أترك المكتب وأجلس أمامه احترامًا وتقديرًا له ولموقفه الأخوي الشجاع.

رحم الحي العظيم هذا الرجل الشهم الكفء المخلص لعمله وطائفته وما قدمه من خدمات جليلة لعمله وطائفته في العراق وهولندا.

لقد كان أبو سام عالًما بارزًا في مجال اختصاصه، وعضوًا فعالاً في المجلس الروحاني الأعلى في العراق، ومؤسس الفيدرالية المندائية في هولندا.

هذا اللي كدرني عليه

سعد رجل بدوي يعيش مع أهله وعشيرته في بادية السماوة، قرر السفر إلى أعمامه الرعاة في بادية ربيعة، استمتع لمدة شهر بعدها عاد لأهله فرحًا مسرورًا، فوجد وجوههم متجهمة متجهمة خائفة، استغرب الأمر وبادرهم بالسؤال: ماذا أصابكم؟ قال له أبوه: اسمع يا بني أنت خرجت من هنا وبعيرك الذي تحبه تبعك ومنذ شهر ونحن نبحث عنه ولم نعثر على أثر له.

اندهش سعد، وسأل أهله:

– وبأي اتجاه هرب البعير؟

فأشاروا باتجاه الصحراء، عض سعد طرف دشداشته وركض بكل ما يملك من قوة باتجاه الصحراء، وأهله يركضون خلفه، تعب (فحط) سعد فتوقف وجلس على الرمل، عاتبه أبوه:

– هل أنت تخبلت ياسعد؟ نقول لك إن بعيرك هرب قبل شهر وبحثنا في كل مكان ولم نجده، وأنت الآن تركض لا على التعيين تريد أن تجده، عهدي بك عاقل ياولدي.

سعد وقد تقطعت أنفاسه من التعب:

– يا ناس لا بد من أن أفعل شيئًا، وهذا اللي الله كَدرني عليه.

مَن الصح؟

كنت ضمن وفد رسمي في زيارة رسمية للهند للاطلاع على التقنيات في مجال تدريب الكوادر الهندسية، وقد دعانا عميد الأكاديمية لزواج ابنه، وكان الرجل من عائلة ميسورة جدًا، بدأت مراسيم قطع المهر على ضفاف نهر جارٍ، وشاهدت رجال دينهم يلبسون الرستة البيضاء بكل تفاصيلها المندائية، وكلٌّ بيده مركنة، وقد أطلقوا لحاهم، وشعر رؤوسهم، وكانوا يلبسون الصنادل.

جاء العريس والعروسة وهما يرتديان الرستات البيضاء أيضًا، ولاحظت وجود السكندولة في حزام العريس... سألت أحد رجال الدين الذي يتكلم اللغة الأردية عن طريق المترجم عن معنى السكندولة، وإلى ماذا ترمز، وما معنى الرسوم على وجه الخاتم... فقال:

– النحلة ترمز إلى الهواء، والأفعى إلى الماء، والعقرب إلى التراب، والأسد يرمز إلى النار، ومن النار والهواء تكون الغازات، أي الأرواح، ومن الماء والتراب تتكون الأبدان، ومن الأرواح والأبدان كان الإنسان والكائنات الحية.

سألت بعض رجال ديننا الأفاضل، فأجابوا إنها ختم يأتي بالمرتبة الثانية بعد الشوم ياور، تُختَم بها سرة الطفل، ويُختَم بها القبر، ويتم ختم الزوجين عند الزواج؛ لحفظهما وحمايتهما من الشر، أي أن السكندولة تحمي حاملها من الشر، ويجب

أن تكون من مادة الحديد لأهمية الحديد في جيولوجية الأرض والتكوين، بينما أنا لاحظت أن هناك مَن صنعها من مادة الفافون (من سبائك الألومنيوم)...

المهم أي الجوابين أقرب للعقل والمنطق؟ بمعنى أي الجوابين صح؟

الرجـل المعجزة

في شهر رمضان من السنين الخوالي كان موقف أمن الموانئ في البصرة مكتظًا بالموقوفين السياسيين، كان أحد الموقوفين واسمه حامد من أهل النجف، وهبه الله صوتًا جميلاً، ويحفظ كثيرًا من الشعر والمواويل.

كان اليوم جمعة ثالث أيام عيد الفطر، والوقت مساءً؛ ولأن حامد ميسور الحال دفع رشوة مجزية إلى الحارس محروق (محروكـَ) كان هذا اسمه وعبر له ربع عرق مستكي في كيتلي الشاي، عمَّر حامد له كأسًا من الراح الأبيض ووضعه أمامه وستره بالبطانية الرصاصية التي إن حركتها تنكث التراب والقمل والبرغوث، وبعد أن دارت المدام في رأس حامد انتشى بدأ يغرد بمزاج، فهو يغني الشجن لنفسه بامتياز، وما زلت أحفظ الثلاثة أبيات التي غناها حامد والدموع تنهمر من عينيه؛ لأنها مؤثرة ومحزنة ومعبرة، ولأنه يعيش مأساة زوجته حبيبته التي قتلها مجرمو الأمن في ذلك الوقت أثناء التحقيق معها:

مررتُ بقبرٍ غاسقًا وسطَ روضةٍ	عليهِ من النعمان سبعُ شقائقِ
قلتُ لَمن ذا القبر جاوبني الصدى	تقدم يا مسكين إنهُ قبرَ عاشقِ
مساكين أهل العشقِ حتى قبورهم	عليها تراب الذلِ دون الخلائق

وكان الجميع منسجمين غاية الانسجام مع حامد، مع هذا الشعر الجميل المعبر والمؤثر، وفي هذه الأثناء فتحوا باب التوقيف الحديدي ودفعوا رجلاً في العقد السادس من عمره، ذا هيبة ووقار، ووجه نوراني، قد أطلق شواربه ولحيته البيضاء يرتدي صاية وبالطو وحزامًا وقفطانًا من نفس القماش الموهير الراقي، وعباءة بيضاء كشمير، وكوفية زاهية، وعقال مقصب مذهب، طويل القامة عريض الهامة مهاب، فجفل الجميع وانتابهم نوع من الحرج والخشوع، ومن شدة حرج حامد خبأ القدح خلف ظهره، وبادر الرجل الوقور بالسؤال:

– ما خطبك مولاي؟

أجاب بثقة وقناعة:

– إني قلت لهم صادقًا أنني نبي، فقالوا ما إعجازك أيها النبي؟ قلت زوجوني امرأة، وبعد عام تضع ولدًا، وعندما ينطق سيشهد بصدق نبوتي.

فأخرج حامد (كلاص العرق) من خلف ظهره وقال له:

– اشرب صلى الله عليك وسلم.

الإنــذار

"علي المراياتي" تاجر جملة من تجار الشورجة المشهورين يُشهَد له بالصدق والأمانة والطيبة حتى كسب ثقة تجار بغداد الذين يتعاملون معه؛ لأنه يخاف الله ويؤدي فروضه، فذاع صيته حتى عند تجار المحافظات، أسعاره واحدة ومعقولة ومقبولة، المهم عنده استمرار البيع على مدار الساعة ولو بربح بسيط فالنتيجة تتكون أرباح طائلة.

ولده الكبير إحسان الذي يعمل معه في المتجر، قال:

– يا أبتِ ما ضر لو رفعنا الأسعار قليلة أسوة ببقية التجار؟

قال:

– اسمع يا ولدي وتعلم، لو كان لديك حنفيتان تصب الماء واحدة بقوة والثانية بهدوء وأردت أن تملأ خزانين متساويين بالحجم بواسطة سطلين متساويين بالحجم أيضًا، ستلاحظ أن الحنفية التي تصب الماء بقوة لا تملأ إلا نصف السطل أو أكثر بقليل وأثناء نقل ماء السطل بسرعة للخزان الأول سيضيع جزء آخر فلا يصل الماء إلا نصفه أو أقل، بينما السطل الآخر امتلأ من الحنفية الهادية لحافته، وستنقله على مهلك فسيصل كل الماء للخزان الثاني وبهذا سيمتلئ هذا الخزان أسرع من الخزان الأول، مفهوم يا ولدي؟ كل شيء بالهدوء والعدل والحق والإحسان، يا إحسان يجعل منك إنسانًا صالحًا يحبه الله والناس وينجح في عمله وتجارته.

قال إحسان:

– يا أبتِ سمعت هذا المثل الشعبي من الناس يقولون (اجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش).

فقال الأب:

– هذا المثل مصري للتنابلة الذين يقولون توكل على الله فهو الرزاق وكفى، صحيح يجب التوكل على الله في كل شيء ولكن الله يقول (اعقل وتوكل)، وأنا أقول لك يا ولدي (لكل مجتهد نصيب) (ولكل امرئ ما سعى ولكن لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها).

امتد العمر بالتاجر أبو إحسان فشاخ وهرم وهو يدير متجره، وذات يوم جاءه ملك الموت عزرائيل (صاروئيل) وأخبره أن أيامه في هذه الدنيا انتهت وأن خالقه أرسله ليقبض روحه، امتعض أبو إحسان وغضب وأربد سيماه، وقال:

– ما هذا الظلم؟ وما هذا الإجحاف؟ وما هذه المفاجأة غير السارة؟ ولماذا لم تبعثوا لي إنذارًا أو إخطارًا لأتدبر أمري، وأصفي شغلي، وأسدد ديوني، وأستوفي طلباتي، وأرتب مستقبل عائلتي من بعدي، وأودع أهلي ومعارفي وأصدقائي، وأنظم أمور تجارتي؟ أليس هذا من حقي؟ أليس هذا من العدل والإنصاف وأنا رجل صالح أتقي الله وأخافه؟ بالحق أرعى اليتامى والمساكين والأرامل فيكون هذا جزائي أن يتم أخذي على حين غرة؟

احتار عزرائيل وفكر وقرر أن يعود فيسأل رب العالمين ونقل وجهة نظر الرجل الصالح ورجاءه بالحق، وبَّخَ رب القدرة عزرائيل وأنبه قائلاً له:

– نحن أرسلنا له عدة إنذارات، وكثيرًا من الإخطارات فهل هذا التاجر الكبير غبي أم أهبل، ولماذا لم تقل له كيف كان شعر رأسك وكيف أصبح؟ وكيف كان

نظرك وكيف أصبح؟ وأين أسنانك؟ ولماذا احدودب ظهرك؟ ولماذا تتوكأ على عصاك؟ ولماذا تبول على فخذيك؟ ولماذا؟ ولماذا؟ كل هذا ولم نرسل له إنذارًا؟ يا له من إنسان عبيط فهم جانبًا من الحياة في العمل والتجارة ولكنه ضيع النباهة وحساب الزمن.

ولهذا الحكمة تقول (عش لدنياك وكأنك تعيش أبدًا، وعش لآخرتك وكأنك تموت غدًا).

صدكَ.. جذب

محسن من أهالي المسيب "مدينة الحلة" يعمل حارسًا ليليًا في مدرسة بابل الابتدائية، متزوج من ابنة عمه حسنة التي يحبها، وقد مضى على زواجهما سبع سنوات، ولم يرزقهما الله بمولود يملأ عليهما البيت ويُدخِل الفرحة على قلبيهما وخاصةً حسنة التي تقضي الليالي لوحدها.

يوم الجمعة ذهبت حسنة برفقة زوجها محسن إلى كربلاء للزيارة وفي حضرة العباس أبو فاضل تمسكت بالمقام ودعت العباس أن يتشفع لها عند خالقها ويرزقهما بولد صالح يلم كبرهما، ونذرت هايشتها للعباس أن تحقق مرادها.

مرت الأيام، وإذا بقدرة قادر، حسنة حامل، فرحت وهللت وكبرت وشكرت واعتنت بنفسها وزوجها يساعدها في أعمال البيت وفي التسوق من السوق القريب من بيتهما البسيط المتواضع.

مرت الشهور التسعة وجاء المخاض فولدت حسنة ولدًا جميلاً كامل الخلقة بصحة جيدة، بعد أن انقضت فترة النفاس قررت أن تفي بنذرها، زوجها محسن يناقشها:

– يا حسنة يا بنت الأصول نحن لا نملك غير هذه الهايشة مستفادين منها يا بنت الناس، فطورنا منها، وعشاؤنا منها، حليب ابننا منها، زيتنا منها، حطبنا منها،

ولا نستطيع أن نعوضها؛ لأن أنتِ عارفة البئر وغطاه.

حسنة قالت:

- اسمع يا محسن إني نذرت ولازم أفي بنذري.

تجادلا وتناقشا، حسنة أصرت، ومحسن رضخ للأمر الواقع على مضضٍ، يوم الجمعة من الصباح الباكر أخذا الهايشة وتوكلا على الله مشيًا إلى كربلاء وفي منتصف الطريق صادفهما جسر المسيب على الفرات رفضت الهايشة عبوره، حاول محسن بكل طريقة دون فائدة، الهايشة وقفت برأس الجسر، اضطر الرجل أن يستأجر بيكب وينقل الهايشة إلى مقام العباس، استقبلهما القيم على الحضرة ورحب بهما وهو يقرأ لهما الصلوات والدعوات وسلماه الهايشة ومحسن غير مقتنع وقلبه وعقله رافضين الشغلة، انتفض محسن وسأل القيم:

- رحمة لوالديك أريد أعرف هذه الهايشة شلون راح توصل للعباس أبو فاضل؟؟

- يا ولدي هذه الهايشة ستسير على الصراط المستقيم وتصل للعباس.

محسن يمسك عنان الهايشة ويستردها بقوة وهو يقول:

- عمي هذه الهايشة جسر المسيب العريض ما عبرته تريدها أن تمشي على الصراط المستقيم (صدكَــ... جذب).

مصباح ما هو غشيم

القطار الصاعد من البصرة إلى بغداد، أو القطار النازل من بغداد إلى البصرة يتوقف في محطة "أور" ليصعد به المسافرون من أهل سوق الشيوخ والنواحي القريبة، القطار العادي النازل ليس له مواعيد محددة للوصول إلى محطة أور؛ لأن سائق القطار لو شاهد خيمة وبعير يتوقف عندها، أحيانًا يصل الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وأحيانًا الساعة الرابعة أو الخامسة صباحًا، والشاعر الشعبي عبود الكرخي يقول (يلي تركب بالقطار أنصحك تركب الحمار)، وشوفوا قطارات العالم إلى أين وصلت وأهلنا بالعراق ما زالوا بزمن عبود الكرخي رحمه الله.

المسافرون يأتون إلى المحطة بعد العشاء وينتظرون قدوم القطار، وعندما يطول الانتظار يتعبون، فينامون، فيفوتهم القطار، مصباح رجل من أهل سوق الشيوخ تدفعه الحمية والغيرة فيتبرع بإيقاظ المسافرين عند وصول القطار لمحطة أور بطريقته الذكية، مصباح يضع ساقه على سكة القطار وينام حاله حال العبرية المنتظرين وعندما يقترب القطار النازل يحس مصباح باهتزاز سكة القطار فيستيقظ ويوقظ المسافرين لوجه الله تعالى، الناس العقلاء حذرت مصباح من مغبة أن ينام نومًا ثقيلاً بسبب السهر والتعب فتقوم عربات القطار بثرم رجله،

مصباح دائمًا يرد عليهم بكلمته المشهورة، مصباح ما هو غشيم، ذات يوم غط مصباح بنوم عميق، وجاء القطار وقطع رجل مصباح المسكين فراحت مثلاً بين الناس.

لكل عالم هفوة

أديسون هذا العالم الفذ الذي نور علينا عالمنا، وبدد الظلام، وأغنانا عن الفانوس واللاله، هذا المخترع اخترع للبشرية المصباح، كان يعمل ليل نهار في معمله للوصول إلى خيط يتوهج ولا يحترق، وبعد جهد كبير وتجارب كثيرة توصل إلى خيط التنكستن المستخدم حاليًا في المصابيح قبل تطور صناعتها حديثًا.

هذا العبقري الفذ لاحظ وهو يعمل في أرض المعمل ثقبًا كبيرًا نظر إليه فوجد جرذان كبيرة ومعها فئران صغيرة، أتى بالمثقب وعمل ثقبًا صغيرًا بجانب الثقب الكبير، استغرب صديقه أريك:

– وسأله ماذا تفعل يا أديسون؟

أجاب:

– الجرذان تخرج من الثقب الكبير، ولكن الفئران من أين تخرج! ولهذا أنا أعمل لها ثقبًا صغيرًا تخرج منه.

حقًا لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة.

العقـل

العقل جوهر مضيء خلقه الحي العظيم في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة، والروحانيات بالشعور ومواجد القلب، والعقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلها.

فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء، وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع؛ ولهذا يُقَال أن الرجل الكبير أكمل عقلاً وأكثر دراية ومعرفة وحكمة، وأكثر فهمًا وأرجح عقلاً، ولكنها ليست قاعدة ثابتة، فكثير من المواهب الشابة التي أفاض الحي عليها الموهبة ورجاحة العقل والمعرفة تُخرِجه عن الاكتساب ويصبح راجحًا عن أهل التجارب والخبرة.

ولنا أدلة كثيرة على ذلك ومنها: نبينا يهيا يهانة (النبي يحيى بن زكريا أو يوحنا المعمدان) وقدراته ومواعظه وحكمه (وآتيناه الحكم صبيًا) الذي أشرقت عليه أنوار ملائكية وموهبة ربانية، فاتصف بالذكاء والفطنة والإيمان رغم حداثة السن وقلة التجربة، فقد أنارت مواعظه طريق الإيمان لطلابه في أمسيات الليالي والمدونة في كتابه تعاليم يحيى مبارك اسمه، ونذكر موهبة سليمان بن داود، حين

دخلت أغنام الراعي مزرعة العنب وأكلت كل كروم الفلاح، فشكا الراعي إلى الملك داود الذي حكم أن يأخذ الفلاح أغنام الراعي بدل العنب، لكن سليمان الذكي النبيه اعترض على حكم أبيه، وقال:

– يا أبتِ إني أرى الحق والعدل أن تعطي الفلاح الغنم يستفيد من حليبها وصوفها، وتعطي بستان الكروم إلى الراعي يرعاه ويسقيه ويُعمِّره إلى أن يكبر الكروم ويحمل العنب وتنضج عناقيده، بعدها يعود الغنم لصاحبه الراعي وبستان العنب لصاحبه الفلاح.

فرح داود بفطنة وذكاء ولده سليمان وأمر بذلك.

كذلك موهبة الشاب الأعرابي من بني خزيمة عندما قدم مع قومه من الجزيرة العربية إلى الشام؛ لمقابلة الخليفة عمر بن عبد العزيز وقد تقدم هذا الشاب قومه في ديوان الخلافة فامتعض الخليفة، وقال:

– يا بني اترك الكلام لَمن هو أسن منك.

فقال:

– يا أمير المؤمنين لو كانت المعرفة و الحكمة بالسنِ لكان في مجلسك هذا مَن هو أحق منك بالخلافة.

فقال:

– صدقت، قل يا بني ما عندك.

فقال:

– أيها الخليفة العادل أصابتنا في الجزيرة ثلاث سنين عجاف، سنة أذابت

الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، فإن كان ما عندك مالنا فرده إلينا فنحن أحق به منك، وإن كان مال الله فنحن عباده، وإن كان مالك فتصدق به علينا، فإن الله يحب المحسنين.

فقال:

- يا بني لم تترك لنا واحدة ننفذ منها، أعطوهم ما يريدون.

وهذا يدلنا أن هذه الموهبة والدراية لدى هؤلاء وغيرهم من الشباب لم تحصل لديهم من كثرة التجربة والخبرة، وإنما حصلت بعناية إلهية أو طفرة وراثية رجحت عقولهم على أهل الخبرة والتجربة، ويستدل على كمال العقل بما يوجد منه وما يصدر عنه؛ لأن العقل بمعنى الكلمة لا يمكن مشاهدته؛ حيث إن المشاهدة من خصائص الأجسام ويمكن معرفة العقل الراجح من خلال ميله إلى محاسن الأخلاق والقيم النبيلة وإسداء المعروف وحسن مداراته للناس، فإن كل شيء كثر رخص إلا العقل كلما كثر غلا.

وصدق الشاعر حين قال:

إن المكارم أخلاقٌ مطهرةٌ ... فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلمُ ثالثها والحلم رابعها ... والود خامسها والعُرفُ ساديها
والبرُ سابعُها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عيني محدثها ... إن كان من صحبها أو من أعاديها
والروح تعلم إني لا أصدقها ... ولستُ أرشد إلا حين أعصيها

الأم الحكيمة توصي ابنتها

الأم الحكيمة علمتها الحياة وأخذت منها التجارب، فاكتسبت دراية وحنكة من حلوها ومرها ويسرها وعسرها، فكانت ذات رأي وخبرة وبصيرة، اسمعوا حكمتها وهي توصي ابنتها عند زواجها:

– أي بنيتي، إنكِ ستفارقين بيتكِ الذي فيه تربيتِ إلى بيت لم تعرفيه، وزوج لم تألفيه فكوني له زوجة صالحة، يكن لكِ زوجًا صالحًا.

أي بنيتي الغالية، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا.

الأولى والثانية: فالزواج بالقناعة والعِشرة بحسن السمع والطاعة،

والثالثة والرابعة: تفقدي مواعيد طعامه، والهدوء في منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وقلة النوم مغضبة،

والخامسة والسادسة: فلا تقع عيناه منكِ على فعل قبيح، ولا يشم منكِ إلا أطيب ريح،

والسابعة والثامنة: فلا تفشي له سرًا، ولا تعصي لهُ أمرًا،

والتاسعة والعاشرة: فحفظ بيته وماله ومحبة أهله وعياله، وابتعدي عن الفرح إذا كان في حالة ترح والحزن والاكتئاب إذا كان في حالة فرح، وحاولي أن تكوني له إعظامًا يكون لكِ أشد إكرامًا، وكوني له بالحسنى والتفاهم موافقة، تعيشين معه العمر مرتاحة وأسعد مرافقة، ودائمًا أثري رضاه على رضاكِ وهواه على

هواكِ ونالي رضاه لينال رضاكِ فيما كرهتِ وأحببتِ،

والله يسعدكم ويبارك بكم وبذريتكم.

الملك العادل

يُحكَى أن ملكًا عادلاً من ملوك أيام زمان تحبه الرعية وتحتكم إليه، وهو الذي يدير القضاء في مملكته، فما ظلم أحدًا ولا هضم حقوق أحد من الرعية، كان عادلاً ورعًا، كريمًا، أبواب قصره مشرعة لأبناء شعبه، يجزل لهم العطاء ويحب الخير للجميع، وكانت موائده ممدودة بحيث لا يوجد في مملكته فقراء ومعوزين، ولا ظلمة ولا مظلومين، حصل في زمانه أن اشترى رجل من رجل آخر أرضًا، وعندما حفر الأساس لبناء دار له فيها عثر على كنز مدفون، فمضى مسرعًا للبائع وأخبره بالأمر وقال له:

– وجدت هذا الكنْز في أرضك وهو من حقك.

فقال البائع:

– يا رجل أنا بعتك الأرض وقبضت ثمنها وأصبحت ملكًا لك وكل ما فيها لك؛ لأني بعتك الأرض ولم أعلم ما فيها، فالكنز الذي وجدته لك مبارك عليك.

فاختلفا بينهما، البائع يقول للمشتري هذا الكنْز أصبح ملكًا لك مع الأرض وهذا حقك ونصيبك، والمشتري يقول للبائع أنا لا أطمع في أموال الناس إني أخاف الله وضميري.

وهكذا عرضا الأمر على القاضي الذي هو الملك العادل؛ لإيمانهما أنه سيقضي

بينهما بالحق وسينصفهما، فكر الملك مليًا بالأمر وفرح بهما، وقال لهما:

- هل لكم أولاد أيها الأخيار؟

فقال البائع:

- لي بنت.

وقال المشتري:

- لي ولد.

فقال الملك:

- أنا أحب أن تكون بينكما صلة قربى، وأن توافقان بزواج الولد والبنت، وأن تجهزا عرسهما من هذا الكنْز ليكون في النتيجة لكما ولولديكما ولذريتكما.

فرضيا بحكمة الملك وتراضيا وقبل أحدهما الآخر شاكرين ممنونين من قرار الملك العادل الحكيم.

وهذا الفرق بين حاكم عادل وحاكم ظالم طماع يسلب أموال الناس ويستأثر بها لنفسه وأقربائه وحاشيته وجلاوزته.

عاد بخُفي حنُين

يُحكَى أن حُنين كان يعمل إسكافيًا فجاءه أعرابي يريد تصليح نعليه، ولاحظ الأعرابي أن لدى حُنين خفين للبيع فأراد الأعرابي شرائهما، فطلب عشرة دراهم ولكن الأعرابي دفع ستة دراهم فقط فأبى حُنين أن يبيعه بهذا السعر فاختلفا، وعندما تم تصليح نعلي الأعرابي أراد حُنين ثلاثة دراهم ثمن التصليح فأعطاه الأعرابي درهمًا واحدًا، غضب حُنين وأضمر الشر للأعرابي، فلما ارتحل الأعرابي ودخل الصحراء على راحلته، ذهب حُنين مسرعًا مختفيًا ووضع الخف الأيمن في طريق الأعرابي ووضع الأيسر بعيدًا نوعًا ما ثم كمن فلما مرَّ الأعرابي بالخف الأيمن قال والله ما أشبه هذا الخف بخف حُنين ولو كان الخف الأيسر موجود لأخذهما، فتركه وسار وبعد مسافة وجد الخف الأيسر، نزل عن بعيره وأخذه وترك البعير ورجع مسرعًا ليأتي بالخف الأيمن، فخرج حُنين من مكمنه وأخذ البعير وما عليه وهرب، فلما عاد الأعرابي لم يجد بعيره، فعاد لقومه فقالوا له بماذا عدت! فقال (عدتُ بخفي حُنين)، فذهبت مثلاً (عاد بخُفي حنُين)، وهو مثل يُضرَب عند الرجوع بالشيء الحقير وترك الشيء الثمين.

أم البنات

رجل يحب امرأته حُبًا جمًا، رزقهما الله بخمس بنات، كانت تتمنى أن يرزقهما الله ولدًا فرزقهما بنتًا، فوجدها زوجها مكتئبة مبتئسة مهضومة مكظومة، وقد علا الحزن محياها واسودت الدنيا فى عينيها، وعندما سألها زوجها العاقل عن السبب، قالت:

– إنها السادسة، فقد ولدت بنتًا أخرى يا زوجى العزيز.

فابتسم لزوجته وقال:

– أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وطالبة الأصهار والأولاد الأطهار.

ونظر فى وجهها البشوش وقد رزقه الله على عينها الشيء الكثير والمال الوفير والصحة والعافية فأنشد يقول:

ولو كان النساء مثل هذي	لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب	ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

والله يعرفك البركة فى مطلعها والسعادة بموقعها، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خُلِقت البرية وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد زُيِّنت بالكواكب وحُلِّيت بالنجوم الثاقب، والنفس مؤنثة وهي حياة الإنسان وقوام الأبدان، والحياة مؤنثة وقوامها الماء والنور وقدرة الخالق ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا تحرك الأنام، والجنة مؤنثة وبها وعد

الكاملين بحياة أبدية ثانية دون أمراض أو موت ثانٍ، حياة ملائكية، فهنيئًا لكِ يا زوجتي بهذا العطاء ولله الشكر والرجاء، فالسعد فى مطلعها وكان الخير في حملها والإقبال مع مولودها وكان اليُمن وكانت البركة في مشرقها، وهذه البنت يا زوجتي الغالية عمود البيت الثاني بعد أمها، رحيمة عطوفة حنونة محبوبة.

الغدر والخيانة (١)

يُحكى أن الملك النعمان بن المنذر بنى له قصرًا عظيمًا لا يماثله قصر في أرض العرب، صممه وبناه مهندس ماهر فنان في ذلك الزمان اسمه "سنمار،" وبعد أن أكمل بناءه، عجب الناس من حسنه وبهائه، وأثنى النعمان على المهندس المبدع سنمار غاية الثناء وكافأه، لكن سنمار قال:

– لو كنت أعلم أنكم ستكرمونني كل هذا الكرم لبنيته بناءً يدور مع الشمس حيث دارت.

فقال النعمان:

– وأنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه ؟.

وخاف النعمان أن يبني سنمار لملوك الفرس أحسن من قصره هذا، فأمر أن يُلقَى سنمار من أعلى القصر فمات...

فذهب مثلاً عند العرب: (جزائي كجزاء سنمار).

الغدر والخيانة (٢)

"أم عامر" كنية الضبعة... ويروى أن قومًا خرجوا للصيد، فطاردوا ضبعة حتى ألجأوها لخباء أعرابي، فأجارها وحماها، وأخذ يطعمها ويسقيها ويداريها... وبينما هو نائم ذات يوم بجانب الموقد وهي بجانبه وثبت عليه وبقرت بطنه فقتلته ونهشت لحمه وهربت.

فعاد ولده من الرعى فوجد أباه ملقى فتبعها حتى قتلها، وأنشد:

وَمَنْ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يُلاقِي الَّذِي لاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرِ

أَدَمَ لَهَا حِينَ اسْتَجَارَتْ بِرَحْلِهِ ... لِتَأْمَنَ أَلْبَانَ اللِّقَاحِ الدَّرَائِرِ

فَأَسْمَنَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَكَامَلَتْ ... فَرَتْهُ بِأَنْيَابٍ لَهَا وَأَظَافِرِ

فَقُلْ لِذَوِي الْمَعْرُوفِ هَذَا جَزَاءُ مَنْ ... أَرَادَ يَدَ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ شَاكِرِ

الغدر والخيانة (٣)

حكى أحدهم، قال:

دخلت جزيرة الموصل فإذا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وبقربها جرو ذئب (وشق)، فقالت:

– أتدرى ما هذا؟

فقلت:

– لا.

قالت:

– هذا جرو ذئب أخذناه صغيرًا مغمض العينين وأدخلناه بيتنا وربيناه على حليب هذه الشاة وكأنها أمه، فلما كبر واشتد ساعده، فعل بشاتي كما ترى.

وأنشدت تقول:

بقـرتَ شـويهتي وفجعـتَ قـومي ... وأنـت لشـاتنا ابـنٌ ربيـبٌ

غُـذيتَ بـدرها ونشـأتَ معهـا ... فمَـن أنبـاكَ أن أبـاك ذيـبٌ

إذا كـان الطبـاعُ طِبـاعَ سـوء ... فـلا أدبٌ يفيـدُ ولا أديـبٌ

الملك المعتوه

كان ياما كان فى سالف العصر والزمان أن ملكًا من الكورد فى شمال العراق كان يحكم شعبًا أمينًا صادقًا، وكل الأمور فى البلاد تسير على ما يرام، وفي يوم من الأيام جاء الصدر الأعظم للملك وقال:

– أيها الملك الجليل إن أمرًا جللاً قد حدث فى المملكة.

فاندهش الملك واصفرت ألوانه وقال:

– ما الأمر ياهذا؟ عَجِّل في الكلام.

قال الوزير الأعظم وهو يرتجف خوفًا من المجهول، وهو يتلعثم فى الكلام:

– مولاي لقد تفجر نبع في الجبل، ماؤه سلسبيل وطعمه أحلى من العسل تفوح منه رائحة المسك والعنبر، وشرب الناس، كل الناس مولاي منه.

– طيب أيها الوزير الطيب فما الذي يرهبك إذن؟

– مولاي الملك لقد أصيب الشعب بالجنون لا يقولون ما نقول ولا يفهمون ما نفهم ولا يفقهون ما نفقه ما العمل مولاي؟

فأتكأ الملك على صولجانه وعلت محياه ابتسامة عريضة وقهقه قائلاً:

– أبشر أيها الوزير فإن الخير قادم وسنحكم البلاد بلا مشاكل.

قال الوزير:

– مولاي ما أنا فاعل حسنًا؟

قال الملك:

– ليشرب كل الوزراء وقادة الجيش من هذا النبع، بعدها نقوم أنا وأنت بزيارة لهذا النبع.

– أمرك مولاي.

وبعد أن نفذ الوزير الأوامر ذهب برفقة الملك لزيارة النبع، وهناك استل الملك سيفه وأمر الوزير الأعظم أن يشرب هو الآخر من ماء النبع، وهو يضحك مسترسلاً فى الكلام:

– يا للهول لقد أصيب شعبي بالجنون فلا عقول عندهم ولا يفقهوا ما يفعلون وأنا العاقل الوحيد بينهم أقودهم كما تُقَاد الأغنام.

وأخذ يُمنِّي النفس بأمانٍ كثيرة وآمال كبيرة، فأصدر أمرًا للجيش لم يفهموه واستغربوا من كلامه ولم ينفذوه، فعقد جلسةً لمجلس الوزراء وأخذ يناقشهم بأمور البلاد والعباد فضحك الوزراء لأن الملك يهلوس في الكلام ولا يعرف ما يقول، فجمع الناس وخطب فيهم يدعوهم للطاعة والعمل فضحك الجميع ظنًا منهم أن ملكهم أصابه مس من الجنون، فهو ملك مخبول لا يفهمون ما يقول، بينما جميعهم يفهم بعضهم بعضًا، فأدرك الملك أنه لا يستطيع أن يقود شعبًا مجنونًا؛ لأنه اصبح بنظرهم هو المجنون الوحيد بينهم فاضطر مكرهًا أن يشرب الماء من نفس النبع ليكون مثلهم ويستطيع قيادتهم ويفهمهم ويفهمونه حتى لو كان ملكًا معتوهًا.

هل تعلم؟

إن الضب والخنْزير لا يلقيان شيئًا من أسنانها أبدًا، وإن كل الحيوانات تعوم بطبعها ما عدا الإنسان والقرد، وكل ذي عين فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فله أهداب فى الجهتين.

وإن الحصان لا طحال له، والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ لعظمه، والحيات لا ألسنة لها ولا آذان وأنها تسمع بجسمها، والسمكة لا رئة لها؛ لأنها تتنفس من كبدها.

والعيون التي تضيء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور، ويُقَال القط والكائنات التى تدخر القوت الإنسان، والفأر والغراب والنحل والنمل.

والذي يحيض من المخلوقات الإنسان والفرس والكلب والأرنب والضبع والخفاش، ويُقَال هناك نوع من السمك اسمه الرعاد.

وإن أكبر حيوان هو الحوت الأزرق الذي يبلغ أحيانًا طوله ثلاثون مترًا ووزنه مئة وسبعون طنًا، ومولوده بحجم فرس النهر.

وأكبر حيوان يعيش فى الصحراء القاسية متحملاً حرارتها التى تصل في النهار لغاية ٥٥ مْ وبرودة ليل الصحراء هو الجمل الذى يمتاز جلده ووبره بحمايته من قسوة الصحراء وأخفافه من المشي فوق الرمال، وجفونه الشفافة من غلق عينيه وهو يرى، ويستطيع غلق أنفه عند العواصف الرملية وهو يتنفس كذلك،

يستطيع أكل الأشواك والعاقول لتكيف أسنانه وشفتاه وحلقه لذلك، يستطيع الجمل أن يعيش ثمانية أيام وهو يسير محملاً دون طعام أو شراب؛ لأنه يشرب من الماء ما يعدل ثلث وزنه ويتمكن أن يشرب مئة وثلاثين لترًا مرة واحدة، ولديه مخزون أربعون كيلو غرام من الدهون فى سنامه، ومعدته لها القدرة على هضم الطعام القاسي الذى تجود به الصحراء، سبحان الخالق.

أما الحصان فهل تعلم أنه يعرف طريق العودة مهما بعدت المسافات؟ وأنه يرى القريب والبعيد وما حوله بزاوية كبيرة؟ وأنه يحتمل الوقوف لساعات طويلة دون تعب؟ وله خمسة قلوب، الرئيسي في الجهة اليسرى وأربعة قلوب مساعدة في كل حافر قلب لإكمال الدورة الدموية؟ وأنه لا يمكن أن يرفس صاحبه وله قدرة صدامية فى المعارك والمبارزة؟

والأسود بسهولة يمكن تمييز الذكر عن الأنثى بالنظر إليها، والذكور واجبها الدفاع عن العائلة والإناث واجبها الصيد، ومع هذا الذكور تأكل أولاً ورغم قوتها فعمرها لا يزيد عن أربعة عشر عامًا، وهي من فصيلة القطط وتأكل اللحوم ولها مخالب وأسنان قوية، وهي الحيوانات البرية الوحيدة التى لها حياة اجتماعية منظمة، ولله في خلقه شئون.

قسمة اللّه وقسمة بني آدم

كان أيام زمان أحد أقربائنا متزوج زوجتين وكان يملك بستانًا صغيرًا فيه أشجار رمان وعنب، وفيه عدد من النخلات برحي وبريم وزهدي، وفي الشهر السابع يقص العثوك، يسأل زوجتيه:

- تُرِدنْ قسمة الله أو قسمة بني آدم؟

- نريد قسمة الله طبعًا.

فيعطي واحدة البرحي والبريم المرطب، ويعطي الثانية الزهدي والحشف والشيص فترفضن هذه القسمة:

- نريد قسمة بني آدم.

فيقسم بينهن بالتساوي، ويقول:

- الله يغني إنسانًا حد التخمة ويُفقِر آخر حد الجوع، وإنسان يعمر، وآخر يموت وهو شباب.

مباريات شعرية

اجتمع ثلاثة من فحول الشعراء في العصر الأموي، في مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان، وهم: جرير، والأخطل، والفرزدق، وقال لهم الخليفة:

– هذه جائزة ثمينة لينشد كلٌّ منكم بيتًا من الشعر في مدح نفسه، فأيكم غلب وظفر، فله جائزة.

فأنشد الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربى   وفي القطران للجربى شفاء

ثم أنشد الأخطل فقال:

فإن تك زقَّ زاملةٍ فإني   أنا الطاعون ليس له دواء

وأنشد جرير وقال:

أنا الموت الذي أتى عليكم   فليس لهارب منه نجاءُ

فقال الخليفة:

– لك الجائزة يا جرير، فقد غلبت الأخطل والفرزدق، فلعمري إن الموت يأتي على كل شيء، وهو أقوى الأقوياء

فطنــة قــاضــي

يحكى أن قاضياً فطناً موقد الذكاء عرضت عليه قضية .. ان خمسة من العمال أحدهم سرق مبلغاً من المال من مصنع غزل الصوف الذي يعملون فيه .. وقد أنكر الجميع السرقة .. فاحتار القاضي في أمرهم وليس هناك بينة ولا شهود عند صاحب المصنع .. لكن القاضي أيقن صدق صاحب المصنع في دعواه .. قال القاضي للمتهمين انا ما اضرب أحداً منكم لأَنِّي قاضي احكم بالعدل والقانون .. عندي خيط من الصوف ممدود في قبو مظلم فأدخلوا فليمرَ كل منكم يدهُ عليه من اول الخيط إلى آخرهِ ويضع يدهُ في جيبهِ ويخرج فأن الخيط سيلف على يدِ الذي سرق ..وكان القاضي قد سودَ خيط الصوف بسخامٍ ، فدخلوا فكلهم جرَّ يده على الخيطِ في الظلمةِ إلا واحد منهم .. فلما خرجوا نظر القاضي إلى أيديهم مسودة بفعل السخام إلا واحد منهم ، فألزمه بإعادة المال ، فقرَ وأعترفَ وأعادَ المبلغ لصاحب المصنع واقتنعَ بعقوبةِ القاضي الفطن .

الخصال الثلاث

أول هيئة للمحكمة الموقرة كانت برئاسة الأخ حمودي مطشر، وعضوية رجل قانون غريب مختلف، ورجل دين، الريش أمه، عبد الله الكترفرا نجم، واستمر الأخ حمودي في رئاسة المحكمة وحصلت تغييرات لاحقًا في الأعضاء، وهنا تحضرني (حجاية زغيرونة) أرجو الاستفادة منها:

عندما طلبنا من السيد حمودي إنشاء المحكمة الشرعية المندائية قال:

- أنا لست رجل قانون ولست فقيهًا.

فقلت له:

- ولكن فيك يا أبا هيلين ثلاث خصال تؤهلك للقضاء: أولها لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، والثانية لك حلم، والحلم يمنعك من العجلة ومَن لم يتعجل، فهو قليل الخطأ، والثالثة أنت رجل تشاور الناس في أمورك، ومَن شاور كثر صوابه، وأما القانون والفقه فنظم لك مَن تستعين بهم.

فتولى الرجل القضاء وكانت أحكام المحكمة كلها تدور حول محول السداد والحكمة والحق والعدل، فشكرًا لكل مَن عمل في المحكمة الشرعية المندائية الموقرة وحافظ على كفائتها ونزاهتها.

القشامر

ساقتنا أمريكا ومن لفَّ لفها لحرب ضروس مع إيران استمرت ثماني سنوات أكلت الأخضر واليابس، قبل أن تدور رحى الحرب بدأ العراق بنهضة صناعية ونهضة عمرانية، وكان لديه فائض في الدخل الوطني يزيد عن ستة وسبعين مليار دولار وخزين ضخم من الآليات والمعدات والأجهزة والمواد الاحتياطية الاستراتيجية للمؤسسات الصناعية والإنتاجية، وكذلك للجيش والوزارات الخدمية.

الحرب أكلت كل هذا وخرجنا منها بخسائر جسيمة في الأرواح والاقتصاد، والعراق مدان بحدود مئة وخمسين مليار دولار غير عملية إعادة البناء.

كان الأمريكان خلال مراحل الحرب مرة معنا ومرة علينا، إذا رأونا نحقق تقدمًا في بعض الجهات يزودون الإيرانيين بالمعلومات وبالأسلحة الضرورية، وكل شيء بثمنه عدة أضعاف، والعكس صحيح بحيث تكون الحرب سجالاً، كر وفر إلى أن استنزفوا قدراتنا البشرية والمالية وأوقفوا عجلة التقدم، لم يستفد العراق شيئًا ولا استفادت إيران شيئًا، ولكن المستفيد الوحيد هو مصانع السلاح واقتصاد أمريكا والدول الصناعية.

(راد يطببها عماها)، ثم جرونا للحرب في الكويت لكي نعوض ما خسرناه، أهلنا يقولون لا يلدغ المؤمن من حجرٍ مرتين، لدغنا لدغة سامة قاتلة، انهار كل شيء وتخلفنا في كل المجالات، مرت علينا سنين عجاف أذابت الشحم، وأكلت

اللحم، ودقت العظم، ولم نتعلم الدرس نحن العراقيين، وما زال الحبل على الجرار.

حرب جديدة وأمريكا تعلن أن تكليف هذه الحرب لحد الآن أربعمائة وست وعشرين مليار دولار، أي موارد النفط لخمس سنين قادمة، انتعاش اقتصادي في أمريكا والدول الموردة للسلاح، وأي سلاح، أسلحة منتجة مخزنة لا يستفيدون منها؛ لأنهم أنتجوا أجيالاً متطورة من الأسلحة ولا بد من الخلاص من القديم ليخزنوا بدله المنتج الجديد.

متى نبني بلدنا؟ متى يا ناس نكون مخلصين للعراق؟ متى نتعلم؟ متى نستوعب الدرس؟ وإلى متى نبقى قشامر بامتياز؟

نهضة أمة

تشاهد التنين في بلاد الصين صورًا وتماثيلاً ولعبًا ورسومًا أينما تنظر، هذا التنين غطَّ في سبات عميق قرونًا عديدة فتخلفت الأمة الصينية في كل المجالات بعد أن كانت حضارة متقدمة في العالم القديم، استيقظ هذا التنين وتحرك وحوَّل طاقته الكامنة إلى طاقة حركية جبارة.

والحكاية تبدأ عندما زرت الصين الشعبية في منتصف السبعينيات ضمن وفد هندسي رسمي للاطلاع والمشاهدة لعددٍ من المعامل الصناعية، بلاد قديمة كل شيء فيها قديم، بناياتها، شوارعها، فنادقها، مطاعمها، أسواقها، تبدأ الحياة في السادسة صباحًا حيث الموسيقي تصدح والشعب يمارس الرياضة، في السابعة تمتلئ الشوارع بالدراجات الهوائية السوداء اللون التي لا عدد لها، تحمل الناس إلى المزارع والمصانع، وعند حلول الساعة السابعة والنصف صباحًا تبدو الشوارع خالية، تحس أن هناك منع تجوال، لا تشاهد سيارات إلا ما ندر، وإذا مرت سيارة فهي أكيد لهيئة دبلوماسية، حتى عمال النظافة يعملون في الليل.

يستمر السكون لغاية الساعة الخامسة مساءً حيث تعود الدراجات الهوائية تملأ الشوارع والأزقة، تشاهد الناس بعد السادسة في الأسواق والساحات العامة لفترة وجيزة، ثم يختفون.

نعود للفندق، الساعة العاشرة في وقت انتهاء برامج التلفزيون، كل الشعب يلبس نفس الملابس الزرقاء، ونفس الأحذية السوداء، المهم مرت علينا أيام ثقيلة

قبل عودتنا إلى هونك كونك ثم بانكوك عاصمة تايلاند حيث اللهو والأسواق حتى الصباح، ومرة أخرى عدنا لزيارة الصين في منتصف الثمانينيات، فرأينا العجب، تغيرت الأحوال، فنادق جديدة لا عد لها وأسواق حديثة وشوارع عريضة كثيرة وعدد من السيارات في الشوارع، وآلاف المعامل الإنتاجية، كنا نفرض عليهم ما نريد أصبحوا يفرضون علينا ما يريدون سبحان الله.

المهم عاودنا زيارتهم في منتصف التسعينيات فرأينا العجب العجاب، كل شيء تغير، وكل شيء تطور تكاد لا تصدق أن كل هذا التطور حصل في عشرين سنة فقط، مئات ألوف العمارات، آلاف المولات، مئات ألوف المعامل الصناعية.

الشوارع مكتظة بالسيارات الحديثة من إنتاج الصين، المواد الغذائية والملابس والأجهزة المنزلية تملأ الأسواق، الشعب الصيني الوديع يلبس الملابس الزاهية، ويركب أحدث وسائط النقل المتنوعة والمتوفرة وكلها مجانًا للجميع، المراكز الصحية والمستشفيات المتطورة ومراكز طب الأعشاب المشهورة عالميًا ومراكز طب الوخز بالإبر.

ماذا أقول؟ تقدم في كل المجالات وبسرعة مذهلة وإنجازات خارقة، إنها نهضة أمة، أما الآن فحَدِّث ولا حرج.

لقد صدق الرحالة ابن بطوطة حين قال (ما رأيت أدق ولا أرق من الصينيين)، والسؤال:

متى تنهض أمتنا العربية بعد كل هذا السبات، وكل هذه الحروب وكل هذه التداعيات؟

الكذب أم الكبائر

نبي الله "يهيا يهانا"، خاتم أنبياء الصابئة المندائيين، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة مريم (سلام عليه يوم وُلِد ويوم يموت ويوم يُبعَث حيًا) وقال بحقه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) (كل ابن أنثى وله حساب يوم القيامة إلا يحيى بن زكريا)؛ لأنه لم يرتكب معصية في حياته.

وقال عنه السيد المسيح عليه السلام (لم تلد النساء مَن هو أعظم من يوحنا المعمدان)

كان يعظ المندائيين في أمسيات الليالي، وكتاب دراشة اد يهيا أحسن دليل على حكمته ومواعظه وقصصه الرمزية البليغة المعنى، وفي النهار كان يثبت الدرابشا على تلة ويعمد المندائيين في ضفاف نهر الأردن.

سمعت هذه الحكاية في مضيف أحد المندائيين من أحد الرواة والعهدة على الراوي، كان نبي الله يهيا يهانا يعمد المندائيين في ضفاف نهر الأردن وجاءه رجل مندائي من منطقة حوض البحر الميت، حيث تعيش هناك أقوام متعددة مثل (الاسنيين، اليبوسيين، الكنعانيين، الفلسطينيين، الحسح، الصيداويين، السامريين، وأقوام أخرى مع اليهود والمندائيين).

تقدم رجل مندائي إلى يهيا يهانا وقال:

– يا نبي الله أتعمدني وتقرأ عليَّ الأسماء التى تقرأها على المتعمدين؟

قال:

- بلى يا بني أعمدك.

قال الرجل:

- ولكن بي ثلاث خلات، أكذب وأسرق وأزني، فهل تعمدني؟؟

قال:

- بلى أعمدك يا بني على أن تترك واحدة.

فقال:

- ماذا أترك يا نبي الله؟

قال:

- تترك الكذب يا رجل وتتوب منه توبة رجل نصوح.

قال الرجل:

- أقسم بالحي العظيم وبالكتاب المقدس كنْزاربا وبملواشتى أن أترك الكذب منذ الساعة.

فقال:

- انزل إلى اليردنة لأعمدك.

خرج الرجل من اليردنة وهو في غاية السرور والحبور وذهب إلى داره وهو سعيدًا مزهوًا وقد زالت عنه هموم كثيرة على صدره وارتاح باله وعمر بالإيمان قلبه.

وبعد حين وسوس له الشيطان، فأراد أن يسرق فوجد أن السرقة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالكذب، فعندما تسأله زوجته مثلاً إلى أين أنت ذاهب؟ ماذا يقول؟ وعندما يسأل عن البضاعة المسروقة ماذا يقول؟ وهكذا ترك السرقة، وعندما

أراد أن يزني وجده أيضًا مرتبطًا بالكذب فتركه هو الآخر، وهكذا بتركه الكذب ترك السرقة والزنا وأصبح إنسانًا صالحًا.

ولهذا يعتبر الناس الكذب أم الكبائر.

العفريت

الجاحظ من أدباء العرب المشهورين، ويكفيه كتابه الواسع الانتشار (البخلاء)، سُمِّي الجاحظ لجحوظ في عينيه، كان يعمل وراقًا في سوق الوراقين (سوق الكتب) حيث عمل في مكتبة كبيرة تضم أمهات الكتب والمراجع الثمينة، وكان يعمل ساعتين من الوقت في تنظيم الكتب وترتيبها وباقي الوقت يقضيه في القراءة وهضم الكتب واستقاء المعلومات، وعند وقت الظهيرة يأخد راحة ساعة زمن يتغدى بها، ويجلس على دكة في باب المكتبة يدخن غليونه، وقد عوَّد نفسه على ذلك، جاءت امرأة بارعة الجمال من الأميرات إلى الصائغ الذي يقع محله في سوق الوراقين تسأله أن يصوغ لها خاتم رأسه رأس عفريت، رد عليها الصائغ:

- ولكنني في حياتي لم أرَ عفريتًا يا أميرة، فكيف سأصوغ لكِ هذا الخاتم؟

قالت:

- أمهلني دقائق معدودة.

وذهبت ورأت الجاحظ ما زال جالسًا على عتبة المكتبة فترجته أن يرافقها وألحت عليه فرافقها وجاءت به إلى الصائغ القريب من المكتبة وقالت له:

- مثل هذا، فهمت؟

فأجابها الصائغ:

- فهمت.

وودعته وانصرفت، الجاحظ في حيرة من أمره لم يفهم شيئًا من الأمر، فعاد وسأل الصائغ:

- ما الأمر يا هذا؟

- الأمر ببساطة هذه المرأة طلبت مني أن أصنع لها خاتمًا برأس عفريت، فقلت لها لم أرَ عفريتًا بحياتي فجاءت بك وقالت مثل هذا.

الجسر

شكرًا للدكتور الفاضل فراح على هذه القصة الجميلة، قصة أخوين كانا متحابين كثيرًا، يعيشان في توافق تام في مزرعتهما، يزرعان معًا ويحصدان معًا، كل شيء مشترك بينهما، حتى جاء يوم شب خلاف بينهما، وبدأ سوء التفاهم رويدًا رويدًا حتى اتسعت الهوة واحتد النقاش ثم أتبعه صمت أليم استمر عدة أسابيع حتى اتسعت الهوة بينهما تمامًا، وانقطعت الصلة.

وذات يوم طرق شخص على باب الأخ الأكبر، كان عاملاً ماهرًا يبحث عن عمل، نعم أجابه الأخ الأكبر، وأردف:

- لدي عمل لك، هل ترى الجانب الآخر من النهر؟ يقطن أخي الأصغر، لقد أساء لي وأهانني وانقطعت كل صلة بيننا، سأريه إنني قادر على الانتقام، هل ترى قطع الحجارة التى بجوار المنزل؟ أريدك أن تبني بها سورًا عاليًا؛ لأنني لا أرغب في رؤيته مرة ثانية.

أجابه العامل:

- نعم سأبني لك مايسؤك إن شاء الله.

أعطى الأخ الأكبر للعامل كل الأدوات اللازمة للعمل ثم سافر تاركًا إياه أسبوعًا كاملاً، وعند عودته من المدينة كان العامل قد أنهى البناء، ولكن يا لها من مفاجأة !! فبدل إنشاء سور، بنى جسرًا يجمع بين طرفي النهر.

في تلك اللحظة خرج الأخ الأصغر من منْزله وجرى صوب أخيه قائلاً:

- يا لك من أخ رائع، تبني جسرًا بيننا برغم كل ما بدر مني! إنني حقًا فخور بك.

وبينما الأخوان كانا يحتفلان بالصلح أخذ العامل يجمع أدواته استعدادًا للرحيل، قال له الأخوان بصوت واحد:

- (يوجد هنا عمل لك).

لكنه أجابهما:

- كنت أود البقاء لكن يجب بناء جسور أخرى.

العرفان

قبل ثلاث سنوات استمعت لمحاضرة للعلامة أحمد القبانجي في مدرسة الوجدان، هذا رجل الدين الشيعي له مؤلفات تزيد عن الخمسين كتابًا، ومقالات ومحاضرات كثيرة، ينتمي لمدرسة العرفان، يعني هو أحد العرفاء الذين يؤمنون بالحداثة، بمعنى تفسير الدين وفق منطق العقل، ونقد كل ما يخالف العقل والمنطق العقلاني.

القاعة بسيطة والضيوف من المثقفين، المحاضرة كانت شائقة، والرجل تكلم بكل صراحة ووضوح، من جملة ما قاله لفت انتباهي، قال:

- اشتريت من السوق (وكَفة الغنم) خروفًا من رجل أعرفه، أردته هدية لقريبي الراجع من الحج واشتريت للخروف كيلو شعير، في البيت وضعت الشعير كله أمام الخروف فالتهمه، وبعد ساعات انتفخ الخروف، ونام على جنبه وهو يشخر شخير الموت، حاولت إسعافه دون فائدة، فذهبت مسرعًا إلى السوق معاتبًا الرجل (كيف تقبل وجدانك تبيعني خروفًا مريضًا ونحن معرفة سابقة؟).

- أرجوك لا تظلمني، أنت ماذا اعطيت للخروف من طعام؟

فأجبته:

- كيلو شعير وضعته أمامه فأكله كله.

- لا يا أخي ما يصير المفروض تعطيه قليلاً من الشعير مخلوطًا بكمية كبيرة من التبن حتى يشبع دون أن يضره الشعير المركز بالمواد؛ لأن الشعير يغذيه والتبن

يشبعه.

قال القبانجي:

– هكذا الدين يا حضرات، لو كان الدين كله عقل ينفخ ويموت؛ ولهذا لازم تنخلط الأمور العقلانية بكثير من الغيبيات الروحانية.

الحـذاء

كنت مع عدد من الزملاء المهندسين في زيارة رسمية للصين الشعبية في نهاية السبعينيات، للاطلاع على إمكانات معمل تصليح المحركات النفاثة، كان يرافقنا مترجم صيني في غاية الأدب والالتزام.

ذهبنا إلى أسواق الأصدقاء في بكين للتسوق فقررت أن أشتري حذاءً إلى المترجم أقدمه هدية بسيطة نظير خدماته الممتازة لنا؛ ولأني لاحظت تهرأ حذائه الأسود القديم جدًا، الذي غطى شقوقه الكثيرة بمزيدٍ من الدهان.

أثناء تناولنا وجبة الغداء قلت له: سيد وانغ، تسمح لي أن اقدم هدية بسيطة أرجو أن تقبلها، وأرجو ألا تخجلني.

أطرق وانغ هنيهة وقال: طيب شكرًا ولكني حر التصرف بها.

فأجبته:

– طبعا.

– شكرًا جزيلاً.

بعدها ذهبنا للسوق الشعبي، لاحظ وانغ شابًا صينيًا بيده رقية يريد بيعها وقد لف قدميه بخرقتين من القماش، تقدم وانغ من الشاب وأعطاه الحذاء الجديد، فاستغربت وعاتبته، قال:

– هذا الشاب أولى مني بالحذاء.

قلت مع نفسي ستكون الصين بخير.

الرجل الذي حاول قتل القطار

سعدون رجل حطاب له زوجة وطفل رضيع رزقه به الله، وكل ما يملكونه في هذه الدنيا كوخ من الصفيح والطين، وبقرة وحمار، يقع الكوخ في أطراف المدينة قرب سكة القطار النازل للبصرة والصاعد لبغداد.

يحمل سعدون على الحمار الحطب يوميًا؛ ليبيعه في المدينة بدراهم قليلة، ليشتري بها الطعام لهم، والبرسيم والشعير للبقرة؛ لأن إفطارهم وعشاءهم وحليب ابنهم منها، والباقي حصة الحمار يحطب كل يوم من المزارع والأكمة التى تقع عبر السكة الحديدية.

البقرة ترعى في الأرض الفضاء المجاورة للسكة، وذات يوم عبرت البقرة السكة في لحظة مرور القطار فدهسها فماتت، ولحقت أضرار في وجه القطار، فغرموا سعدون عشرين دينارًا في ذاك الزمان عندما كان الدينار دينارًا، فاضطر الرجل لبيع الحمار خيرًا له من السجن.

سعدون يحمل الحطب على ظهره يوميًا وبكمية قليلة يبيعها في سوق المدينة ببضع دراهم قليلة جدًا لا تسد حاجتهم من غموس وحليب للطفل الرضيع؛ لأن حليب الأم شحيح لا يشبع الطفل، بسبب قلة الزاد.

وهزلَ سعدون وزوجته ومرض الطفل، طلب سعدون من زوجته أن تساعده بنقل كمية من الحطب معه يوميًا إلى السوق ليحصلوا على دريهمات أكثر، فأهملا الكوخ.

القطار يمر يوميًا في ذهابه وإيابه فيهز الكوخ هزًا، وفي ليلة غزيرة المطر مرَّ القطار مسرعًا فهوى الكوخ عليهم وهم نيام، فز سعدون مرعوبًا وقد كسرت ساقه ونهضت الأم وهي تلتمس وليدها فتحسست دمًا ساخنًا يغطي رأسه ووجهه، تحطم الفانوس وساد الظلام الدامس. انتظروا ساعات حرجة، ومع أول خيط ضوء من خيوط الصباح وجدت الأم أن وليدها غارق بدمه وجسمه بارد وقد فارق الحياة، وسعدون يصرخ من شدة الألم.

ماذا هم فاعلون؟ قتل القطار البقرة، وبسببه بيع الحمار، وتهدم الكوخ، وضاع ولدنا الوحيد.

مرضت الأم حزنًا وكمدًا على ابنها، وسعدون لا يقدر أن يوفر الغذاء والدواء، وبعد طول معاناة ماتت الزوجة، حزن سعدون حزنًا عميقًا، ولعن الأقدار، ولعن القطار الذي كان سببًا في كل ما أصابهم من مصائب وقرر أن ينتقم من القطار.

سعدون يبحث بين الأنقاض فوجد فأسه، مسكه بقوة واتكأ على عكاز واستجمع قواه وذهب ليقتل القطار.

توسط السكة مُنظرًا عدوه اللدود القطار، وجاء القدر مسرعًا، فهل يا تُرى قتل سعدون القطار؟

لا تستهن بالآخرين

توقف القطار في إحدى المحطات في مدينة بوسطن الأمريكية وخرج منه زوجان يرتديان ملابس بسيطة.

كانت الزوجة تتشح بثوب من القطن، بينما يرتدي الزوج بزة متواضعة صنعها بيديه، وبخطوات خجلة ووئيدة توجه الزوجان مباشرة إلى مكتب رئيس "جامعة هارفارد" ولم يكونا قد حصلا على موعد مسبق، قالت مديرة مكتب رئيس الجامعة للزوجين القرويين:

- الرئيس مشغول جدًا، ولن يستطيع مقابلتكما قريبًا.

ولكن سرعان ما جاءها رد السيدة الريفية حيث قالت بثقة:

- سوف ننتظره.

وظل الزوجان ينتظران لساعات طويلة أهملتهما خلالها السكرتيرة تمامًا على أمل أن يفقدا الأمل والحماس البادي على وجهيهما وينصرفان، ولكن هيهات، فقد حضر الزوجان _فيما يبدو_ لأمر هام جدًا.

ولكن مع انقضاء الوقت، وإصرار الزوجين، بدأ غضب السكرتيرة يتصاعد، فقررت مقاطعة رئيسها، ورجته أن يقابلهما لبضع دقائق لعلهما يرحلان.

هز الرئيس رأسه غاضبًا وبدت عليه علامات الاستياء، فمَن هم في مركزه لا

يجدون وقتًا لملاقاة ومقابلة إلا علية القوم، فضلاً عن أنه يكره الثياب القطنية الرثة وكل مَن هم في هيئة الفلاحين، لكنه وافق على رؤيتهما لبضع دقائق؛ لكي يضطرا للرحيل.

عندما دخل الزوجان مكتب الرئيس، قالت له السيدة أنه كان لهما ولد درس في "هارفارد" لمدة عام لكنه توفى في حادث، وبما أنه كان سعيدًا خلال الفترة التي قضاها في هذه الجامعة العريقة، فقد قررا تقديم تبرع للجامعة؛ لتخليد اسم ابنهما.

لم يتأثر الرئيس كثيرا لما قالته السيدة، بل رد بخشونة:

– سيدتي، لا يمكننا أن نقيم مبنى ونُخلِّد ذكرى كل مَن درس في "هارفارد" ثم توفى، وإلا تحولت الجامعة إلى غابة من المباني والنصب التذكارية.

وهنا ردت السيدة:

– نحن لا نرغب في وضع تمثال، بل نريد أن نهب مبنى يحمل اسمه لجامعة "هارفارد".

لكن هذا الكلام لم يلقَ أي صدى لدى السيد الرئيس، فرمق بعينين غاضبتين ذلك الثوب القطني والبذلة المتهالكة ورد بسخرية:

– هل لديكما فكرة كم يكلف بناء مثل هذا المبنى؟ لقد كلفتنا مباني الجامعة ما يربو على سبعة ونصف ملايين دولار.

ساد الصمت لبرهة، ظن خلالها الرئيس أن بإمكانه الآن أن يتخلص من الزوجين، وهنا استدارت السيدة وقالت لزوجها:

– سيد ستانفورد، ما دامت هذه هي تكلفة إنشاء جامعة كاملة فلماذا لا ننشئ جامعة جديدة تحمل اسم ابننا؟

فهز الزوج رأسه موافقًا.

غادر الزوجان "ليلند ستانفورد وجين ستانفورد" وسط ذهول الرئيس وخيبته، وسافرا إلى كاليفورنيا حيث أسسا جامعة ستنافورد العريقة التي ما زالت تحمل اسم عائلتهما وتخلد ذكرى ابنهما الذي لم يكن يساوي شيئًا لرئيس جامعة "هارفارد"، وقد حدث هذا عام ١٨٨٤م.

حقًا من المهم دائمًا أن نسمع، وإذا سمعنا أن نفهم ونصغي، وسواءً سمعنا أم لا، فمن المهم ألا نحكم على الناس من مظهرهم وملابسهم ولكنتهم وطريقة كلامهم، ومن المهم أن "لا نقرأ كتابًا أبدًا من عنوانه" حتى لو كان ثمنه عام ١٨٨٤ سبعة ملايين دولار.

قصة حقيقية رواها "مالكوم فوربز" وما زالت أسماء عائلة "ستانفورد" منقوشة في ساحات الجامعة ومبانيها.

الخنفساء

يُحكى أن رجلاً ميسورًا أيام زمان اشترى عباءة صوف سوداء غالية الثمن، كانت موضع اعتزازه وحبه لها، يلبسها في الأعياد والمناسبات المهمة.

وذات يوم احتاجها ليلبسها في العيد فأخرجها من الصندوق وعند إفرادها لاحظ وجود خنفساء سوداء قد عشعشت بها، وبعد جهد جهيد أخرجوا الخنفساء من العباءة ولكنها تركت أثرًا أغضب الرجل فقال:

- ماذا يريد الله من خلق هذه؛ فشكلها قبيح ويخرج منها أقبح ريح؟

وبعد حين ابتلاه الله بقرحة عجز الأطباء عن شفائها أقعدته في البيت وقد أخذ منه الألم ما أخذ لا يستطيع النوم، ناهيك عن صعوبة السير، وجاءوا له أهله برجل بدوي يفهم في الطب الشعبي، وبعد أن رأى القرحة قال:

- أئتوني بخنفساء.

فضحك الحاضرون منه، فتذكر الرجل المريض القول الذي سبق أن قاله (ماذا يريد الله من خلق الخنفساء)، فقال:

- أحضروا الخنفساء للبدوي فإن الرجل على بصيرةٍ من أمره.

فأحضروها له، فأحرقها، ودقها وذرَّ رمادها على القرحة فبرئ المريض، فقال للحاضرين:

- إن الله تعالى أراد أن يعلمني أن أخسَّ المخلوقات قد تكون أعز الأدوية، وما خلق الله شيئًا عبثًا.

القـوي و الضعيف

حدثني الشاب الأنيق عمار ابن الدكتور المعروف عبد الهادي صالح الذي يقيم في لندن عن القوي والضعيف، قال:

- إن الإنكليزي قوي في ثلاث، ونحن العراقيون ضعفاء في ثلاث، الإنكليزي هيأت له الدولة أسباب القوة في جواز سفره ذات القيمة الدبلوماسية المحترمة، وقوي في الباوند الإنكليزي ذي قوة الصرف العالية، وقوي في مراكز البحوث للاختصاصات العلمية، وأنا العراقي خذلتني الدولة العراقية في ثلاث، جواز سفر غير محترم دبلوماسيًا، ودينار سعر الصرف متدنٍ للحضيض، فبعدما كان الدينار يعادل أكثر من باونين أصبح بقدرة قادر الباوند الواحد يعادل أكثر من ١٤٠٠ دينار، سبحان مغير الأحوال، أما مراكز البحوث فحَدِّث ولا حرج، والمشكلة هذه تُسمَّى دولة، وهذه تُسمَّى دولة (عرب وين وطنبورة وين)، والله يستر من الجايات.

الرؤيــة

زرت متحف اللوفر في باريس، ولاحظت أن عيون التماثيل الإغريقية مثقوبة البؤبؤ، ومعنى هذا أن الإنسان له عين داخلية يرى بها ما في داخله فأصبح فنانًا، وعن طريق الرؤية إلى خارجه أصبح عالمًا، والإنسان محاط بجدار، دائمًا أمامه جدار يحدد الرؤية عليه أن يحطم هذا الجدار، أو أن يجعل فيه ثقبًا ليرى أعمق، وبواسطة الرؤية أمكن ثقب جدار العالم الخارجي، ومن هنا بدأت معرفة الحضارة الإنسانية؛ لأن المعرفة معناها أن ترى، ولتعميق المعرفة عليك أن ترى أعمق؛ لأن الإنسان يرى غيره ويرى نفسه، ولا نملك وسيلة لمعرفة الكون حولنا أو في داخلنا إلا بواسطة رؤية الإنسان نفسه.

وأن الفرق بين الإنسان والحيوان، أن الإنسان يرى والحيوان ينظر؛ ولهذا تمكن الإنسان عن طريق الرؤية من التحكم بالحيوان وفي الإنسان أيضًا.

والإنسان تطور بعقله وأصابعه وسهولة حركة السلاميات بكل اتجاه وبدقة، فصنعت له عالمه العلمي بينما عجز منقار الطير وحافر الحيوان عن ذلك حتى أصابع القردة رغم طولها لا تجاري أصابع الإنسان؛ بسبب محدودية حركة السلاميات، الإنسان يحرك أصابعه بنور عينه، فلا علم بغير معرفة، ولا معرفة بغير رؤية ولا رؤية بغير عين ثاقبة تحاكي الكون الخارجي والكون الداخلي، وقد يُسلَب النظر ولكن لا تُسلَب الرؤية، فهناك من العلماء والفلاسفة والأدباء فقدوا بصرهم أمثال طه حسين وأبو علاء المعري وبشار بن برد وغيرهم ولكنهم

لم يفقدوا الرؤية، بمعنى فقدوا البصر ولم يفقدوا البصيرة.
إنهم يرون الأشياء بعيون القلب (أكو أعمى عيون وأكو أعمى قلب)، ونسأل الله أن يمن علينا بالرؤية العميقة لأنفسنا وما حولنا لنوحد كلمتنا ونحفظ أجيالنا وديننا.

العلـم والـمـال

سُئل حكيم ما الأفضل العلم، أم المال؟ فقال:

- العلم يحرسك، وأنت تحرس المال

العلم لا ينقص بالبذل والعطاء، والمال ينقص

وصاحب العلم لا يموت، فذكره باقٍ، وصاحب المال يموت

وصاحب المال يُسئل عن كل دينار اكتسبه، وأين أنفقه

وصاحب العلم كلما زاد علمهُ ذاع صيته، ومثواه عالم الأنوار؛ لأن خير الناس مَن نفع الناس.

والعلم ميراث الأنبياء والعلماء، والمال ميراث المقترين والبخلاء

وقال شاعر في بخلاء المال:

والله والله مرتين لحفر بئر بإبرتين
وكنسُ مصر بريشتين وغسل عبدين أسودين
حتى يُحوَّلا لأبيضين وحملُ ثورين باليدين
ونزع طودين راسيين ونقل بحرين زاخرين
على صعيد بمنخلين ولا وقوفي لحظتين
على باب بخيل يضيع منه ماء العين

وقال حكيم:

بخيل العلم ألعن من بخيل المال؛ لأن بخيل العلم عندما يموت يأخذ علمه معه، أما بخيل المال فيتركه لغيره يتمتع فيه.

لغة الأنا

هناك مَن يُكثر من استعمال لغة الأنا فيقول "أنا... أنا... أنا...".

رؤساء الدول وقادة ورؤساء جمعيات، ومجالس شعراء ويتكلمون باسم الشعب، أو باسم الهيئة العامة، وهناك مَن يألهون أنفسهم وكأن الله ما خلق غيرهم، ويتمسكون بالكرسي ويقربون مَن يواليهم وينفذ أوامرهم وبلاويهم، فتكثر أخطاؤهم وتتعقد مشاكلهم، وبعد حين يلفظون لفظ النواة من التمرة، والشواهد كثيرة ومثيرة، ولكن الذي يهمنا في هذه الحياة (الحجاية الزغيرونة) اليوم الشعراء.

لقد اعتدنا أن نقرأ للشعراء وهم يقولون "أنا خلقت... أنا نظمت الكون... لولاي ما كانت الشمس والقمر... أنا..أنا.. أنا" لتحتوي كلمة "أنا" الكون من أوله لأخره!

فكثير من الشعراء ألّهوا أنفسهم وادَّعوا النبوة والعظمة، فهذا الفردوسي صاحب ملحمة الملوك في ستين ألف بيت من الشعر والذي يقول:

أن الشعراء ملوك يرقصون أثناء النوم، والملوك ينامون أثناء رقص الشعراء!

وكثير من الشعراء لديهم إحساس أنهم ملهمون ينْزل عليهم الوحي، وأن شعرهم نوع من الفيض الإلهي مثل الأنبياء، وهكذا كان يفكر شاعرنا المفلق المتنبي، أنه أعظم الشعراء لا بل أعظم خلق الله، فيقول:

أي محـــل أرتقي؟ أي عظيـــم أتقي

وكل ما خلق الله وما لـــم يخلـــقِ

محتقرٌ في همتـــي كشعرة في مفرقي

وهو القائل:

أنا مَن نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صممُ

وكذلك الشاعر الفيلسوف الجهبذ المعري، فلغة الأنا عنده عالية أيضًا، إذ يقول:

كلب عوى بمعرة النعمان لما خلا عن ربقة الإيمان

أمعرة النعمان ما أنجبت إذ أخرجت منك معرة العميان

وهو القائل:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

فسأله غلام:

– هل لك أن تزيد حروف الهجاء حرفًا؟

فقال:

– لا.

(أي جمع الألف واللام)، ثم أردف قائلاً للغلام:

– ستموت من شدة ذكائك وتوقد ذهنك.

ولم يعرف الأدب العربي تعيسين أعظم من شعرائنا المتنبي وأعظم مفكرينا أبو حيان التوحيدي، فكانا في غاية الغرور والزهو، وأنهم أعظم من كل شيء، فقد وصف التوحيدي كل مَن سبقوه لم يفعلوا شيئًا بينما هو يستطيع، وكذلك

المتنبي، ولكنهما كانا بحاجة إلى الجاه والمال؛ ولذلك عندما سألوا المتنبي عن معجزته الشعرية قال:

ومن نكد الدنيا على الحر   أن يرى عدوًا له ما من صداقته بدُ

ولأن المتنبي يتباهي بنفسه وقدراته فهو قد صدق كل ما قال، وبسبب بيت شعر واحد من أشعاره العظيمة، كان سبب قتله مع ولده البكر من المأجور فاتك الأسدي وكان في نية المتنبي الهروب، لكن خادمه استنكر عليه ذلك، وقال:

- كيف تهرب وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

لقد قُتِل هذا العبقري وهو في قمة العطاء والحكمة، لقد صدق بيت واحد من ألوف أبياته الشعرية الرائعة؛ بسبب لغة الأنا.

مهنة الطب أمانة

استدعى أحد الملوك طبيبًا مشهورًا في زمانه، وكان رأيه أن يكون طبيبه الخاص، ولكنه خاف من أعدائه أن يستغلوا هذا الطبيب بالرشوة والترغيب، فيقتله غيلة، فبادره بالهدايا والتكريم، وقربه منه، وأراد أن يختبر إخلاصه لمهنته، فطلب منه أن يُحضِر سمًا قاتلاً ليقتل به أحد أعدائه دون أن يعلم أحد.

فقال الطبيب:

– مولاي الملك، إني تعلمت من الطب ما طاب وما نفع، ولا علم لي بغير ذلك.

فخيرَّه الملك بين أمرين، إما مكافأة سخية، وإما السجن، فأبى الطبيب ذلك وقال للملك: إني أُفضِّل السجن ولا أخون مهنتي وأحنث بقسمي وشرفي.

ابتسم الملك وقال للطبيب:

– هدئ من روعك واطمئن، فقد جعلتك طبيبي الخاص، وأنا واثق بإخلاصك لمهنتك النبيلة، ولكن بربك أصدقني القول ما الذي جعلك ترفض عرضي عليك؟

فأجاب الطبيب:

– مولاي، أولها، خوفي من الله أن ألحق ضررًا بأحد ولو كان عدوي، ثانيها، قسمي وشرفي وصناعتي، فلها عليَّ من الواجب المقدس أن أفعل الخير وأشفي الناس، وأن لا أسبب ضررًا لكائن مَن يكون.

فكافأه الملك وجعله من جلسائه ومستشاريه المقربين، وأنعم عليه بالعطايا.

الجار قبل الدار

كنا في بلدنا العراق نولي أهمية بالغة للجار الذي يفرح لأفراحك ويحزن لأتراحك، أهل بغداد عندما لا يسمعون ضجيج سوق الصفافير في الأيام العادية فهذا يعني إما أحدهم تزوج وإما أن أحدهم مات، وكذلك الحال في سوق الصاغة، وسوق القماشين وغيرها.

وأذكر في البصرة عندما يكون فرح في بيت تفرح المحلة كلها معهم وتنهال الهدايا عليهم، وأهل البيت لا يطبخون، ولا ينفخون؛ لأن الجيران يتكفلون ويفتحون بيوتهم للضيوف وهم فرحون.

تغير الحال في السنين العجاف الأخيرة، سنين النهب والقتل والسلب والتهجير والتفجير، وهنا في السويد تسكن في عمارة بجانبك جيران وفوقك وتحتك جيران، ولكن لا تعرفهم ولا يعرفونك، ولا تسألهم ولا يسألونك.

بينما فيما مضى من الزمن كان للجار ثمن، إذ يُحكَى أن رجلاً عرض بيته للبيع بألف دينار لحاجته الماسَّة عندما كان الدينار دينارًا، فلما حضر مَن يشتريه قال:

- وجاري بألف دينار.

فاستغرب المشتري، وقال:

- هل يُباع الجوار؟

فقال:

- وكيف لا يُبَاع وجاري رجل ميسور، رزقه الله من أوسع أبوابه، إن سألته

أعطاك، وإن سكتَّ عنهُ ابتدأك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن غبت عنه حفظك، وإن أصابتك مصيبة فرَّج عنك.

فسمع جاره الميسور ذلك الحديث فدفع له ألفي دينار وقال:

- ابقَ بدارك؛ فأنت والله نعم الجار العزيز.

الأب الحكيم

البنت تشكو لأبيها مشاكلها مع زوجها ومعاناها وتطلب المساعدة، الأب يقول لابنته:

– أنتِ قادرة يا ابنتي على حل مشاكلك بنفسكِ باستخدام عقلكِ، وسأضرب لكِ مثلاً؛ ليساعدك فى اختيار الحل الصحيح.

فأتى برأس جزر، وبيضة، وكوبًا فيه ملعقة قهوة، وقال لها:

– اغلي ماءً واسلقي رأس الجزر والبيضة، واسكبي ماءً حارًا في كوب القهوة، ولنرى ماذا سيحصل.

لاحظي يا ابنتي العزيزة أن رأس الجزر كان صلبا نوعًا ما، فأصبح هشًا طريًا، والبيضة قد جمد السائل الزلالي داخلها، فأصبح صلبًا متماسكًا، أما القهوة فقد غيَّرت لون الماء، وأعطت نكهة ومذاقًا مستحبًا.

إن الجزر والبيضة والقهوة تعرضت لنفس التأثيرات، وهو الماء الحار، وكل واحدة تعاملت مع المشكلة وفق مكوناها، فالجزر لانت، ولا أريدكِ أن تكوني لينة فيسهل عصركِ، والبيضة تصلبت، ولا أريدكِ متصلبة فيسهل كسركِ، أما القهوة فغيَّرت لون الماء المغلي وطعمه ورائحته، وجعلته طيب المذاق والطعم والرائحة مرغوبًا مفيدًا محبوبًا، هكذا أريدكِ يا ابنتي العزيزة مع زوجكِ ليحبك ويحترمك ويحتاج إليك، عليكِ أن تكوني مثل فنجان القهوة المهيل، رائحة زكية، وذوق راقٍ، وطعم محبوب، فأنتِ القهوة يا بنيتي وبيتكِ السعيد هو الفنجان،

وزوجكِ إن صحَّ التعبير هو الماء الحار، وحالما سيشرب القهوة ويستلذ بطعمها وذوقها ويشم رائحتها سيحبكِ أكثر ويشتاق إليكِ باستمرار، وهكذا تُحَل المشاكل بالعقل والتدبير.

القاضي الذكي

يُحكَى أن رجلاً مسافرًا لفترة طويلة، أودع حلاله عند تاجر يعرفه ويثق به، وعندما عاد من السفر ذهب للتاجر ليسترد حلاله فأنكره عليه، فذهب للقاضي يشكوه، سأله القاضي:

– هل عندك بينة، أو شهود؟

قال:

– كلا.

– هل علِمَ خصمك هذا أنك جئتني؟

– كلا يا سيدي القاضي.

– طيب، اذهب الآن وعُدْ بعد يومين.

بعث القاضي إلى التاجر وقال له:

– إني علمت أمانتك وصدقك، وأنا عندي ودائع كثيرة للناس وأموال تراكمت للأيتام، وإني مزمع على سفر بعيد، وأحب أئتمنك على هذه الأموال.

فقال التاجر:

– حبًا وكرامةً.

فقال له القاضي:

– اذهب وهيئ المكان، وتعالَ بعد ثلاثة أيام مع الحمالين لحمل الحلال.

بعد يومين جاء صاحب الوديعة، فقال له القاضي:

- اذهب الآن للتاجر وقل له أرجع لي مالي وإلا شكوتك للقاضي.

فاعتذر الرجل منه وقبَّله ورد له ماله بزيادة ودون نقصان، وطلب منه أن يسامحه على النسيان، أخذ الرجل ماله من التاجر، وأتى إلى القاضي وأخبره بما جرى، شاكرًا فضله.

في اليوم التالي أتى التاجر مع الحمالين؛ لاستلام الودائع التى ذكرها له القاضي، فقال القاضي:

- يا هذا لقد أجلت سفري إلى إشعار آخر، اذهب لا بارك الله فيك.

الفرق بين عبارة وعبارة

أدب المكاتبات وأدب الحديث مهم في المجتمعات الراقية، ونحن المندائيون بحكم كوننا من المجتمعات المثقفة المسالمة طيبة الحديث والمعشر، وعلينا أن نهتم بهذا الجانب ونعطيه حقه، فعيب علينا أن يسفه أحدنا الآخر، أو أن يسمعه كلمة جارحة تخدش المشاعر، ومن الضروري أن يختار الإنسان كلماته بعناية ويزنها قبل أن ينطقها، وقال أحد الحكماء (ليت لي عنق كعنق البعير)، وقيل (الإنسان بأصغريه، لسانه، وجنانه)، وقيل أيضًا (لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك)، واللسان وضعه خالقنا خلف حاجزي الأسنان والشفتين ومع هذا ينفلت أحيانًا من عقاله ويسبب الأذى للغير، وهناك فرق بين عبارة وعبارة.

يُحكَى أن هارون الرشيد رأى رؤيا في المنام أن جميع أسنانه سقطت في فمه، فقلق وجافاه النوم، ومع تباشير الصباح طلب مفسرًا للأحلام يُسمَّى معبرًا للرؤيا وسأله عن تفسير ذلك، فقال:

- مولاي، أطال الله بقاءك إن جميع أقربائك يموتون قبلك بحيث لا يبقر أحد بعدك.

فغضب هارون الرشيد وأربدت سيماه، وقال للمفسر:

- لعنة الله عليك تواجهني بهذا الكلام المؤلم في أول الصباح، يا هذا إذا مات جميع أقربائي كما تقول فمع مَن أكون؟! قبحك الله وقبح حديثك وتفسيرك.

وأمر بجلده عشرين عصا، وطلب مفسرًا آخر وقص عليه الرؤيا، فقال:

- يا مولاي، أطال الله عمرك إن حياتك ستكون أطول من حياة أقربائك جميعًا.

فقال هارون الرشيد:

- رغم أن التفسيرين في طريق واحد ولكن بين العبارة والعبارة فرق كبير.

وأعطاه مئة دينار؛ لحُسن حديثه وأسلوبه المهذب المؤدب.

هذا مثل هذا

رجل سكير مقصر فى حق زوجته وأطفاله، عندما يتمادى فى الشراب يتحول إلى إنسان مؤذي، يعتدي على زوجته وأولاده، وعلى الجيران.

ذات يوم شرب حتى الثمالة فضرب زوجته ضربًا مبرحًا حتى شَجَّ رأسها، تدخل الجيران وتدخلت الشرطة وأُحيل للمحكمة، القاضي يسأل الرجل السكير:

– لماذا ضربت زوجتك؟

– مولاي، كنت في حالة سُكر شديد.

القاضي:

– أما علمت يا هذا أن الخمرة حرام ومؤذية للإنسان؟

– مولاي، هل شرب الماء مؤذٍ؟

القاضي:

– لا.

– وهل أكل العنب مؤذٍ؟

القاضي:

– لا.

– إذن ما جريمتي؟ كل ما فعلته أنني خلطت الماء مع العنب وتركته ليتخمر وشربته.

القاضي:

– طيب يا هذا لو رميت عليك شيئًا من التراب هل يسبب لك الأذى؟

السكير:

– لا يا سيدي.

– ولو سكبت عليك قليلاً من الماء هل هذا يؤذيك؟

السكير:

– لا.

القاضي:

– طيب لو خلطنا التراب بالماء وجعلناه طينًا وجففناه في الشمس، وضربت رأسك فيه فهل هذا يؤذيك؟

– نعم مولاي يؤذيني؛ لأنه يكسر رأسي.

القاضي:

– يا هذا، هذا مثل هذا.

وفاء صديق

يُحكَى أن صائغًا ثريًا خبيرًا بالأنتيكات والأحجار الكريمة، ولده الوحيد اسمه محسن يعمل معه.

محسن له مجموعة من الأصدقاء يحبهم ويحبونه ويحترمهم ويحترمونه؛ ولأنه أيسر حالاً منهم فهو يصرف عليهم مما يعطيه له أبوه عن طيب خاطر، لطيف من أقرب أصدقاء محسن وأكثرهم محبة لنفسه.

محسن يعطي صديقه لطيف مبلغًا من المال ويُعلِّمه أساليب التجارة ودروبها ويُعرِّفه على التجار أصدقاء أبيه ويكفله عندهم وهو يعرف حق المعرفة أن صديقه لطيف شاطر، ومتأكد من نجاحه وتطوره.

ودارت الأيام دورتها ويتقدم العمر بوالد محسن فيهرم ويلازم الفراش مدة طويلة، ومحسن يعتني بأبيه ويترك المحل بيد العمال.

يموت الوالد، ولم يجد محسن شيئًا في المحل غير الديون فيضطر لبيع المحل والبيت وذهب أمه والأثاث، تمر على محسن أيام عجاف لا يجد فيها ما يسد رمقه، يسأل عن صديقه لطيف الذي انقطع عنه أيام مرض والده؛ لانشغاله بالسفر بين بومباي والبصرة للتجارة، فعلم أنه في أحسن الأحوال، تاجر كبير من تُجَّار البصرة المشهورين وهو من أصحاب القصور والسفن الكبيرة الحجم الكثيرة العدد، فشدَّ الرحال إلى البصرة وقصد قصر صديقه ليساعده ويقف بجانبه، وقصَّ على الحُراس العلاقة الحميمة بينه وبين التاجر الكبير لطيف.

طلب محسن من الحرس أن يخبروا لطيف أن صديقه الحميم محسن محبوب الحلي أمام الباب يود زيارته.

أخبر الحراس لطيف أن صديقه محسن يود رؤيته، نظر لطيف من البلكونة بعد أن سمع صديقه فرأى إنسانًا رث الثياب، متعبًا، آثار الفقر واضحة المعالم عليه، فلم يرضَ بلقائه، وأخبر الحرس أن يطردوه ويقولوا له أن التاجر لطيف لا يرغب باستقباله.

فخرج الرجل والدهشة تأخذ منه مأخذها وهو يتألم على الصداقة كيف ماتت وعلى القيم كيف تذهب بصاحبها بعيدًا عن الوفاء.

وتساءل عن الضمير كيف يمكن أن يموت وكيف للمروءة أن لا تجد سبيلها في نفوس البعض!

تألم محسن وجر حسرة عميقة ونزلت دموع ساخنة على خديه كونها وأثارت فيه ذكريات الماضي أيام العز وكيف أن أخلاقه ومروءته دفعته أن يساعد صديقه لطيف، واليوم كيف يرفض صديقه الحميم حتى مقابلته، يا له من نكران جميل ويا له من جحود!

لملم نفسه وعض على شفتيه وخرج من حديقة الدار والألم يعصر قلبه ولا يعرف كيف سيعود إلى بغداد وهو لا يملك شيئًا يُذكَر.

يسير الهوينا، ويكلم نفسه، التقى به ثلاثة رجال تبدو عليهم علامات الحيرة والسؤال وكأنهم يبحثون عن شيء، والتقوا معه وجهًا لوجه وسألوه:

– هل تعرف أيها الغريب التاجر محسن ابن التاجر الكبير محبوب الحلي؟

– قال: نعم، أنا، ومَن دلكم على طريقي؟

قالوا: سألنا عن أبيك فى بغداد فقالوا رحمه الله، وولده الوحيد محسن ذهب لزيارة صديقه التاجر لطيف فى البصرة، فعدنا وسألنا حرس القصر فقالوا اتبعوه فهو فى الطريق إلى كراج بغداد، وهكذا بين الشك واليقين ووصف الحراس وجدناك.

اندهش محسن وقال لهم:

– ما الأمر؟ إنكم خوفتموني.

– لا تخف يا ابن الأصول، إن أباك الطيب الكريم رحمه الله كانت له عندنا أمانة قديمة من الماس واللؤلؤ والزمرد والمرجان النادر الثمين، وأصبحت الأمانة الآن من حقك، فتفضل خذها وأبرئنا الذمة.

وسلموه كيسًا وقالوا له:

– هذا حلالك يا محسن.

سار محسن وهو في دهشة من أمره، وفي الكراج التقى بامرأة من وجهاء البصرة سألته:

– يا بني، أين أجد مجوهرات ثمينة للبيع فى بلدتكم؟

فتسمر الرجل في مكانه ليسألها عن أي نوع من المجوهرات تبحث؟ فقالت:

– أي أحجار كريمة رائعة الشكل ومهما كان ثمنها.

فسألها إن كان يعجبها المرجان أو الماس أو اللؤلؤ والزمرد؟ فقالت له لنبدأ بالمرجان أولاً.

أخرج بضع قطع من الكيس فاندهشت المرأة لما رأت فاشترت منه قطعًا كثيرة وأعطته مالاً وفيرًا، ووعدته بأن تعود لتشتري منه المزيد، وهكذا عاد الحال إلى يسرٍ بعد عسرٍ وعاد إلى بغداد فاشترى محل والده وبيته، وبدأت تجارته تنشط

بشكل كبير وأصبح من التجار المشهورين كما كان أبوه وأكثر، وبعد حين من الزمان تذكر صديقه لطيف الذي ما أدى حق الصداقة ناكر الجميل والوفاء، فبعث له ببيتين من الشعر مع المرأة العجوز التي أخذت تتردد عليه لتشتري منه الماس واللؤلؤ والزمرد:

صحبت قومًا لئامًا لا وفاء لهم   يدعون بين الورى بالمكر والحيل

كانوا يجلونني مذ كنت رب غنى   وحين أفلستُ عدوني من الجهل

فلما قرأ لطيف هذه الأبيات كتب على ظهر الورقة هذه الأبيات وبعث بها إلى صديقه محسن:

أما الثلاثة قد وافوك من قبلي   لم تكن سببًا إلا من الحيل

أما مَن ابتاعت المرجان والدي   وأنت أخي بل منتهى أملي

وما طردناك من بخلٍ ومن قللٍ   لكن عليك خفنا وقفة الخجلِ

وهكذا غفر محسن لصديقه لطيف والتقى الصديقان الحميمان وتعانقا وبكى أحدهما على كتف الآخر، وأم لطيف تسمع نحيبهما، وتطيب خواطرهما:

– كفى يا أولادي أنتم من اليوم أخوة حلالكم واحد وشركاء في كل شيء، وإني يا ولدي محسن زوَّجتك ابنتي الجميلة الفاتنة حوراء التي أحبتك من حديثنا عنك وعن كرمك وأخلاقك، وأن كل هذا الخير والنعمة التي نحن بها من أفضالك يا ابن الأصول والحسب والنسب يا ابن التاجر الكبير محبوب الحلي الذي زرع بك بذرة الحب والخير والوفاء.

وعاشوا عيشة سعيدة.

طمعه قتله

سعد ورعد وحامد ثلاثة لصوص محترفون، اتفقوا وقرروا سرقة حلال امرأة عجوز تعمل مولدة (قابلة) منذ شبابها وليس عندها ولد ولا تلد، وصلوا لدارها الكبير الذي تحيطه حديقة غناء وسط المدينة، وطرقوا الباب بعد أن لبس الحرامي سعد ملابس النساء بحجة أن أختها داهمها المخاض، فتحت القابلة العجوز لهم باب الدار، فداهموها وكتفوها وضربوها ضربًا مبرحًا فاعترفت لهم تحت قسوة التعذيب بمكان الحلال الذي خبأته كل هذه السنين، اندهشوا من كثرة الذهب والنقود، خنقوا القابلة المسكينة وحملوها إلى ركن من الحديقة ودفنوها مع أدوات الجريمة.

جلسوا ليتقاسموا الحلال ولكنهم شعروا بالجوع فأخذ حامد مبلغًا من المال ليشتري لهم عشاءً من التكة والكباب وما لذَّ وطاب، ثم اشترى سمًا قاتلاً وسمم الطعام ليقتل صديقيه سعد ورعد؛ طمعًا بكامل الحلال.

بنفس الوقت فكر سعد ورعد بالتخلص من صديقهما حامد عند عودته جالبًا لهم العشاء المشؤوم، وقالا لنفسهما الحلال على اثنين أفضل من أن نُقسِّمه على ثلاثة، فكمَّنا له وحال دخوله الدار طعناه طعنة نجلاء قتلته في الحال ودفناه بجانب المسكينة العجوز.

قال أحدهما:

– لنغسل أيدينا ونأكل عشاءنا ثم نُقسِّم الحلال بيننا.

أكلا العشاء المسموم وماتا شرَّ ميتة.

مات الحرامية الثلاثة؛ بسبب طمعهم وجشعهم وجريمتهم بحق القابلة التي أرادت مساعدتهم، وهكذا قيل (طَمَعهُ قتَلهُ).

ألحس مسني وأنا متهني

اثنان من الجرذان أصدقاء، يلتقيان كلَّ يوم يتجاذبان أطراف الحديث.

نحنوح يعيش في محل بقالة فيه ما لذ وطاب من العسل والدبس والدهن والحلويات وأنواع الحبوب والبقول وكل ما يحتاجه البيت، سحسوح يعيش في محل حلاق رجال يقع مقابل محل البقال.

لاحظ سحسوح أن صديقه نحنوح ينقص وزنه يوم بعد يوم فسأله باستغراب:

- مالك يا نحنوح؟ أشوفك ضعفان وأنت عايش في وسط الخير ما بالك يا أخي؟ أنت ليش ما تأكل من كل هذا الخير؟

قال:

- يا خير يا بطيخ، صاحب المحل زارع المحل أنواع المصائد ومربي هرًّ أسود طول الليل يفتر بالمحل، أنا يا أخي عايش مرعوب، الخير كثير والخوف والقلق مذوبني، لا ليلي ليل، ولا نهاري نهار، ولكن قلي يا سحسوح أنت ماذا تأكل وماذا تشرب في محل الحلاق؟

- أنا يا صديقي طول النهار نائم، وفي الليل أخرج أتجول في المحل أغني وأرقص على كيفي، وألحس الزيت الذي يدهن به الحلاق المسن الذي يسن به أمواسه، بدون خوف ولا قلق، يعني أنا ألحس مسني وأنا متهني.

أين عقلك؟

يُحكَى أن أميرة بارعة الجمال تميل وتميل وتغذي القلب خاشعًا وذليلاً، تتجول مع خادمتها عفراء في سوق القماش في بغداد أيام الرشيد، لاحظت بدويًا مفتول العضلات، طويل القامة، واسع العينين، تعلو محياه ابتسامة لا تفارقه أبدًا برفقة ولده الصبي اليافع، أعجبت الأميرة به غاية الإعجاب وتمنته لنفسها، أمرت عفراء أن تقنعه بمرافقتها للقصر وبأي ثمن.

وقعت عفراء بتلابيب البدوي وألحت عليه أن يرافقها لقصر الأميرة التي تنتظره على أحر من الجمر، فقال لها:

– يا بنت الناس أنا رجل بدوي أعيش في الصحراء، جئنا أنا وولدي هذا لنبيع ما نملك من زيت ونشتري بثمنه شاي وسكر وخامًا وطعامًا، وأهلنا وجِمالنا ينتظرون بأطراف المدينة.

فقالت عفراء:

– يا أخا العرب أتوسل إليك أن لا تخذلني، وتعالَ معي ساعة من الزمن والقرار لك والله.

أطرق الرجل هنيهة وقال:

– على بركة الله.

وأمر ولده أن يعود حيث حطوا رحالهم وينتظرون حتى مغيب الشمس، فإن عاد خير وبركة، وإن لم يعد يرجعون لديارهم.

وصلت عفراء والبدوي قصر الأميرة الباذخ، وشاهد البدوي الحدائق الغناء، وسمع خرير الماء وتغريد البلابل، وشم رائحة الورد الفواح، وقابل الأميرة في الرواق فانبهر بجمالها ورشاقتها وطولها الفارع وحسن معانيها فكاد يسقط مغشيًا عليه لولا عفراء التي أسندته، وبعد أن صحا الرجل، قالت له الأميرة دون مقدمات:

- تقبل الزواج مني؟ وهذه أنا وهذا قصري وكل الذي تراه خدمي وحشمي ولي سبعة قصور مثل هذا القصر وسبعة بساتين عامرة ومن الحلال الشيء الكثير.

فكر البدوي وقال في قرار نفسه إنها الجنة فماذا تريد يا رجل؟ حلال ومال وجمال، وافق البدوي وقال:

- ما هي شروطك يا امرأة.

قالت:

- بعد الدخلة عندي سؤال واحد وأريد جوابًا دقيقًا له.

قال:

- أنا موافق.

وهكذا كان وفي الصباحية، كان السؤال:

- يا رجل قل لي أين عقلك؟

احتار الرجل بالجواب وقال:

- أمهليني وقتًا كافيًا لأجد عقلي.

قرر البدوي الرحيل ليبحث عن عقله، اشترت له الأميرة حصانًا وحسامًا

وهندامًا، وأعطته مالاً وودعته باحترام وتمنت له الخير، ساح الرجل في بلاد الله الواسعة ينتقل من مكان إلى مكان يبحث عن عقله ويسأل أهل العقل والحكمة فلا جواب.

وهكذا مرت السنين وهو يجوب أرض الله كأنه موكل أن يضرعها، وبعد عشرين عامًا مضت، وفي إحدى الليالي الممطرة والريح تعصف والبرق يتبعه الرعد، دخل في زقاق ضيق مغلق، ورأى رجلاً يرعد ويزبد وفي يمينه سيفه يريد اقتحام باب جاره، وحالما وصل الباب صاح بأعلى صوته، العقل بالصبر والصبر مفتاح الفرج.

الشكر لله لقد وجد عقله، نزل من صهوة جواده وتعرف بالرجل وهدأ من روعه ودخلا الدار، وبعد أن هدأ الرجل قص على البدوي مصابه، قال:

– هذه زوجتي وهذا جاري صديق عمري وشريكي بالتجارة ائتمنته على زوجتي وعيالي وسافرت في تجارتنا، أعود فأجد زوجتي مصخمة ملطمة وقد ضربها ضربًا مبرحًا؛ لأنها منعته عن نفسها، أقبل هذا يا رجل؟

قال البدوي:

– لا والله، ولكن لتستخدم العقل وتسأل، وأنت تقول أن صديقك شريف وموضع ثقة.

عقد التاجر المجروح اجتماعًا ضمَّ صديقه وجيرانه المقربين واتضحت الحقيقة المُرَّة، وهي أن زوجته هي المذنبة الحقيقية وهي التي راودت صديقه عن نفسها؛ ولأن صديقه شريف ابن أشراف لا يمكن أن يخون صديقه لقَّنها دروسًا في الأخلاق، قال لها أعطيني تمرة، ووضعها على أرض الغرفة فحطت عليها ذبابة

تلتها ثانية وثالثة، وعاشرة، ثم دودة وثانية وثالثة، وعاشرة، وصرصرة، وصراصر وأنواع دبيب الأرض حتى غطت التمرة بكاملها، فقال لها هكذا المرأة الخائنة تبدأ بواحد ثم يصبحون جماعة، وجاء بالسوط وجلدها.

تعانق الجاران الصديقان واعتذر أحدهما من الآخر، وعاد البدوي لدياره البعيدة، وعندما وصل ورأته عفراء من شرفة القصر أخبرت الأميرة بالأمر، وقالت الأميرة لعفراء:

- أنا في فراشي نائمة.

فتح البدوي باب غرفة نوم الأميرة ملهوفًا ولسان حاله يقول (إني وجدت عقلي)، فتفاجأ أن الأميرة نائمة وبجانبها رجل، استل سيفه يريد قتله، ولكنه استدرك وقال:

- العقل بالصبر والصبر مفتاح الفرج.

وعلى الفور قالت الأميرة للرجل النائم بجانبها:

- يا ولدي قَبِّل يد أبيك.

ما يعرف الجك من البك

يُقال والعهدة على القائل، أنه لم تكن في العراق أيام زمان مدارس رسمية، وفي زمن الحرب العالمية الأولى تم احتلال العراق من قِبَل الإنكليز وفُتِحت عدد من المدارس، والغريب في الأمر أن العباسيين أسسوا مدرسة المستنصرية في بغداد، وهي تعتبر أول جامعة للعلوم في العالم، وهناك حلقات دراسية كثيرة في البصرة والكوفة وبغداد، ولكن الظاهر في الحقبة المغولية والعثمانية حصل التخلف في كل المجالات.

الذي يهمنا هنا في إحدى المدارس التى فتحها الإنكليز في البصرة كان أحد التلاميذ لا يميز الجك من البك، والجك يعني (Chalk) أي الطباشير، والبك يعني (BOOK) أي الكتاب، فذهبت مثلا شعبيًا عراقيًا يُضرَب في الغشيم الذي لا يميز بين الطباشير والكتاب فيقولون (لا يعرف الجك من البُك).

الـوانيـت

الكويتيون يسمون البيك أب (الوانيت)، وهذه كلمة مشهورة ومعروفة في الكويت وأصلها، أنه قديمًا كان في الكويت كلها سيارة بيكب واحدة رقمها ١٨ تتجول في شوارع مدينة الكويت والناس تقول جاءت "الون آيت" (أي الواحد ثمانية) وراحت الون آيت (One - Eight)...

وما زال الكويتيون لحد الآن يسمون البيك أب، وانيت.

إيه جبت Egypt

كان أيام زمان في مصر (أرض الكنانة) رجل آثار إنكليزي يُنقِّب في مقابر الفراعنة ويستعين بالعمال المصريين في أعمال الحفر والتنقيب وتشجيعًا لهم يوزع عليهم الهدايا التى يجلبها معه من لندن، وكان يسافر بين الحين والحين إلى لندن وعند عودته يسأله العمال (إيه جبت؟) والمقصود (ماذا جبت لنا معك من لندن؟) فيختصرونها (إيه جبت؟)، فتعلمها الإنكليزي وعند عودته إلى لندن قال لأصحابه إنه كان في بلاد إيه جبت ودوَّنها في مذكراته وتنقيباته فذهبت اسمًا لمصر (EGYPT) وانتشرت واشتهرت عالميًا...

هكذا سمعتها وربما تكون كلمة قبطية أو فرعونية الأصل، والله اعلم.

إستكان East Tea Can

الرجل الإنكليزي عالم الآثار عند عودته إلى لندن أخذ معه علبة هدايا فيها إستيكانات شاي مصنوعة في الهند أثارت إعجابه بنقوشها ودقة صنعها، وعندما كان يزوره أصدقاؤه الضيوف يقدم لهم فيها الشاي، فاستغربوا شكلها، وسألوه عن اسمها وهو لا يعرفه فاجتهد وقال إنها East Tea Can أي إناء شاي شرقي، فاشتهر هذا الكوب باسم إستيكان ويُلفظ إستكان وذاع صيته.

القبطان سريوجا كالينوف

باخرة تجارية روسية تحمل البضائع والمسافرين، تحركت من موانئ القرم في البحر الأسود، وعبرت مضيق البسفور ودخلت مياه البحر الأبيض المتوسط، عبرت قناة السويس إلى البحر الأحمر والخليج العربي ودخلت المحيط الهندي.

كل شيء يسير على ما يرام، القبطان أجنادي مالينوف يُحيِّي الجميع ويشرب نخب صحتهم برفقة ابنته الشابة الجميلة "كَالة"، التي استأذنت من أبيها لترقص رقصة الفالس مع المحتفلين في الصالة الكبرى.

الموسيقي صاخبة والمسافرون فرحون؛ لأن باخرتهم عما قريب تدخل البحر الأصفر إلى الصين، في غمرة الأفراح وشرب الراح ورقص الجميلات الملاح، صدمت الباخرة بالكرين العملاق الذي يبحر عكس الاتجاه؛ بسبب الموج العالي والريح العاتي والضباب الكثيف، تحطمت الباخرة وانشطرت وغاص الكرين العملاق في الأعماق خلال دقائق معدودة غرقت الباخرة ومَن فيها خلال أقل من ساعة من الزمن، أربعة من الشباب المسافرين مفتولي العضلات تمكنوا من إنزال قارب إنقاذ والباخرة تغوص إلى أعماق المحيط، تمكنوا من التقاط عدد من المسافرين المتشبثين بلوحات خشب من حطام الباخرة معظمهم من كبار السن نساء ورجال، بلغ عدد ركاب الزورق ثمانية عشر، بينما الاستيعاب الأقصى للزورق اثني عشر.

وجدوا كثيرًا من علب الطعام وحاويات وأكياس ماء صالحة للشرب، كل هذا

أثقل الزورق وجعل حافته بمستوى وجه ماء المحيط الذي أخذ يتسرب إلى الزورق عندما يهتز؛ بسبب تحرك أحدهم من مكانه وبسبب الأمواج، أحد الشبان الأربعة واسمه سيريوجا كالينوف التقط قبعة القبطان ميلانوف الذي قرر أن يغرق مع باخرته؛ لأنه فارس وهذه أخلاق الفرسان.

سيريوجا أعلن نفسه قبطانًا بعد أن وضع القبعة البيضاء ذات القيطان الذهبي على رأسه واختار الشباب الثلاثة مساعدين، وصاح بالآخرين (هل أنتم موافقون؟) فأجاب الجميع بصوت واحد بالروسي (سكلاسنا) أي (نعم موافقون).

قال: أولاً وقبل كل شيء كلٌّ يثبُت في مكانه، بعد أن وزعهم حسب أوزانهم ليستقر الزورق، ثانيًا الجميع يخففون ملابسهم قدر الإمكان؛ لأن الجو معتدل ويرمون كل شيء ليس ضروريًا، ثالثًا الشباب المساعدون مسؤولون عن توزيع الطعام والماء، كل واحد له رشفتين ماء في اليوم ووجبة طعام (قوت ألما يموت).

هناك رجل كبير السن برفقة زوجته مصابًا بعجز في القلب ويتنفس بصعوبة بالغة وامرأته تداريه وتسهر عليه، ساعة تهفي عليه وساعة تنفخ في فمه وساعة تدلك أطرافه وصدره وتعطيه نصف حصتها من الماء ووجبة حصتها، إضافة لوجبته عساه يتماثل الشفاء.

هناك رجل مسن آخر أصيب بجرح بليغ، التهب الجرح وارتفعت حرارته فأخذ يهذي ليل نهار ويصرخ من شدة الألم وليس لديهم أي علاج، الماء الداخل للزورق بدأ يزداد؛ بسبب ثقل حمولة الزورق ولا أمل بالأفق.

الشباب الثلاثة المساعدون يعملون بكل قوة بتنظيف قعر الزورق من الماء المتسرب من الحافة باستمرار ولكن دون فائدة؛ لأن كمية الماء بدأت تزداد، هنا

فكر وقرر الكابتن كالينوف من موقع المسئولية إنقاذ الزورق من الغرق فأمر مساعديه بإلقاء الرجل المريض الذي يهذي في المحيط لأنه لا أمل منه يُرتجى.

ما زال الزورق غير مستقر، أصدر كالينوف أمرًا صارمًا إلى مساعديه بالتخلص من الرجل المريض بالقلب الذي لا مل في شفائه إنقاذًا للآخرين، تشبثت زوجته به ومنعتهم لكنهم مسكوها بقوة وألقوا به في المحيط، وما إن تركوها بعد لحظات حتى رمت نفسها وتمسكت بزوجها وهي تقول له (لا تخف أنا معك، لقد أخذنا حقنا من الحياة لندع الآخرين يعيشون) ابتعد الزورق عنهم ولكن الزورق نوعًا ما استقر بعد أن تخلصوا من جزء من الطعام.

الماء يوشك على النفاذ، أمر القبطان كالينوف مساعديه بتوزيع وجبة واحدة من الماء؛ لضمان الحياة للجميع.

الماء الباقي يكفي ليومين فقط وقد مر عليهم خمسة وأربعون يومًا وهم على هذه الحال حتى هزلت أجسامهم وخارت قواهم، وإذ بسفينة إنقاذ روسية راجعة من التحقيق في أمرهم، تشاهدهم وتعمل على إنقاذهم ونقلهم إلى الأراضي الروسية، تم إسعافهم وتقديم المساعدات الطبية لهم وأُدخلوا المستشفيات لإجراء الفحوص الطبية، وبعد أن تشافوا و تعافوا، أُحيل سير يوجا كالينوف للمحكمة، ووُجِّهت له تهمة قتل ثلاثة أبرياء عن عمد وسبق إصرار مع التخطيط المسبق من قِبَل الادعاء العام.

دافع كالينوف عن نفسه لأنه أنقذ حياة خمسة عشر شخصًا وضحى باثنين ميؤوس من شفائهم، وهو ليس مسئولاً عن المرأة؛ لأنها هي التي قررت واختارت أن تموت مع زوجها المريض.

وشهد لكالينوف الجميع بصدق وأمانه وأثنوا على قيادته، لكن رئيس القضاة بعد المداولة قال له:

- أنت ليس الله لتقرر مصير البشر، حكمت عليك المحكمة بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، وغرامة مئة وخمسين ألف روبل كتعويض ما عدا تعويض التأمين، صدر القرار علنًا قابلاً للتمييز.

والسؤال: هل ظلمت هيئة المحكمة سريوجا كالينوف أم أنصفته؟

ذكـــاء بــدوي

حارثة، وطرفة، بدويان جاران يعيشان بقرية في الجزيرة على أطراف الصحراء، اتفقا أن يخرجا للصحراء للصيد والقنص، ركبا راحلتيهما وجابا الصحراء طول النهار دون أن يحصلا على شيء، وعندما بلغ بهما التعب أشده، لاذا بذروة تل رملي، وأوقدا نارًا، ونصبا صاجًا، وأخرج كلٌّ منهم من خرجه دقيقاً.

صنع حارثة سبعة أرغفة، أما طرفة فكان ما معه قليل من الدقيق صنع منه رغيفًا واحدًا، وقبل أن يهما بأكل العيش الجاف بدون أي غموس، مرَّ عليهما فارس فسلم عليهما، فدعواه أن يشاركهما الطعام، فترجَّل من جواده المطهم بالخرز والديباج، وبان عليه من هيئته أنه أمير من الأمراء ميسور الحال.

شاركهما طعامهما كواحدٍ منهم، وبعد أن شربوا القهوة العربية شكرهما على ضيافتهما، وأعطاهما ثمانية دراهم استلمها حارثة، ثم امتطى جواده وودعهما.

حارثة أعطى لطرفة ثلاثة دراهم وأخذ خمسة، اعترض طرفة قائلاً:

- مناصفة يا حارثة.

فاختلفا واتفقا أن يذهبا إلى الفريضة ليحكم بينهما بالحق، وحكيا حكايتهما لحكيم قريتهما، وقالا (أقسم بيننا بالحق)، فكر ودبر، فأعطى حارثة سبعة دراهم، وطرفة درهمًا واحدًا، وقال لهما:

- هذه قسمة الحق.

امتعض طرفة واعترض، قال الحكيم:

- اسمع يا بني طرفة إنها ثمانية أرغفة وأنتم ثلاثة أكلتوها كلها بالتساوي فهي تساوي أربعة وعشرين ثلثًا، بمعنى أن كلاً منكم أكل ثماني أثلاث، فأنت يا طرفة لك رغيف واحد، والضيف أكل منه الثلث، ولحارثة سبعة أرغفة أكل منها الضيف سبعة أثلاث، وبهذا يكون حقك يا طرفة درهمًا واحدًا وسبعة لحارثة.

والسؤال: هل كان الحكيم عادلاً معهم؟

الرجاء يكون الجواب بحساب "أهل قبل" وليس بالفرضيات الجبرية.

عطـــاء

دخل الحاجب على معاوية في ديوان الخلافة وقال:

– مولاي، إن في باب الديوان رجلاً يدَّعي أنه أخوك ابن أمك وأبيك.

قال معاوية:

– أدخله أيها الحاجب.

دخل الرجل فسأله معاوية:

– مَن تكون يا هذا؟

أجاب الرجل بثقة:

– أنا أخوك ابن أمك وأبيك.

– وكيف ذلك يا رجل وأنا لا أعرفك؟

– ألستَ أمك حواء وأبوك أدم؟

قال معاوية:

– نعم.

فرد الرجل:

– وأنا كذلك.

قال:

– صدقت، ما حاجتك يا رجل؟

قال:

- أعطني مما أعطاك الله.

أطرق معاوية هنيهة من الوقت ثم مد يده في جيبه فأخرج درهمًا واحدًا وأعطاه، فقال الرجل:

- أتعطي أخوك من أمك وأبيك درهمًا واحدًا يا معاوية؟

قال معاوية:

- لو وزعت بيت المال على إخوتي من أمثالك لما أصابك هذا الدرهم يا هذا، اخرج راشدًا لسبيل حالك.

الحِلم

دخلت امرأة على معاوية بن أبي سفيان وهو في مجلسه، قالت:

– يا معاوية أريد ألفًا وألفًا وألفًا.

سألها معاوية:

– ما حاجتك بها؟

أجابت:

– ألفٌ أسد بها دينًا عليَّ، وألفٌ أُزوِّج بها ولدي، وألفٌ أشتري بها بستانًا أعيش فيه وأعتاش منه.

سألها معاوية:

– اصدقيني القول، لو آلت الأمور إلى علي بن أبي طالب، هل تطلبين منه ما طلبتِه مني؟

قالت:

– لا والله؛ لأن "علي" حريص على أموال الناس وأنت بددتها فوجدت نفسي أحق من غيري بها.

همس عمرو بن العاص في أذن معاوية:

– أتعرفها؟ إنها سلمى الكلابية التي كانت تركب هودجها في معركة صفين وتصيح بأعلى صوتها (لقد اعتدى الكفر كله على الإيمان كله)

فاستدركت سلمى الأمر، وهمت بالانسحاب من المجلس، فقال معاوية:

- إلى أين يا خالة ولم نقضِ حاجتك؟

فأجابت بثقة:

- لقد نبحني كلابك يا معاوية؛ لأني فهمت ما قال هذا.

قال معاوية:

- ومع هذا أعطوها ما طلبت إكرامًا لشجاعتها.

الحُرة و الأَمـَة

قرأت من مجمل ما قرأته للكاتب المصري من صعيد مصر عباس محمود العقاد، يذكر أنه في زمن أحد الخلفاء، قدمت أَمَة (خادمة) شكوى على حرة (أميرة) تعمل عندها، ويعيشان في قصر منيف لوحدهما، حيث ذهب أزواجهما للجهاد في حملة، قالت الأَمَة:

– يا أمير المؤمنين، ولدنا أنا والأميرة في ليلة واحدة، أنا رُزِقت بولد، والأميرة رُزِقت ببنت، لكن الأميرة اغتصبت ابني وأعطتني ابنتها وأعتقتني، وهذا ظلم الله لا يرضاه فأنصفني يا أمير المؤمنين، وأعد لي ولدي جزاك الله خير الجزاء.

قال الخليفة:

– استدعوا الأميرة لنسألها.

ولما جاءت سألها:

– ما قولك بادِّعاء هذه الأَمَة؟

أجابت الحرة:

– لا والله إنها كاذبة، والولد ابني من صُلب زوجي الأمير.

قال الخليفة:

– والله إن لمثل هكذا معضلة يحلها القاضي حذيفة، لنذهب جميعًا إليه في داره.

قال القاضي:

– كان الأحرى أن تبعث لي فآتيك.

قال الخليفة:

– إن أهل العلم يُؤتَى لهم ولا يُؤتَى بهم، وعليك الآن أن تحل يا قاضي القضاة هذه المشكلة.

الاثنتان تدَّعيان بالولد وليس هناك شاهد عيان، فدفع القاضي بكوبين فارغين متشابهين بالحجم والوزن، واحد للأَمَة والآخر للحرة، وطلب أن تملأ كل واحدة كوبها بالحليب تمامًا من ثديها، بعدها وزن كل كوب على حدى، وقال:

– الولد للأَمَة، والبنت للحُرَّة.

وأردف قائلاً:

– أما علمتم أن وزن نفس الكمية من حليب أم الولد تساوي ضعف وزن حليب أم البنت؛ بسبب دسامته (كثافته)؟ ولهذا فإن الولد له مثل حظ الاثنيين في الميراث.

والسؤال: هل علميًا كثافة حليب أم الولد ضِعف كثافة حليب أم البنت؟

باعتبار أن الوزن = الحجم في الكثافة.

السادة و الأعلام

ناحية الفهود من نواحي الناصرية الغافية على حافة هور الحمار، تشتهر بوفرة السمك وكثرة الطيور، الخضيري، والزل، والحذاف، والكوشر، خاصةً في موسم الشتاء، حيث تهاجر هذه الطيور بكثافة من روسيا وأوكرانيا الباردة.

السفر لها من البصرة من قضاء المدينة بالماطور مرورًا بالجبايش، المضايف منتشرة على حافة المياه تستقبل الضيوف وتقدم ما لذ وطاب من الطعام، تفوح منها رائحة الهيل، وتسمع من بُعد صوت الهاون ورنة الفنجان.

السمك مكدس على هيئة تلال، والطيور بالمئات مهيئة للتصدير للمدينة بواسطة الزوارق للبصرة، وبواسطة السيارات إلى الناصرية وبغداد، الخير وفير، هناك ماكينة طحين تسمع صوتها في أنحاء الحي يملكها شخص اسمه سيد نيازي، وهناك مرقد طلوا قبته باللون الأخضر تحيطه الأعلام الخضراء والحمراء والسوداء لسيد يوشع، يقولون إنه صاحب كرامات الناس تزوره، وتقدم له النذور، وكثيرة هي الحكايات التي نسجها الناس البسطاء حول كرامات هذا السيد، يتهامسون هذا السيد (يشَور).

نيازي في معمله تعوَّد أن يمر بين القايشات الدوارة بسرعة، وذات يوم التفَّت صاية (جلباب) نيازي بالقايش وثرمه الدولاب الطيار، اتهم أولاد نيازي مفتش التموين الذي كان في ساعة الحادث معه يحاسبه على رداءة نوعية الطحين، ونقص وزن الأكياس المعبأة، وادَّعوا زورًا وبهتانًا أنه دفع أبوهم تحت القايشات

وسبب موته.

المحكمة تستجوب المفتش المسكين، والمفتش ينفي التهمة قائلاً:

- والله إني حذرته أن لا يمر بين القايشات دون فائدة.

شهود الزور الثلاثة يُقسمون اليمين واحد بعد الآخر (أقسم بالله أقول الحق ولا شيء غير الصدق)، وهو يضع يده على المصحف ويدَّعون ظلمًا أن المفتش مذنب؛ لأنه دفع نيازي تحت القايشات.

محامي المتهم، وهو من أهل ناحية الفهود يطلب من هيئة المحكمة أن يُحلِّفوا الشهود بالسيد يوشع، والمحكمة ترفض، وبعد إلحاح المحامي، قالوا له (طيب حلِّفهم أنت)، المحامي للشهود:

- قولوا معي (وحياة سيد يوشع المفتش دفع نيازي تحت القايشات).

ردوا على الفور المفتش بري (برئ) وأولاد نيازي أجبرونا وأغرونا أن نشهد زورًا.

الـثـورة

من الأقوال المأثورة للكاتب الفرنسي الفذ فكتور هيجو:

عندما تعيق تدفق الدم في الشريان تكون الجلطة

وعندما تعيق تدفق المياه في النهر يكون الفيضان

وعندما تعيق تقدم شعب نحو المستقبل تكون الثورة

ثورة على الظلم والتخلف والسلفية والطائفية والفقر، وكلها الآن مجتمعة في بلدي العراق، فهل يستحق شعبنا كل هذا الضيم والفقر؟ وإلى متى؟ ومتى يثور الناس على الظلم بكل أنواعه وأشكاله؟ وإلى متى نبقي مغتربين، والأصح مُهجَّرين؟

ذكــاء

جرت العادة في شهر رمضان أن يخرج الحجاج بن يوسف والي العراق إلى البادية وينصب له خيمة يقيم فيها، وعند موعد الفطور يدعو الآخرين للإفطار معه، وصادف يومًا وقت الفطور أن مر أعرابي فدعاه الحجاج للإفطار معه بما لذ وطاب، وأثناء شرب القهوة، سأل الحجاج الأعرابي:

– كيف حال البلاد يا رجل؟

فأجاب:

– بأسوء حال، يسوسنا كافر ظلم البلاد والعباد، واستهتر بالقيم والدين اسمه الحجاج.

فقال:

– أتعرف مَن أنا؟

قال:

– لا والله.

قال:

– أنا الحجاج.

فأجاب الأعرابي على الفور:

وأنا مجنون بني عجلون.

الولد العاق

تعب الأب في تربية ابنه العاق واقتنع أنه لا فائدة من هذا الولد، فقال له:

– يا بني، لقد أتعبتني وخاب ظني فيك، لقد بذلت كل جهدي أن أجعل منك إنسانًا صالحًا لنفسك وأهلك وناسك، ولكن مع الأسف اتضح لي أنك لا يمكن أن تكون في يومٍ من الأيام آدميًا، وعاتبني إذا أصبحت في يومٍ من الأيام آدميًا.

وطرد ولده حسن من البيت وهو غاضب مرددًا:

– عوضي على الله فيك.

رحل حسن إلى جهة مجهولة لا يعرفها الأب، ومرت سنين وسنين، وعمل حسن في بلاط الأمير، وتدرج في المواقع، وبعد عدد من السنين تبوأ منصب رئيس الشرطة، وعندما مات الأمير موتًا مفاجئًا، سيطر حسن على البلاط وأعلن نفسه أميرًا على البلاد، وبعدما استتبت له الأمور وجلس على كرسي الحكم ورأى الجميع يطيعه وينفذ أوامره، فكر مليًا وتذكر كلام أبيه، فحزن في نفسه وقرر أن يستدعي أبيه، فأصدر أوامره بأن يُجلَب عبد الله وكان هذا اسم أبيه من مدينته البعيدة، ويُقدَّم مذنبًا أمامه لمحاسبته، وجاءت الشرطة للأب المسكين المتعب الذي تجاوز السبعين واعتقلوه وأهانوه وضربوه وهم لا يعلمون أن هذا الرجل والد أميرهم، وجروه جرًا بعد أن ربطوه خلف الحصان وساروا به الليل كله والنهار لا ماء ولا زاد، وعندما وصلوا البلاط أدخلوه على الأمير معفرًا بالتراب ممزق الثياب، مرهقًا، متعبًا لا تكاد تحمله قدماه، والرجل في دهشة واستغراب من

أمره لا يعرف ما الذي حصل وما الذي صار، ولماذا هذا الظلم كله وأين هو الآن؟ وبعد سويعة من الزمن قادوه إلى حضرة الأمير الجالس على كرسي الحكم وهو يرفل بالخز والحرير، وتاجه على رأسه، يحيطه الخدم والحشم والحرس، وأنواع الفاكهة في صينية من الفضة أمامه، والغانيات تهفي عليه بريش النعام، والساقي يسقيه كأسًا من الخمر، فرفع الأمير رأسه، وقال له:

– أنت عبد الله؟

قال:

– نعم.

– أتعرفني يا عبد الله؟

– نعم، أعرفك أنت ولدي حسن.

– أتذكر كلامك لي عندما قلت ياحسن أنت لا يمكن أن تصير في يومٍ من الأيام آدميًا؟

قال:

– نعم، أتذكر يا حسن.

– وماذا ترى الآن وأنا أمير هذه البلاد وأنت تحت رحمتي؟

صفن الأب، وسالت دمعة ساخنة على خده، وهو ينظر لولده باحتقار وسخرية وقد بلغ به الإجهاد والتعب والعطش والجوع مبلغًا كبيرًا:

– اسمع يا ولدي حسن، أنا حزين عليك يا ولدي؛ لأنك مع الأسف الشديد ما زلت حتى الآن، أنت مو آدمي.

المضيف (١)

شيخ مشايخ عشائر الديلم، شخصية مرموقة، وموضع احترام وتقدير كل عشائر العراق وخاصة عشائر المنطقة الغربية.

لهذا الشيخ الجليل مضيف كبير مفتوح على مدار الساعة، أربعة من الحوشية يقدمون القهوة للضيوف وتقدم وجبة غداء يوميًا، يسمونها دليمية، عبارة عن خبز تنور مثرود ومنقوع بماء اللحم، يُغطَّى بطبقة من الرز البسمتي، والذي يُغطَّى بطبقة من الكشمش واللوز والكازو والبصل والمعاليق المحمرة، ثم تُزيَّن بكتل من اللحم الضاني، وتُقدَّم بأطباق كبيرة، تُسمَّى الواحدة منها صينية أم العراوي تُشبِع اثني عشر شخصًا وأكثر.

الشيخ يتكلم والكل يصغي إجلالاً واحترامًا، هنا سمع الجميع صوت صفير عاليًا مصحوبًا بريح تزكم الأنوف، جفل الشيخ وسكت، وبصوت غاضب خجول قال:

- (هذا منو ضر، وأنا أحجي).

فرد عليه أحد البدوان:

- يا طويل العمر إني ضيفك.

- ولك أنت شنو اسمك؟

- محفوظ صكَبان ولد مردان ولد حطاب.

- ولك مَن يا عشيرة أنت؟

- محفوظ بدوي من بدوان الجزيرة، والنعم من البدو النشامي، ولكن مو والنعم منك.

- ولك شلون تضر، وأنا أحجي.

- محفوظ لو ما هذه الضر، منو يعرف صكَبان ولد مردان ولد حطاب.

الشيخ وقد هدأ واستعاد رباطة جأشه:

- صدقت ياصكبان جثير من الزلم بهذا الزمن تنعرف من ضرا، مع الأسف...

المضيف (٢)

أمر الشيخ بإحضار الطعام، ففُرشت صواني الدليمية، وتوزع الضيوف ليأكلوا هنيئًا مريئًا، وبعد أن شبع الضيوف، وعادوا لأماكنهم ليحتسوا القهوة، وكعادة الديلم، أولاً يأكل الضيوف وأهل الدار يخدموهم، وبعد أن يشبع ضيوفهم ويتركون الزاد، أهل الدار يأكلون بعدهم ما تبقى من الطعام الوفير، وبعد أن أكل الجميع ما عدا القهوجيين، ورُفِعت صواني الطعام، دخل المضيف في هذه الأثناء اثنان من الدراويش، فصاح الأول:

– حيَّ أشهد أني أعلم ما في سابع طبقة من طبقات السماء.

وصاح الثاني:

– حيَّ أشهد أني أعلم ما في سابع طبقة من طبقات الأرض.

وأمر لهم الشيخ بالطعام فجاءهم صينية دليمة، فيها تمن أبيض وليس هناك لحم فوق التمن، استغرب الدراويش الأمر وأخذ أحدهم ينظر في وجه الآخر لغرابة الموضوع، وقال لهم الشيخ:

– تفضلوا.

فأكلوا شيئًا من التمن على مضض، وهم لا يجرُؤوا أن يقولوا أين اللحم، بعدها قاموا ليشربوا القهوة، فجلس القهوجية الأربعة ليأكلوا من نفس الصينية، فأزاحوا التمن وأخرجوا من تحته كتل اللحم، اندهش الدراويش، وقالوا:

– شيخنا أنت غشيتنا.

فقال الشيخ:

- ملاعين الوالدين، لما أنتم تعرفون ما في سابع طبقة من طبقات الأرض كيف لم تعرفوا أنه يوجد لحم تحت التمن؟

وأمر الحوشية أن يجلدوا كل واحد منهم سبع جلدات؛ لكذبهم ودجلهم.

وما أكثر الدجالين الذين يدَّعون ما لا يعلمون، ويقولون أكثر مما يفعلون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

تواضع القادة في زمن الخير

تعرفت على السيد قيس عبد الرحمن عارف في القاهرة عام ١٩٦٧ عندما كان برتبة ملازم، جاء كظابط من ظباط اللواء العراقي الذي أُرسِل للجبهة المصرية كنوعٍ من المشاركة في جبهة القتال على طول قناة السويس بإمرة العقيد الركن محمد حسن شلاش، التقينا في السفارة العراقية في الزمالك شارع مظهر باشا، وكان الملحق العسكري يومها العقيد الركن سعدون، وكان من الظباط الأكفاء، وحصلت مناقشة هل يرسلون ملازم قيس إلى جبهة القنال في الإسماعيلية وكانت الجبهة ملتهبة، أم يبقى في السفارة حفاظًا على حياته.

وهنا تدخل أمر اللواء وقال:

– إنه أحد ضباطي، وحاله حال بقية الضباط ولا يُميَّز عن أي واحد منهم بأي شيء.

وسمعت ملازم قيس يقول:

– نعم سيدي، أنا واحد من ضباطك وحالي حال إخوتي في اللواء.

وهكذا رحل الجميع إلى الجبهة ومعهم قيس، وعندما ذهبنا لزيارتهم في الجبهة وجدنا الملازم قيس يتدرب مع مجموعته بمنتهى الضبط والربط والطاعة، ويخرج مع الدوريات القتالية في البحيرات المالحة رغم خطورتها، وكان يسكن مع أحد الضباط في كرفان بسيط أسوةً بالآخرين، وكانت كرفانات أمراء الفصائل والسرايا أحسن حالاً من الكرفان الذي يسكنه قيس وزميله، ثم بعد حفنة من

السنين التقيته في بغداد ضابطًا برتبة عميد باستحقاقه في مديرية التأهيل العلمي في منطقة الوزيرية، عندما أذهب لزيارة صديقي عميد حسن التميمي، وعميد سمير المعمار، وكان يعمل معهما وهما مدراء الشعب، وهو لم يكن مدير شعبة ويناديهما نعم سيدي، تأمر سيدي، حاضر سيدي؛ لأنهم أقدم منه.

كان الرجل يأتي للدوام يوميًا مع إخوته الضباط بقافله عسكرية، عبارة عن سيارة قديمة نص عمر، وعندما تعطل يأتي بسيارته الخاصة القديمة الموديل ويجلب معه عددًا من إخوته الضباط، كان بسيطًا متواضعًا خلوقًا، لا يمكن أن تحس أنه ابن رئيس جمهورية أبدًا.

كان بيتهم في المنصور قريب من برج المأمون في أحد الفروع التي تربط المأمون في بداية المنصور من الشارع القريب من سيد الحليب، أي من الساحة التى فيها تمثال البكر، وكان الرجل يدعو زملاءه إلى دارهم للسلام على والده والجلوس معه، وكان بيتًا بسيطًا كبقية بيوت المنطقة وأثاثه عادي، وفي الكراج سيارة مرسيدس بتز ٣٠٠ واحدة، وفي الباب كرفان فيه حرس قليل.

لم يكن لدى قيس أي حماية أو أي مرافق، كان الرجل لا يختلف بشيء عن الآخرين إطلاقًا.

أتذكر في عام ١٩٦٧ بعد النكسة في زمن جمال عبد الناصر وبمناسبة يوم العلم، زارنا إلى كلية الهندسة العسكرية وفد عراقي رفيع المستوى يرأسه اللواء عبد الرحمن عارف، رئيس الجمهورية، والدكتور عبد الرحمن البزاز، رئيس الوزراء، واللواء الركن عبد العزيز العقيلي، وزير الدفاع، والدكتور عدنان الباجحي، وزير الخارجية، وكبير المرافقين (الياروان) برتبة عميد لا أذكر اسمه ولكني محتفظ بصورهم، تشعر بأبوة عبد الرحمن وطيبته عندما يسلم عليك ويسألك عن

أحوالك ودراستك وما تحتاجه، ثم التفت إلى السفير والملحق العسكري وقال لهم:

– اهتموا بهم فهؤلاء قادة المستقبل، نريد جيلاً قائدًا علميًا متفوقًا.

وهنا تدخل عميد الكلية وقال:

– إنهم من الطلاب المتميزين ونحن نُعلِّمهم أرقى فنون هندسة الطيران بواسطة أساتذة أجانب من أمريكا وإنكلترا وألمانيا وكندا والسويد والجيك، ولنا علاقات وطيدة مع جامعات عالمية متميزة في هذا التخصص.

فرد عليه عبد الرحمن:

– إنهم أولادكم وفيهم وفيكم البركة.

ثم دعانا جميعًا إلى مأدبة عشاء أقامتها السفارة العراقية، حضرها جمال عبد الناصر، وعدد من المسئولين المصريين، والسفراء وعدد من الأساتذة، إنها أيام زمان وذكريات لا تُنسَى.

ما يحصل في بلادنا الآن يحكمها شعيط ومعيط وجرار الخيط، حماية كل واحد لواء بكامله وموكبه خمسين سيارة مظللة، وراتبه ومخصصاته ملايين الدنانير، مستنْزفين خزينة الدولة ومقسمين كعكة العراق فيما بينهم.

خير الكلام ما قل ودل

من الموروث العربي أن قحطًا أصاب بلاد العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ومن شدة الجفاف والجوع سموه عام الرماد، فبعث برسالةٍ إلى عمرو بن العاص والي مصر:

- (الغوث الغوث ثم الغوث، أموت ومَن معي وتأكل ومَن معك).

فأجابه:

- (لبيك لبيك ثم لبيك، سيأتيك المدد عيرًا _إبل_ أولها عندك وآخرها عندي).

ولم تمضِ إلا أيام ودخل المدينة ألف بعير محملة، تبعها ألف بعير واستمر المدد.

وهكذا بكلمات مقتضبة مركزة حُلَّت مشكلة أمة.

الجديـة

أثناء مراحل الدراسة عشت في بيت امرأة إنكليزية متقاعدة من أصول ألمانية تجاوز عمرها الخامسة والستين عامًا، لكنها ما زالت بهمتها ونشاطها، مسئولة عن الطعام والشراب والخدمة المنزلية، أما الغسيل فهناك محل غسالات عام في الشارع المجاور مقابل مبلغ بسيط.

العجوز مولعة بحل الكلمات المتقاطعة وعندها قدرة على حل أصعب الحزورات (الفوازير) ودائمًا تغلبني وتكسب الرهان فأضطر لأخذها للسينما أو للمطعم، فى أحد الأيام قررت أن أغلبها فألفت لها حزورة من عندي لا يمكن حلها، فقلت لها:

– رجل عراقي أيام زمان عنده مئة دينار أراد أن يشتري ديكة ودجاجًا وفروجًا بكامل المبلغ، فإذا كان سعر الديك دينارًا، وسعر الدجاجة نصف دينار، وسعر الفروجة ربع دينار، فكم ديك ودجاجة وفروجة يستطيع أن يشتري دون باقي؟

مسكت الورقة والقلم وأخذت تحسب وتكتب وتفرض وتعيد وتصقل دون أن تتوصل إلى حل، مرت ثلاث ساعات حتى تعبت ثم استسلمت، قالت:

– أنا لا أستطيع حلها أرجو أن تُعلِّمني الحل، ويوم الأحد نذهب للسينما على حسابي.

ضحكت أنا وقلت لها:

– لا أعرف الحل؛ لأنها حزورة غير قابلة للحل.

نظرت لي شذرًا وقالت بغضب:

- كنت تضحك وضيعت من وقتي ثلاث ساعات ممكن أن أنجز بها عمل؟ عقوبة عليك يا بشير ثلاثة أيام لا أقدم لك أي طعام وأي مساعدة.

ظننتها غير جادة بما تقول، ولكنها في الحقيقة نفذت العقوبة كاملةً، بعدها عادت المياه لمجاريها فعلمتني درسًا أن أكون جادًا فيما أقول وما أفعل.

البـوري

البوري، وما أدراك ما البوري، مصطلح عراقي والفكرة مصرية؛ لأن المصريين يسمون البوري ماسورة، وهذا يذكرني عندما كان أخي طالبًا في كلية الهندسة يُدرسِّهم أستاذ مصري درس الميكانيكا، وهو يشرح لهم عمل المكبس الهيدرولوكي، فأخرج لهم المكبس (Piston) وقال لهم:

– ماذا تسمون هذا؟

قالوا:

– بوري.

ثم رفع الاسطوانة (cylinder) وقال لهم:

– ماذا تسمون هذا؟

فأجابوه:

– هم بوري.

فقال:

– طيب نخش البوري فى اهم بوري.

فقال له أحد الطلاب:

– أستاذ يطلع بطيخ على طول.

المهم نرجع لسالفة البوري، وما أساسها، ومن أين جاءت لنا، ولماذا إذا شخص انضحك عليه أو تقمشر، يقول (آخ انضربت بوري)، بمعنى انصب عليه.

في بداية الثمانينيات جُنِّد العراقيون وسيقوا للحرب، ووفد علينا الأخوة المصريين بأعداد هائلة وبدون ضوابط، أفادونا في تمشية أمور الخدمات، ولكن تعلمنا منهم بعض العادات السيئة ومنها سالفة البوري، الفلاح المصري عندما يجني محصول الجزر مثلاً يعزل النوعية الرديئة عن النوعية الجيدة، ثم يضع داخل الكيس المخرم ويسمونه المصريون (الخيش) بوري بلاستيك بقُطر ثلاثين سنتيمتر تقريبًا وبطول متر، ويُعبِّئ الجزر الرديء داخل البوري، ويرتب الجزر الجيد خارج البوري، ثم يهز البوري ويسحبه فيطبق الجزر الجيد على الجزر الرديء، وهكذا بالنسبة للخيار أو شجر الكوسي ويعرضها للبيع في العلوة.
وعندما ينظر المشتري للكيس المخرم يسره المنظر ويعتقد أن كل المحصول جيد؛ لأن ظاهره حق وباطنه باطل، فيشتريه وعندما ينفضه ينكشف أنه انضرب بوري، فيقول (آخ انضربت بوري).

فيا أيها العراقيون احذروا ضربة البوري، ولكن ماذا نعمل ووطننا كله انضرب بوري باسم الديمقراطية (الديمضراطية)؟ رحم الله أيام زمان عندما كان هناك استقرار سياسي واستقرار اقتصادي، ما أروع العراقيون! وما أروع أخلاقهم وحسن تعاملهم وصدقهم وأمانتهم وحلاوة منطقهم! لا تزال كلمة عيني وقلبي وروحي وأغاني البغدادية من ألسنتهم.

رحم الله أيام زمان عندما كان الفلاح العراقي إنسانًا بسيطًا صادقًا أمينًا، والبقال العراقي يعرض بضاعته والمشتري يختار ويملأ الكيس، ويرد عليه البقال (بالعافية عمي).

إنها الأخلاق فهل كمنت أخلاق العراقيين وعندما تتحسن ظروف الإنبات تنبت من جديد؟

إنما الأخلاق كالنبات   إذا سُقِيت بماء المكرمات

لاين الصبة

في عام ١٩٥٥م في زمن العهد الملكي، قامت الدولة العراقية ببناء أكثر من ألف بيت شعبي لمحدودي الدخل في البصرة، وسُميت المحلة (الفيصلية) نسبة للملك الراحل فيصل الثاني، وباعت كل بيت بمئة دينار عراقي ملك صرف، وحصل أن تجمع في لاين واحد (شارع واحد ٢٢ بيتًا مندائيًا إحدى عشرة دارًا تقابل إحدى عشرة دارًا؛ ولهذا سُميت لاين الصبة، واشتُهرت بهذا الاسم).

وفي عام ١٩٥٨ بعد قيام ثورة تموز المجيدة سُميت المحلة (محلة الجمهورية) تيمنًا باسم الجمهورية العراقية، ولكن بقي اسم شارعنا معروفًا لدى الجميع حتى سواق التكسيات وساعي البريد والعنوان البريدي بـــ لاين الصبة.

ومن العوائل المندائية الكريمة التي أتذكرها، الجانب الأيسر (بيت جمعة سرحان الخميسي أبو خالد، بيت بدن نشمي الخميسي أبو فؤاد، بيت كريم عبد الواحد الكيلاني أبو طالب، بيت رحمة جبر السيفي أبو رياض، بيت عبد الواحد يوسف الخميسي أبو بشير، بيت يوسف سالم بختيان الخميسي أبو عبد الواحد، بيت زهرون نعمان المهناوي أبو فارس، بيت عبد الله خنجر الخميسي أبو نجم، بيت مهتم لايذ الزهيري أبو سمرة، بيت عباس سيف الكيلاني أبو خضير، بيت لطيف حافظ السيفي أبو سمير، بيت عبد عيدان الكحيلي أبو ثابت، بيت هاتو أبو كريم

الزهيري).

أما الجانب الأيمن المقابل (بيت ريسان ضيدان السيفي أبو كريم، وساجت أبو نورية السبتي، وبيت فاضل سبهان الخميسي أبو تحسين، وبيت عنيسي ربح السيفي أبو حامد، وبيت صالح ربح السيفي أبو صباح وفالح ربح السيفي، وبيت ضهد كشمر السيفي أبو نبيل، وبيت خضراوي ديري السبتي أبو صبري، وبيت فندي فعل المباركي أبو جبار، وبيت داوود نافل الخميسي أبو عبد الحافظ، وبيت محسن جاسر الخميسي أبو ناصر، وبيت عبد الله سلطان الخميسي أبو صبري، وبيت حميد سرحان الخميسي أبو فيصل، وبيت عيدان سرحان الخميسي أبو عدنان).

كانت هذه البيوت بيتًا واحدًا وأهلاً وأقرباءً وحبايبًا، ولم نكن وقتها نعرف الألقاب وإنما كلنا عائلة واحدة في أفراحنا وواحدة في أتراحنا، وكان ليوسف السالم مضيف بسيط في الشتاء في الديوانية (غرفة الخطار)، وفي الصيف في الشارع، وكنا نسمع أحلى السوالف وأبلغ الحكم من رجال هذا المضيف، وأذكر منهم يوسف سالم، فاضل سبهان، عنيسي ربح، فندي فعل، خضراوي ديري، خلف حافظ.

كنا مجموعة من الشباب المندائيين في هذا الشارع أخوة نتقاسم ما نملك بيننا وأحدنا يعلم الآخر نحن وأخواتنا الطالبات المندائيات، نذهب للمدرسة مجتمعين ونعود سوية، ولا أتذكر في يومٍ من الأيام اختلفنا، حتى عندما كلفنا مدرسنا ـ رحمة الله عليه ـ أستاذنا بشير سعد الخميسي، مدرس الفيزياء، أن نوزع مناشير

الحزب الشيوعي العراقي، وتم إلقاء القبض علينا من قِبَل أمن الموانئ، أنا وفلاح فاضل سبهان وبشير فندي فعل، لم نعترف على إخواننا طيلة شهر من التحقيقات. وهنا نسجل شكرنا وامتنانا لابن طائفتنا المعاون شرطة خيري خلف المهناوي أبو حكمت - رحمه الله - الذي ساعدنا كثيرًا وخلصنا بمناسبة عيد الفطر عندما زارنا مدير عام الأمن وسأل عنا فقال له أبو حكمت:

- هؤلاء طلاب صائبة في الإعدادية ومستقبلهم أمامهم والامتحانات النهائية الشهر القادم وأنا تأكدت أنهم أبرياء غُرِّر بهم، وأنا أضمنهم لن يعودوا لمثل هذه الأعمال، فأُطلِق سراحنا بكفالة بفضله، وفعلاً كانت الامتحانات النهائية على الأبواب.

وهناك جنوب الجمهورية محلة تُسمى محلة الصبة قرب البساتين والأنهار سكنتها عوائل مندائية كثيرة معظمهم من العائلة الكحيلية الكريمة، وكانوا باستمرار يزورونا ونزورهم وخاصةً في المناسبات والأعياد.

نركز بالحديث على لاين الصبة، أما محلة الصبة فنترك الحديث لإخواننا المثقفين الذين عاشوا فيها فترة طفولتهم وصباهم وشبابهم؛ لأنهم سيصورون الأمور بشكل أدق وأصدق.

كنا في لاين الصبة مجموعتين من الشباب الفرق بالعمر سنتين تقريبًا، فنحن الكبار وهم الأصغر سنًا، والكبار بشير عبد الواحد، بشير فندي، فلاح فاضل، ستار فاضل، نصري خضراوي، سالم طرفي، سلمان عبد الواحد، فيصل حميد، رياض رحمة، جورج ضايف، خضير عباس، سمير لطيف، رمزي عبد الله سلطان،

صبحي عبد الله خنجر، بصراوي جاسر، صباح صالح ربح، سعيد خلف حافظ، فوزي خلف حافظ، ناصر خلف نشمي، فؤاد بدن، حامد عنيسي.

والأصغر سنًا فرحان عبد الواحد، خيري (خير الله) فاضل، سلام فاضل، جمعة فاضل، نبيل ضايف، صباح حميد، ثابت عبد عيدان، بشير لطيف، راضي رحمة، حافظ داوود نافل وصاحب داوود نافل، رياض حميد.

وهناك جيل ثالث الأصغر سنًا وهكذا، وكان مَن هم أكبر سنًا منا لا علاقة لنا بهم سوى المودة والسلام مثل جميل يوسف، نجم عبد الله خنجر، صبري عبد الله سلطان، محسن جاسر، عبد الله جاسر، حامد فندي، ماجد فندي، عيدان فندي، صبري خضراوي وآخرين؛ لأن الأمهات كانت تتسابق بالحمل والولادة، فكل بيت مندائي فيه سبعة إلى عشرة أولاد وبنات من أب واحد وأم واحدة هيي يبارك فيهم وفي ذريتهم.

ولاين الصبة خرج أطباء ومهندسين ومعلمين وأكاديميين معروفين ومشهورين، وهكذا كانت بنات لاين الصبة شاطرات ومتفوقات، وكانت المنافسة على أشدها بين الجميع، وكنا نتباهى بنتائجنا في المدرسة؛ لأننا دائمًا من الأوائل، ويوم استلام النتائج يُقَام عرس مندائي في لاين الصبة، الامهات تهلهل ويطشن واهلية ملبس وجكليت وقرص نعناع وحامض حلو ويوزعن كليجة.

وننتظر الآباء عند عودتهم في المساء ليعطونا فلوس، وكان الخمسين فلسًا (درهمًا) يُشكِّل أحسن هدية، واليوم الألف دينار ليس لها قيمة، سبحان مغير الأحوال.

آباؤنا كان غالبيتهم يمتهنون الصياغة يخرجون في الصباح ويعودون عند المساء

فليس عندهم وقت لمتابعة أولادهم، كان الاعتماد على الأم، الأم الحوك تربي أولادها وبناها أحسن تربية وتتابعهم في المدرسة.

ما أجمل العيد المندائي في لاين الصبة، فمثلاً في العيد الصغير عيد الازدهار (دهوه هنينا) كل البيوت تطبخ تمن ماش، وتُحضِّر روبة جاموس وفجل أبيض ورؤوسه مستدقة (شنهو غموس الخطار ورقة سمح رؤوسها كبار) ومعه التمر، يتجمع الرجال في الصباح في مضيف يوسف سالم أبو عبد الواحد، ونحن الأولاد نلبس الملابس الجديدة، ملابس العيد وندخل عليهم واحدًا بعد واحد حتى يعطونا العيدية، وكانوا يعتبروننا كلنا أولادهم دون تمييز، يتجمع عند كل واحد منا مبلغ بسيط يمشي الحال، وأكثر هذه الفلوس لنا كلنا أحسن اشتراكية فطرية، ثم يبدأ الرجال بزيارة كل البيوت المندائية، واحدًا واحدًا، وفي كل بيت يأكلون لقمة واحدة، وبالنتيجة كل واحد يأكل ٢٢ لقمة إرضاءً للجميع، وهذا هو نوع من الاشتراكية العلمية.

بعد الغداء نتجمع نحن الشباب ونذهب في سيارة الهندي للعشار، نأكل في مطعم مومباي السنبوسة، والباكورة، والبرياني، والجتني، ونشرب السينالكو المشهورة به البصرة، ثم ندخل السينما، سينما الرشيد أو الوطني أو الحمراء، وأشهر الأفلام، أفلام طرزان، أو فلاش كوردن، أو كاري كوبر، وبرت لانكستر، وجون واين، وتوني كيرتس، وغيرها، ومع غروب الشمس نعود فنجد سيارة الهندي بانتظارنا، وهذه لها قصة.

أما العيد الكبير (دهوه ربا) فحَدِّث ولا حرج، ساكنو لاين الصبة يتهيأون لهذه المناسبة الكبيرة، يوم كنشي وزهلي كل بيت محضر خروفه، ومتأكد من أنه

ذكر، وسالم مسلح، ومحضر العدة (جباشته، وكدايده، ومواعينه النظيفة المطموشة) وينتظر رجل الدين حتى يذبح له نظيف، ثم يبدأون بترس الماء وطماشة الخضر والفواكه ووضعها في غرفة خاصة، يتم لف جميع الحنفيات بالقماش الأبيض، ويعزل الزرع والضرع، وعند الساعة السادسة مساءً قبل غروب الشمس تُغلق الأبواب بإحكام لمده ٣٦ ساعة، الكل ينشغل بالأكل والشرب والفرح، وعندما تحين ساعة الخروج تجد لاين الصبة زاهيًا، الكل استحمت ولبست ملابس العيد الجديدة الجميلة الزاهية، وتنهال علينا العيديات والقبلات والهدايا البسيطة، وأحسنها عيدية الفلوس، حتى نركب سيارة الهندي ونذهب للعشار نأكل ونشرب وندخل السينما، نذهب مجتمعين ونعود مجتمعين.

وعندما نعود إلى لاين الصبة في المساء نجد آباءنا مجتمعين في المضيف، يستقبلونا بالقبل والعيديات والفرح والسرور، كلهم آباؤنا، وكلهن أمهاتنا، وكلهن أخواتنا، وكلنا إخوة، لا يفضِّل أحدنا نفسه على الآخر، لا في أكل ولا في شرب ولا دراسة ولا عمل، كلنا متساوون مثل أسنان المشط، والبيوت المندائية في لاين الصبة مشرعة أبوابها للكل؛ لأننا كنا عائلة واحدة قولاً وفعلاً.

بشكل عام المندائيون في البصرة سكنوا في بادئ الأمر، أي في بداية الخمسينيات وقبلها في مناطق الرباط والحسينية وأم الدجاج قرب سوق الخضارة، ولاحقًا توزعوا على المناطق التالية، لاين الصبة في الجمهورية، ومحلة الصبة في الجمهورية أيضًا بعدها في منطقة العباسية والطويسة، وحي الأندلس والجبيلة، وهناك مَن سكن الزبير والفاو والعشار.

كان أهلونا يمتهنون مهنة صياغة الفضة والمينا السوداء، وقد برعوا فيها وفي بيعها على الأجانب وخاصةً الإنكليز في الموانئ والبواخر، وكان رزقهم محدودًا إلى أن هُجِّر اليهود في عام ١٩٤٨ إلى فلسطين فحلوا محلهم المندائيون وتركزوا في سوقين مشهورين في العشار مركز البصرة، وهما: سوق الخضيري وسوق الصيادلة.

سُمِّي سوق الخضيري نسبةً لمالكه جلال عطا الخضيري الذي كان له فيه خان معروف يُسمى خان الخضيري، وله فيه مكتب يسمة أوفيز الخضيري، هذا السوق عبارة عن شارع يبدأ من سوق الخضارة ولغاية سوق هرج، ومحلات الصاغة موزعة على الجانبين، ومن الصاغة المعروفين في هذا السوق خضراوي ديري وولده صبري، عبد الواحد يوسف، عثمان بادي، عباس الكيلاني، عنيسي ربح، شمخي فليفل، فندي فعل وابنه جبار، زيدان شريف وولده عبد الله، مهاوش مهلهل السبتي، سليمان الكحيلي، صالح ربح وفالح ربح، عبد الكريم عبد الواحد، بدن نشمي، جار الله منحوش السبتي، وكانوا جميعًا صاغة مهرة يعملون أدق الحلى بأيديهم وبأدوات بسيطة بدائية.

كان سوق الخضيري مشهورًا بالحلي الشعبية مثل تراجي الشباك، وتراجي الصفك، و الزرار والكرادين أم الليرة (ثلث ليرات، أو خمس ليرات، أو سبع ليرات)، والليرة الوسطية يضعون فوقها تاج الملك، كذلك يعملون أساور عريضة يسمونها دبابة، وأساور تاير، وأساور رفيعة يسمونها بتوت، ومحابس نسائية، ومحابس رجالية، ويصنعون للمعيديات خزامات ومحابس شذر وأنواع أخرى.

وكانت المحلات مفتوحة وغير مكيفة، ومعظم الصاغة يجلسون على دكات على

الأرض، وأمامهم جامخانات صغيرة يعرضون بها إنتاجهم الجميل، وكان يتردد على هذا السوق عدد من الهنود القادمين من بومباي بالمراكب لأغراض التجارة وكانوا يحولون نقودهم إلى ذهب وعندهم ثقة عالية بالصاغة المندائيين، كان الممول للسوق رجل يهودي لم يهاجر، اسمه صالح اليهودي، يتعامل مع الصاغة بالثقة ويعطيهم ما يطلبون من ليرات ذهب خالص، وعند المساء يأتي المحاسب واسمه محمد سعيد، يجمع من الصاغة قسمًا مما رزقهم الله بذلك اليوم، بمعنى تسديد بالتقسيط المريح.

وكانت أسعاره مختلفة بين الذي يدفع نقدًا وبين الذي يسدد بسرعة، والذي يسدد ببطء وهو يعرفهم واحدًا واحدًا، ويعرف كيف يتعامل معهم.

كان شارع السوق يكتظ بباعة البشوش والدجاج والسمك والفواكه والخضراوات، وعادةً السوق يغلق أبوابه الساعة السادسة مساءً ويعود الصاغة إلى بيوهم محملين بما لذ وطاب، كلٌّ حسب مقدرته، أما وجبة الغداء تكون الساعة الواحدة ظهرًا تقريبًا، معظم الصاغة تجلب لهم وجبة الغداء امرأة مندائية اسمها "عَلية" بواسطة سفر طاس مصنوع من الفافون، وأذكر أنني سألت مرة والدي رواه هويلي: (ليش يسمونه صفر طاس، وما يسمونه فافون طاس) فضحك والدي وقال: سفر طاس تعني مواعين السفر، أي الرحلات.

أما سوق الصيادلة.ز فكان نوعًا ما أكثر تطورًا من سوق الخضيري، حيث المحلات فيها ديكوات جميلة ومكيفة والصاغة يجلسون على كراسي وأمامهم مناضد عمل وأجهزة نوعًا ما حديثة، ويعتنون بعرض بضائعهم بعناية وفن، ولكن ليس كل ما يُعرَض من إنتاجهم، وإنما قسم كبير يُستَورد من بغداد أو

دول الخليج، وكانت معظم العوائل البصرية المقتدرة والراقية تأتي لهذا السوق الذي يمتد من سوق المغائز لغاية شارع أبو الأسود، وسُمي شارع الصيادلة لوجود عدد من الصيدليات والأطباء المشهورين فيه معظم الصاغة الذين عادوا من الكويت بعد ثورة تموز المجيدة استقروا في هذا السوق كذلك انتقل والدي من سوق الخضيري إلى هذا السوق، وأذكر من الصاغة المندائيين، شامخ فرحان الخميسي أبو لطيف، وهادي مهلهل السبتي أبو عادل، فيصل مهلهل السبتي أبو غازي، صدام وبي الهلالي أبو سحر، صاحب المعناوي أبو أمين، عبد الكريم المعناوي أبو وصفي، وناجي المعناوي أبو سلام، عبد العالي المعناوي أبو ميسون، ضايف مجيد السبتي أبو جورج، ريسان مهلهل السبتي أبو غسان، عبد الواحد يوسف الخميسي أبو بشير، جبار سيف الخميسي أبو عبد القادر، عزيز شذر أبو عبد الرازق الخميسي، رفعت شامخ الخميسي أبو غزوان، عزيز نزال السعودي أبو سعود، وكانت هناك ورشة متخصصة بإنتاج أساور السد العالي، وأطقم كيلوبترا يديرها حايف مجيد السبتي.

المهم هذا السوق يفتح أبوابه الساعة الثامنة صباحًا لغاية الساعة الثانية عشر ظهرًا، حيث يذهب الصاغة لبيوتهم للغداء والراحة ويعودون الساعة الرابعة ولغاية الثامنة مساءً عدا يوم الأحد والأعياد (أعياد الصائبة أو أعياد الدولة الرسمية) يغلقون محلاتهم، كانت العلاقات بينهم حميمة وأخوية، وأحدهم يساعد الآخر عونًا له، وعندما يمر أحدهم في السوق يسلم على الجميع ويسأل عنهم واحدًا واحدً.

وإذا وجدت السوقين قد أغلقتا أبوابهما غير يوم الأحد فقل حدثت وفاة، الكل هنا ملزمة بالحضور لإجراء المراسيم، ونادرًا ما يتأخر أحدهم إذ يعتبرونه واجبًا

مقدسًا، الكل يساهم بالحضور ودفع تكاليف الفاتحة، طول العمر للجميع وصحة وعافية، وكذلك الكل يشترك بالأعراس ويساهم بالتكاليف والأفراح.

يوم الأحد من كل أسبوع في لاين الصبة مميز عن بقية الأيام، فهو يوم الدجاج والبشوش، نأكل كلنا أهل اللاين، في الغداء دجاج وبشوش، في الصباح الباكر تتهيأ الأمهات للطماشة وتحضير الكدادة واللَّكَن (إناء من الفافون دائري) نظيف مطموش وزوج البشوش بعد فحصها والتأكد أنها صاغ سليم، وليس فيها زوادات أو أي نفص، وعيناها سليمة، ثم تغسل أرجلها بالماء غسلاً جيدًا، وتخرج الأمهات إلى اللاين، حيث ينتظر الذباح الحلالي عبد الله الخنجر الخميسي أبو نجم وقد لبس الرستة كاملةً، وشد الهميانة، ومسك سكينة الحديد السوداء ومعها غصن الغرب الصغير بعد أن حرقها بالنار لتعقيمها ثم طمشها مع عود الغرب، يجلس أبو نجم القرفصاء على حافة الساقية التي تفصل اللاين إلى قسمين متساويين، وولده صبحي ماسك كتفه وقد لبس دشداشة بيضاء ووضع على رأسه غترة بيضاء، تقف النساء بالطابور، وقبل أن يستلم من أي واحدة الدجاجة أو البشة يسألها:

– أم فلان نظيفة وطامشة وفاحصة البشوش؟

– نعم أبو نجم.

فتسلم البشة له فيمسكها أبو نجم من جناحها بيده اليسرى والسبابة والإبهام يمسك الرأس، ثم يقرأ عليها (شما أدهيي واشما مندا أدهيي، مدخر أخ، بثاهيل قريخ، هيبل زيوه فقد أخ مينخسخ، بسرخ دخيا هوى كل من أد أخل منخ،

نيهي ونيتاسي ونتقيم، اشما أد أهيي وأشما أد مندا أدهيي مدخر الخ)، ماتشوفوها شوية طويلة وحفظها صعب، وابنه الشكنده صبحي يردد أنا سيدخ أنا سيدخ (أنا شاهد)، ويسحب سكينه الحاد جدًا فيذبح البشة أو الدجاجة وينتظر لآخر قطرة دم تنْزل، بعدها يكتفها ويتأكد أنه لا حراك فيها ويضعها في الكدادة ويسلمها للمرأة التى تضعها في اللكن، وهكذا البشة الثانية، وعليها أن تدفع المقسوم إلى ولده صبحي (عشرة فلوس عن كل رأس) ثم دور المرأة الثانية وهكذا يذبح الطيور إلى ٢٢ بيتًا، وهناك بيوت متفرقة قريبة فيكون العدد بحدود ثلاثين امرأة، أي ستون دجاجة؛ لأني نادرًا ما كنت أرى بيتًا يذبح أكثر من دجاجتين مهما كان العدد إلا في حالة وجود خطار، رغم أن سعر الدجاجة أو البشة لا يتجاوز ٢٠٠ فلس فقط لا غير، الله يرحم أيام زمان، يقولون الآن أن البشة الواحدة أكثر من عشرة آلاف دينار وبصعوبة تتحصل.

المهم بقية أيام الأسبوع سمك في سمك؛ وما أرخص السمك! يوم شوي، يوم قلي، يوم مهروثة، وهكذا تخلص أيام الأسبوع، أما لحم الغنم من عيد إلى عيد، واللي حالهم يساعد يشترون من الذباح المندائي في رأس الشهر، وإذا ماكو مبطل...

وعلى ذكر السمك رغم رخصه، تأتي فترة منع الصيد أثناء التكاثر فيزداد سعره نوعًا ما، وهنا النساء كل اثنتين تتشاركان بسمكة كبيرة وتقسمانها لقسمين متساويين، ولكنها ليست متساوية بالضبط؛ لأن السمكة مثخن ومخف وفيه رأس وذيل ولا يوجد ميزان (عينك ميزانك)، والنساء تعتمد عليَّ بالقسمة، فأنا أتخبأ (أختل) خلف الباب وأم سمره رواه هويلها تصيح:

– بشير هذه الحصة لِمَن؟

فأقول: لأم تحسين.

وهكذا بالنسبة للأخريات، بعدها تغيرت الخطة كل واحدة تختار علامة مثل فصمة، حصوة، عود ثقاب وهكذا، وأنا واجبي أوزع هذه العلامات على الحصص وكل واحدة تعرف حصتها.

أما لحم الغنم فكما ذكرت بفضل في الأعياد المندائية، كل عائلة تشتري كبشًا تمام التمام، مثلاً في العيد الكبير يوم كنشي وزهلي صباحًا قبل الأكراص طبعًا الكل تحظر الجباشة، وعادة من أطراف السعف، تحد السكاكين والطبر والمبرد والفرشة (يستحسن قطعة من جذع شجرة النبق) وتطمش جميعها، ثم تغسل ضلوف(حوافر) الخروف ويرش عليه قليلاً من الماء وقليلاً من الملح مع التسمية، ثم تشعل طرف سعفة ويؤشر بها إلى الخروف وهو مربوط ومطروح على الجباشة ورأسه باتجاه الشمال (أواثر – قبلة المندايي) يأتي رجل الدين لابسًا الرستة معه الشكنده، ويبدأ بقراءة بوثة ذبح الخروف المذكورة في ذبح الطيور، وهكذا يمر على كل البيوت في لاين الصبة، وتبدأ الأمهات بشجر التنور والخبز وخاصةً خبز العروك وبعدها تشوي كميات كبيرة من اللحم ويكون إفطارًا مميزًا عند كل بيوت اللاين، الصواني عامرة والأبواب مشروعة ونحن الأولاد مدللين عند الكل.

ثم وجبة الغداء فيها كمية كبيرة من اللحم وهكذا العشاء، باقي اللحم يملح ويوضع عليه الثلج أو في الثلاجة الخشبية، وفي اليوم الثاني يتكرر الحال، فطور وغداء وعشاء لحم في لحم وهكذا اليوم الثالث، وفي اليوم الرابع يتغير لون اللحم بسبب الحرارة، فتجد اللاين كله إسهال، فرواه الماري وكل الطلاب ما تروح المدرسة.

بعد ثورة تموز ١٩٥٨ تغيرت الأحوال ومعظمنا تركنا لاين الصبة وانتقلنا إلى العباسية، والطويسة وإلى حي الأندلس والجبيلة قرب بهو الإدارة المحلية، وقسم سكنوا شارع الجزائر، وهكذا تطورت الأمور ودخل التلفزيون والثلاجات والمجمدات الحديثة والمبردات والمكيفات، وتطور إلى الأحسن يعني نقلة نوعية، وهناك مَن انتقل إلى بغداد وسكن الصالحية وفتح له محل صياغة في خان الشابندر أو شارع النهر (المستنصر) أو بغداد الجديدة وباب الشيخ وغيرها.

وفي هذه الفترة بزغ اسم نجم مندائي لامع أسس جامعة بغداد وكان بيرقًا عاليًا واسمًا مشرقًا لكل المندائيين، وكثر عدد الأساتذة والأطباء والمهندسون والصاغة المشهورون، أما أنا فسافرت في بعثة دراسية؛ لدراسة هندسة الطيران وكنت أُفضِّل كلية الطب، ولكن البعثة على نفقة الدولة ما تنعاف، وعندما عدت للعراق بعد سبع سنين دراسة والأمور قد تطورت كثيرًا، والمندائيون تطورت أحوالهم كثيرًا فرواه ماري، وأصبح لنا مركزًا اجتماعيًا مرموقًا، وكل المجتمع العراقي يحبهم ويحترمهم ويتمنى صداقتهم؛ لطيبتهم، وأمانتهم، وشرفهم، ولحالتهم المعيشية الممتازة، ومركزهم الاجتماعي والمعاشي المتطور، ولحاجة الناس لهم؛ لأن معظمهم حرفيون ومن الذكاء أن يمتهن أبناء الأقليات الحِرَف المهمة التي يحتاجها الناس سواءً كان موظفًا أو يمارس عملاً حرًا.

هناك مواقف طريفة في لاين الصبة بقيت مخزونة في الذاكرة، يتذكرها معظم مَن عاش ردحًا من الزمن في لاين الصبة، أتذكر منها:

عند مساء كل يوم، تكنس النساء الشارع، كل واحدة أمام بيتها، ويُرش اللاين بالماء رشًا خفيفًا، وبعد ساعة من الزمن تتجمع النساء للجلوس على أبواب البيوت على البسط الزركشة يتجاذبن الأحاديث لغاية غروب الشمس، بعدها كل بيت يضيء مصباح الباب، فيغدو اللاين منيرًا جميلاً.

ويبدأ الطلاب والطالبات بالمذاكرة لغاية ساعة متأخرة، والطلاب يعلم أحدهم الآخر، وأمهاتنا تُحضِّر الشاي وكعك الفانيليا، وأبو السمسم، و الجرك للجميع، فنحضر الوجبات اليومية بجو مفعم بالمحبة والطيبة والكرم المندائي.

كان يسكن في طرف اللاين شخصية مندائية اسمه ريسان ضيدان أبو كريم، رجل بصير، لكنه قوي البصيرة، عنده دكان صغير يبيع كل مستلزمات البيت والحلويات والبارد والقرطاسية، وكان على جانب كبير من الذكاء بحيث يعرفنا واحدًا واحدًا من الصوت، ويميز النقود بدقة عالية، ويعرف أماكن كل موجودات محله، وكان يفهم بتصليح الأجهزة الكهربائية.

أما البصير الثاني فاسمه ناصر الخدادي أبو سلام، وهذا الرجل يفهم بالسياسة ودائمًا يستمع إلى أخبار العالم، وعنده كتيبات يكلفنا بقراءتها، ويصنع لنا بنادق صيد جميلة لصيد الطيور، كذلك تمكن من تصنيع ماكنة تفريخ كتاكيت كهربائية ناجحة، ثقافته عالية، وأحاديثة جميلة وممتعة.

كان يحد اللاين من الشمال حسينية السهلاني، ومن الجنوب حسينية الحكيم، وفي شهر عاشوراء تصدح السماعات، وفرواه ماري يصادف عطلة المدارس،

وأذكر أحد المقرئين في حسينية الحكيم بإحدى خُطَب يوم الجمعة يقول للجالسين:

– لا تقولوا كلمة سلام؛ لأنها كلمة شيوعية، حرف السين معناه ستالين, حرف اللام معناه لينين، وحرف الألف معناه أنجيلس، وحرف الميم معناه ماركس.

فتصوروا مستوى التخلف والتلفيق والكذب على الناس.

أما حريشة أم الصمون فهذه امرأة تجاوزت الستين من عمرها، تلبس ملابس سوداء دائمًا، عباءة وشيلة وعصابة أكبر من عمامة السيد، تبيع بيض دجاج العرب والصمون الحار كل صباح في مدخل السوق، تجلس من السادسة صباحًا وأمامها سلالها المملوءة بالبيض والصمون والكل يشتري منها البيضة بثمانية فلوس، وكذلك الصمونة الواحدة وجئنا أنا وفلاح على عجل لشراء حاجة البيت للفطور كما أوصانا أهلنا، ولكن حريشة المتخلفة منعتنا أن نلمس البيض والصمون لأننا صبة، الظاهر تعرفنا، فاشترينا ما نحتاجه من دكان زاير شعيبث، ولكن البيضة الواحدة بعشرة فلوس، وكذلك الصمونة الواحدة، أمرنا لله.

وفي صباح اليوم الثاني جئنا أنا وفلاح إلى حريشة ومعنا كل واحد شص (خاص بصيد السمك) واتفقا على الانتقام من حريشة، وجلسنا قرب السلال وقالت لنا: لا تمسكا شيئًا أنا أرمي لكم ما تريدون.

وحين رأيناها مشغولة بحساب البيض والصمون شكلنا الشص واحد في سلة البيض، والآخر في سلة الصمون وأطلقنا بسرعة ساحبين معنا السلال وقد انتشر البيض والصمون على مساحة واسعة من السوق وتكسر معظم البيض، ومن

يومها تأدبت حريشة؛ لأننا لقَّناها درسًا لا تنساه، وبعد ذلك لم تكلم أحدًا وتقول له أنت صبي.

أما جاسمية أم الكَيمر رغم أنها من معدان هور الحمار ولكنها إنسانة وتحب الصبة، صباح كل يوم قبل السادسة تدق بابنا فنفتح لها الباب، ونساعدها بإنزال حمولتها من الحليب وأطباق الكَيمر في ممر الدار ونترك الباب مفتوحًا، تذهب جاسمية لمساعدة ابنتها عليه، النساء المندائيات تأخذن حاجتهن من الحليب بالمكيال وعدد من صحون الكًيمر دون حسيب ولا رقيب، بعد ساعة تقريبًا تعود جاسمية ومعها ابنتها علية الشابة ومعهن أطباق أخرى من الكًيمر، جاسمية تبيع حصرًا لبيوت لاين الصبة ولا تبيع لغيرهم.

جاسمية تثق بأمانة الصبة، والكل يعرف أن سعر صحن الكًيمر بعشرين فلسًا وكذلك مكيال الحليب؛ ولهذا بعد الفطور تأتي لها النساء لتسلمها حقها بالتمام والكمال، ولم يحصل يومًا أن شكت جاسمية أن هناك نقصًا في حسابها.

والغريب في الأمر أنها تحمل كل هذا الحمل على رأسها وتسير به متوازنة وكذلك ابنتها.

في أحد الأيام عديلي حايف مجيد السبتي أبو رياض حدث خلع (فصخ) في كاحله، فأخذناه في المساء إلى المجبرجي يسمونه أبو الإطفائية، بيتهم قريب جدًا ومسكنا أبو رياض بقوة وسحب قدمه، وقال:

– خلاص بعد ساعة يزول الألم.

وجئنا بـــ(أبو رياض) وهو يئن من الألم، وكانت النساء في لاين الصبة كالعادة

جالسات على أبواب البيوت في اللاين يسمعن أنين أبو رياض فعلقت إحداهن:
– يابه أخذوه إلى المستشفى أحسن هذا شرايين رجله تقطعت.
ضحكنا كلنا على كلامها، فعلقت ثانية:
– انتي بطرانة أم فلان ليش الشرايين بالرجل لو بالعيون.
أمهات صحيح قسم منهن متعلمات ولكنهن بسيطات أمينات صادقات تتباهين بمندائيتهن وبتربيتهن لأولادهن وبناقمن.

هذه الخواطر والذكريات لا قمم العموم ولكنها قمم مَن سكنوا لاين الصبة في تلك الحقبة من عمر الزمن

شخصيات عشنا معها في الخمسينيات حفرت ذكرى لها في الذاكرة، تكاد أن تكون شخصيات فلكورية، المفروض لها مكان مميز في المتحف الشعبي البصري على غرار المتحف البغدادي في شارع الأمين، رأس سوق السراي، قرب رأس جسر الشهداء، هذه الشخصيات الشعبية يتذكرها شباب الأمس شيوخ اليوم من سكنة لاين الصبة.

– ناصر أبو الباقلاء: رجل أسمر، سمين الجثة، بشوش، كريم النفس والأخلاق، يحب شباب لاين الصبة ويعرفهم بالاسم؛ لأهم زبائنه المتميزين، يملك عربة لبيع الباقلاء في كل مساء، باكَله ناصر مميزة وذات نكهة طيبة... ناصر يملأ الكاسة للحافة، ويضع فوقها البطنج وعصير الرارنج، فتزداد طعمًا ومذاقًا، سعر الكاسة

عشرة فلوس، ناصر يداري الزبائن، فعندما يلاحظ كاسة أحدنا فرغت، يضيف لها كمية من الباقلاء.
عند المساء يوميًا، وبعد الجولة الأولى من المذاكرة نتجمع عند ناصر لأكل الباقلاء، عندما مرض ناصر في أحد الأيام أخذناه للطبيب أفرام الصائغ، وعندما عرف أننا من أولاد المحلة، لم يأخذ منا أجور الفحص، واشترينا له الدواء من صيدلية كساب إلى أن تعافى كنوعٍ من رد الجميل، و كذلك الحال مع بلاسم أبو الكبه، وضهد أبو الدوندرمة.

– سيارة الهندي: فعلاً هندي يملك سيارة هيكلها من الخشب، ومحركها، الله يستر منه، لا سلف ولا صالنصه، والباتري مجسي، ولهذا عندما نركب معه العشار، بداية لازم ندفع حتى تشتغل، إحنه متونسين على الهندي؛ لأنه يأخذ منا نصف أجرة، وهو متونس علينا؛ لأننا قوة دفع السيارة، وممنوع راكب ينْزل بالطريق، لأنه بمجرد أن تتوقف السيارة ينطفئ المحرك، وننْزل ندفع من جديد.
وعلى هل الرنة طحينج ناعم، السيارة من تمشي كلها تتكلكًل، ما تعرف يا ساعة تتفلش طبعًا السيارة خلاعية لأن ما بيها شبابيك ولا جاملغات، والمشكلة ما بيها بريك من تنطفئ لازم إحنا نوكَفها، ونحط تحت التاير طابوكَه.

– مهيدي أبو الهيعة: شاب مخبل عمره أكثر من عشرين سنة، يملك سيارة جميلة صنعها بنفسه من سيامة الحديد السكراب، وزكرشها ولونها، وعلق بها الأعلام والملاعيب، يسير في شوارع الجمهورية والأولاد خلفه يهتفون (أبو الهيعة، أبو الهيعة، أبو الهيعة)، ولكنه عندما يمر في لاين الصبة لا يركض الأولاد خلفه؛ لأنهم يعرفون نحن أولاد لاين الصبة لا نقبل ذلك، مهيدي أبو الهيعة إنسان غير مؤذي

وإذا حب يرتاح يدخل لاين الصبة ويجلس في الظل يصلح بسيارته، ونحن نعطيه الطعام والماء، ونحميه من أذية الأولاد، فيهز رأسه شاكرًا ويرفع يديه للسماء يدعو لنا بالنجاح والخير، ويتمتم بكلمات معناها: أنتم الصبة خوش ناس إني أحبكم.

– القابلة زريفة طليا: يسمونها أم جمال، وهو صديقنا؛ لأن ابنها الأكبر اسمه دولار، امرأة في الستين من عمرها تسكن في طرف اللاين المجاور للاين الصبة، أم جمال قابلة مأذونة مسئولة عن الولادات والنساء الحوامل في لاين الصبة، الولادات كثيرة والنساء يتنافسن فيما بينهن كل واحدة عندها سبعة أو عشرة فرواه الماري، اللاين يروش بالأولاد والبنات، وأم جمال وجنطتها تقريبًا يوميًا نراها في لاين الصبة صباح مساء وكأنها ساكنة فيه.

– مطعم مومباي: مطعم يديره رجل هندي من مدينة مومباي الهندية، يقدم البرياني الحار، والسنبوسة الحارة، والباكورة الحارة، والعنبة والجتني الحار، ومعها قناني السينالكو، نحن شباب لاين الصبة هذا مطعمنا المفضل عندما نذهب للسينما في العشار بواسطة سيارة الهندي، كلنا نأكل في هذا المطعم؛ لأن أكلاتهم نادرة ولذيذة وأسعارها مقبولة.

زرت البصرة في عام ٢٠١٣ وجدت هذا المطعم ولكني لم أجد صاحبه الهندي.

– ذياب أبو الثلج: قلنا في طرف لاين الصبة من الجنوب كان دكان ريسان ضيدان أبو كريم، وفي الطرف الشمالي من دكان ذياب أبو الثلج، لاين الصبة يشتري في الصيف الثلج من ذياب ربع القالب بعشرين فلسًا، وعندما يشتد

الحر يصل سعر القالب مئة فلس؛ لأنه في بداية الخمسينيات لا توجد ثلاجات ولا مجمدات وإنما ثلاجات خشبية صنع محلي لا تفي بالغرض عندما ترتفع الحرارة في تموز (ينشف الماء من الكوز) وكذلك في أب (العشرة الأولى تخلع المسمار من الباب والعشرة الثانية تقلل الأعناب وتكثر الأرطاب والعشرة الثالثة تفتح من الشتاء باب) وعندما زرت العراق كما ذكرت في هذا الوقت فتحت جهنم بابًا.

ذياب يشتري الثلج من معمل ثلج الجمهورية، وكان جبار سيف وأبي رواه هويلهم يدارونه بالسعر وبالكمية حتى وهو يداري لاين الصبة، وفعلاً كان يفضِّل سكنة لاين الصبة على الآخرين، ومتى يشتد الحر لا يرفع السعر؛ لأننا زبائنه الدائمين يعني عندنا اشتراك معه يبدأ من بداية نيسان ولغاية نهاية تشرين الأول.

- الكَركَيعان: ظاهرة شعبية فلكورية موعدها في شهر رمضان من كل عام، نحن أولاد وبنات الشارع نتحضر لها ونشكل مجموعة، وكل واحد بيديه قطعتان من الخشب نصفق بهما لإحداث صوت عالٍ يشبه الصفقَة البصراوية، وأعتقد أن الاسم الشعبي هذا مصدره القرع، أي قرع الخشبات أو قرع أبواب البيوت، طبيعي كانت العوائل في صيف البصرة تنام على سطوح المنازل، ونحن نتجمع في باب الدار ونكَركَع ونقول (كَركَعيان وكَركَعيان كل سنة والليعان تنطونة نعطيكم رب العالي يخليكم، يهل السطوح تعطونا لو نروح)، فينْزل أحدهم ويعطينا المقسوم إما شوية فلوس وإما ملبس وجكليت وحامض حلو، ونحن

عندنا كيس قماش نضع فيه هذا المقسوم، أحيانًا بعض البيوت يرشون علينا الماء من السطح، ما يستحون لأن إحنا أولادهم، فنحن نرد عليهم بأهزوجة (رشوا علينا الماء يا بيت الفكَر) فيسارعون بالنزول ويعطونا ليضمنوا سكوتنا، مع الزمن كل شيء يتطور فتطورت الكَركَعيان إلى (ماجينا ياماجينا حلى الجيس وأعطينا تعطونا نعطيكم لبيت مكة نوديكم).

كنا من أيام زمان أيام الصبا نحسب لهذا اليوم الجميل الحساب، حاليًا نسمعه كأغنية في التلفزيون حالها حال الأغاني الشعبية القديمة ما بها لا طعم ولا حلاوة.

– الجائزة الكبرى: ذات يوم من أيام الأحد، والحر على أشده في شهر تموز من عام ١٩٥٦ سمعنا في لاين الصبة هلاهل انطلقت من أحد بيوت اللاين بعد الغداء، تجمع أهل اللاين أمام البيت السعيد ليعلنوا على الجميع أن ولدهم قد ربح جائزة اليانصيب الكبرى في لندن، وقدرها مئة ألف باوند إنكليزي، بعد شرائه بطاقة يانصيب من شركة نفط البصرة؛ لأن ابنهم كان عاملاً فيها، وحاليًا تُسمى شركة نفط الجنوب.

المهم الهلاهل تصدح، والواهليات ترش، وصواني البقلاوة توزع على الجميع، لاين الصبة صار به عيد وعرس، وعند المساء جمع الرابح فلوس (دين عليه) من أهل اللاين واشترى سيارة جديدة، ونحن أولاد اللاين نمسح السيارة، كل ساعة نمسحها ونلمعها وناس تطبل وناس تهلل.

في اليوم الثاني اشتروا أثاثًا جديدًا ورموا الأثاث القديم في اللاين، والناس تبارك للأب والأم ولكل العائلة، يرد عليهم الأب (انه طاف عليه هيبل زيوه وسلمه

جفية بيضاء مطركَة) وبدأت الناس تؤلف وتحوك الأساطير والحواديث وتعالَ اسمع، المشكلة باعوا الهايشة والأب متهمين وعايش على هذه الهايشة، مرت ثلاثة أيام والاحتفالات على قدم وساق واللاين معيد، ونحن الأولاد مكيفين، والكل ينتظر استلام الجائزة حتى يعم الخير لاين الصبة، هنا جاء والدي وعباس سيف رحمهم الله وقالوا لصاحب بطاقة اليانصيب لنتأكد من فوز البطاقة بالجائزة، فذهب معهم إلى مقر شركة النفط الإنكليزية (البي بي سي) في منطقة المفرق، وعادوا بعد ساعتين ليعلنوا خبرًا كالصاعقة (يا ناس، يا عالم، الاسم نفس الاسم لكن رقم البطاقة يختلف، يعني مو صاحبنا هو الفائز وإنما الفائز من سكنة لندن، وفاز بالبريمو واستلم قبل ثلاثة أيام الجائزة وتبرع بعشرة آلاف باوند للصليب الأحمر)، كلنا فشينا وبدأ أهل اللاين الديانة يجتمعون وأخذوا السيارة والأثاث أمانة لحين التسديد، انتهت السالفة، وناس حزنت وناس فرحت والله أعلم ما في النفوس.

وهناك أيضًا العديد من الشخصيات الفلكلورية لها بصمة واضحة وذكرى جميلة في حياة الشباب ولاين الصبة في الخمسينيات:

- تومان: رجل بصراوي أفريقي الملامح بصري الأخلاق واللهجة، يعرفه الجميع، يتجول في سوق المغائز ذهابًا وإيابًا صباحًا ومساءً، يصدح بمزماره (فيفرة صنعها من قصبه) أعذب الألحان، والغريب بالأمر أن تومان ينفخ بأنفه العريض وليس بفمه ألحانًا جميلة لأغاني مشهورة تحبها الناس. وخلفه لوحة كبيرة من الخشب لُصِقت عليها صورة ملونة للفيلم السينمائي الذي يُعرَض في وقته في

سينما الرشيد، وبعدها سينما الحمراء، ويوزع إعلانات ملونة دعاية للفيلم المعروض، فيلفت انتباه المواطنين المزدحم بهم سوق المغائز على مدار الساعة... إنه يبث دعاية بأسلوبه المحبب للناس، وتومان شخصية مؤدبة طريفة يتلاطف مع كل الشباب ويعزف لهم أحلى الألحان التي يطلبونها منه، والله هذا الرجل يمتلك موهبة عالية صقلها بالتدريب اليومي ويصلح تمامًا أن يكون عنصرًا مهمًا في أرقى فرقة موسيقية بما فيها الفرقة الماسية وفرقة أم كلثوم؛ لأنه كان دائمًا يصدح بأغاني أم كلثوم فيجيدها بدقة عالية وأنغام شجية.

– هاتو: رجل مندائي خيِّر مسن من أجدادنا المندائيين المتهيمنين، امتهن مهنة النجارة في صباه وأبدع فيها، يسكن في لاين الصبة مع ولديه كريم وستار، عدة النجار التي يملكها عبارة عن فأس كبير وفأس صغير لا غير، وبهذا الفأس يصنع البدع، ينجر به ويقطع به وينحت به، يحده بقطعة حجر ترافقه باستمرار، كلفه صديقه جدي يوسف أن يعمل لهم بلكونة، وسلموه الخشب وبدأ الرجل يعمل بنحت الخشب بالفأس في اللاين ونحن نتفرج عليه مندهشين من دقة استخدامه للفأس وكأنه إزميل مايكل أنجلو، النحات المشهور، أو النحات العراقي المعروف خالد الرحال.

عندما أكمل أبو كريم البلكونة أصبحت تحفة نادرة لعمل مثلها الآن يحتاج النجار أو الفنان أجهزة ومعدات كثيرة، كان رحمه الله يدق المسامير بالفأس وينشر الخشب بالفأس ويصقل الخشب بالفأس، ومن الغريب أنه ينقع المسامير بالنفط، وعندما سألته عن السبب قال:

– النفط فيه زيت يزيل الزنجار (الصدأ) ويمنع حدوث فطر في الخشب.
رواه لهولي الأب الطيب هاتو الزهيري أبو كريم.

– منصور الراكَوص: رجل طويل رشيق جميل محفحف محمر مكحل مصبغ كامرأة ليلة زفافها، يرتدي بدلة رقص ويرقص في الأفراح والأعراس في لاين الصبة بصحبة فرقة الخشابة البصرية فرقة الهيوا البصرية، خفته وأداؤه في الرقص أحسن من سهير زكي، ونجوى فؤاد في عز شباهن، الخشابة تعزف له أعذب الألحان وهو يتمايل ويتلوى، وهناك وصلات غنائية تقدمها فرقة الخشابة، معظمها أغاني بصرية مصحوبة بالصفكة البصراوية المميزة، والرقص البصري الذي نشاهده الآن في الأغاني الخليجية في قناة وناسة، أما فرقة الهيوا فأظنهم من أصول إفريقية، ويسموهم أهل البصرة البحارة.
أهل العرس أيام زمان يفرشون السطح بالبسط والسجاد ويضعون أنواع المزات والشراب ويتوافد المدعوون وتسمع أحلى الإيقاعات والرقص والغناء من المساء لغاية ساعة متأخرة من الليل، ونحن أولاد لاين الصبة فرصتنا نتفرج ونشبع مزات، منصور يرقص والناس تعلق له فلوس بملابسه، ربع دينار لونه أخضر كان له في الخمسينيات قيمة، أما الآن فلا يساوي شيئًا البتة.
الرجال مَن تصعد عندهم الغيرة بعد ثالث بيك تعلق لمنصور الفلوس فيهز منصور منتشيًا، ويضع قدح الخمر على جبهته ويرقص بموازنة عجيبة، إنه منصور الراكَوص العجيب.

- راضي أبو حصان: رجل في الثلاثين يلبس دشداشة وغترة بيضاء مثل عامة أهل البصرة أيام زمان، يملك عربانة يجرها حصان متخصص بتوزيع الثلج على بيوت لاين الصبة المشتركين فقط أيام أشهر الصيف، راضي شخصية فلكورية بصرية لطيفة يتكلم مع حصانه ويعامله بحنيه ومحبة، فيفهم ما يريد منه وينفذ تعليماته، بعد أن يوزع راضي الثلج على البيوت المشتركة أحيانًا راضي يقف بالظل والحصان يعرف البيوت المشتركة فيقف عند الباب ويتحمحم، راضي يرتاح قليلاً قرب دكان ذياب أبو الثلج ويشتري منه قنينة ببسي يشربها هو والحصان جرعة له وجرعة للحصان، يقول راضي: هذا الحصان حبيبي، أشكو له همي ووحدتي وكل مشاكلي، فهو الوحيد الذي يحس بي ويفهمني، ولم أجد مَن هو أخلص وأصدق وأرحم من هذا الحيوان، وعندما يتعب في الأيام الحارة جدًا (الشرجية) يتحمحم فأفهم أنا ما يريد مني فأهتم به وبراحته؛ لأنه صديقي.

ذكرني راضي وحصانه بقصة الكاتب الروسي تشيخوف وحصانه الذي كان يشكو له حاله ليتعاطف معه.

وذكرنِّي بأغنية فهد بلان "الحصان"..

وبمعلقة عنترة بن شداد العبسي:

فَــازْوَرَّ مِــنْ وَقْــعِ القَنــا بِلِبانِــهِ   وشَــكَا إِلَيّ بِعَــبْرَةٍ وَتَحَمْحُــمِ
لـو كـانَ يَـدْرِي مَـا المُحـاوَرَةُ اشْـتَكَى   وَلَكـانَ لـو عَلِـمْ الكَـلامَ مُكَلِّمِـي

عرب وين طنبورة وين

لاحظت ضابطًا عراقيًا برتبة فريق يستطلع جبهة القتال بالناظور (الدوربين)، فتذكرت الحرب العالمية الأولى وما قبلها، هل من المعقول ونحن في عام ٢٠١٤ وما زلنا نستطلع بالدوربين، ومَن يستطلع؟ ضابط برتبة فريق يا سبحان الله؟

الدوربين رحل مع القوس والنشاب، وحاليًا يستخدمه الصيادون مركبًا على بندقية الصيد، العالم تطور، والعلم العسكري تطور بشكل مذهل، أين نحن من هذا التطور؟ نحن في حرب إيران كنا أكثر تطورًا عشرات المرات مما نشاهده الآن، الجيوش المتطورة، القائد في غرفة العمليات ومعه هيئة الأركان وأمامهم شاشات إلكترونية ترسل لهم لحظيًا صور ميدان المعركة من طائرات الاستطلاع المتنوعة وغيرها من الأقمار الصناعية التي تغطي ساحة المعركة بكاملها، وقد قسموها إلى ميادين (Zones)، وعلى ضوء هذه المعلومات الاستخباراتية يتم تحريك قطعات الصولة الأولى، تتبعها القطعات المقاتلة مستثمرة الفوز، ثم تتقدم القدمات الإدارية الساندة لإدامة المعركة، تدعمها المعدات والطائرات والصواريخ، وكلها محسوبة بتوقيتات دقيقة، متى تتقدم ومتى تُعَزز وكيف يتم إسنادها، ومتى تستخدم مدفعية اللواء، ومتى تضرب مدفعية الفرقة، ومتى تشترك مدفعية الفيلق، ومتى يتدخل طيران الجيش، ومتى تتدخل القوة الجوية الضاربة بالقاصفات الخفيفة أو الثقيلة لتمهيد محاور التقدم وتجريد العدو من

قدراته. ومتى تستخدم صواريخ أرض أرض قصيرة المدى، وعلى أي المحاور تتقدم وكيف تنسحب انسحابًا منظمًا عند الضرورة، ومتى تنفذ الهجوم المقابل، ومتى تستخدم قوات الاحتياط، ومتى الأسلحة تتقدم، ومتى، ومتى، ومتى، وأمور كثيرة وكبيرة يجب أن يكون القائد ملمًا بها ومستوعبًا نظريًا وعمليًا أحدث نظريات علوم الاستراتيجية والتكتيكية (السوق والتعبئة) بشكل علمي مدروس ومتطور يواكب تطور الأسلحة والجيوش الحديثة التي تعتمد النوعية وليس الكمية، ما هذا الذى نراه! والله مهزلة.

ولهذا سأحكي لكم حكاية زغيرونة (عرب وين وطنبورة وين):

يُحكى أن رجلاً في إحدى قرى الجنوب متزوج من امرأة بكماء (خرساء وطرشاء) اسمها طنبورة تعودت أن تنام مع زوجها عندما يفرش لها الإيزار.

وذات يوم انكسرت السدة الترابية التي تحمي القرية من الفيضان والمياه تجري بسرعة لتغرق القرية، سارع أهل القرية كلٌّ إلى بيته وحلاله؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ومعهم زوج طنبورة، جاء لبيته يركض على وجه السرعة فرش الإيزار وذهب مسرعا لجلب منضدة الفراش والملابس المهمة ليضعها بالإيزار ويشده لكي يحمله بعيدًا، فوجد زوجته طنبورة وقد نامت على الإيزار كالعادة، فقال (عرب وين وطنبورة وين)، فذهبت مثلاً.

تمر الشعوب عبر التاريخ بِمِحَن عديدة وكبيرة، وتخرج منها، وقد تعلمت الدرس واستفادت من التجربة، فهذه ألمانيا، وهذه اليابان مثلاً يُحتذى به، وفي مناقشة

مع الأخ المثقف جابر ربح، توصلنا إلى أن اليابان قد دُمِّر العديد من مدنها وخاصة هيروشيما وناكازاكي.

كذلك دمرت الحرب العالمية الثانية، البنية التحتية والجيش والمعامل الصناعية وتراجع الاقتصاد، وانهارت المعنويات بعد الاستسلام ورؤية الإمبراطور هيرو هيتو (الشمس المشرقة) في يوم ممطر اختاره الأمريكان لإذلال الإمبراطور وهو يُوقِّع وثيقة الاستسلام في بارجة أمريكية.

بعدها اجتمع العلماء والفقهاء والأدباء والقادة السياسيون والعسكريون وأساتذة الجامعات بمختلف الاختصاصات وتدارسوا الموقف وكيف يُخرجون البلاد من هذه المحنة، كانت المقترحات كثيرة والأفكار وفيرة، لكنهم أنصتوا لصوت العقل والحكمة عندما قال حكيمهم:

- يا سادة اسمعوني إن كنتم جادين في إعادة بناء بلدكم بناءً صحيحًا وبسرعة فائقة، فضعوا الخطط العملية الجادة لبناء الإنسان واحترام الزمن، إن نجحتم فى تحقيق هذين الهدفين، فستصبح اليابان خلال زمن وجيز من أحسن بلدان العالم تطورًا في كل المجالات.

وهذا ما كان.

والمضحك والمبكي نحن العراقيون ماذا فعلنا وماذا خططنا بعد الاستسلام وعلى ماذا اتفقنا، وإلى أين وصلنا وماذا بنينا؟ وأين حكمائنا وأين ذهب صوت العقل؟ أليس من حقنا أن نقول (عرب وين وطنبورة وين)؟

رحمة حيوانية

شاهدت الكثير من غرائب عالم الحيوان أثناء هجرتها السنوية في قارة أفريقيا، عندما يأتي فصل الصيف وتشح الأمطار، وتنحسر مياه البحيرات والمستنقعات والأنهار، وتصاب بجفاف قاتل، ويندر الكلأ والعشب والأحراش، تبدأ الحيوانات بهجرة عظيمة، مئات ألوف الحيوانات تتوجه بقطعان كبيرة تقطع مسافات طويلة ومساحات شاسعة تبحث عن الطعام والماء فتصطادها الحيوانات المفترسة الكاسرة والطيور الجارحة الكبيرة، فيعترض طريقها نهر عريض سريع الجريان فتبحث عن أضيق مكان وتزدحم لعبوره مضطرة، وهنا تكمن لها التماسيح الأفريقية العملاقة فتفترسها أثناء العبور؛ لأنها تكون في الماء ضعيفة وبطيئة الحركة عليها أن تقاوم التيارات المائية الجارفة وأن تتسلق حافة النهر العالية، وهنا فرصة مثالية للتماسيح لتعيث فسادًا وتأكل الكثير منها بشراهة.

والشيء الغريب الذي شاهدته أن غزالاً جميلاً بريئًا تردد في العبور مع قطيعه ولكنه بعد أن شاهد قطيعه بدأ يتسلق الحافة الأخرى من النهر اقتحم الماء مسرعًا يريد اللحاق بمجموعته، وهو يصارع الأمواج لوحده، تقدم له تمساح كبير فاغرًا فاه مكشرًا عن أنيابه كأنها منشار قطع الأشجار الضخمة، وتمكن من عضه في طرف ساقه الأيمن الخلفي، الغزال المسكين يجاهد للخلاص والتمساح يحاول الإمساك به، الغزال لم يستسلم ما زال يحاول الإفلات فيسبح بكل ما أوتي من قوة، إنها مسألة حياة أو موت، وهنا وفي هذه اللحظات الحرجة يتقدم

فرس النهر لإنقاذ الغزال المسكين ويهدد التمساح بحجمه الهائل وقرونه القوية، ويقف بينه وبين الغزال، يخاف منه التمساح فيترك الغزال، لكن الغزال أُصيب بجرحٍ في ساقه وبالإجهاد، لا يستطيع مقاومة التيار الجارف، ولا يقدر على تسلق حافة النهر، يساعده فرس النهر ويحنو عليه ويدفعه بقرونه بهدوء وحنية نحو حافة النهر ويوصله إلى اليابسة، الغزال أصبح في الضفة الثانية بفضل فرس النهر ومروءته، الغزال ينظر إلى فرس النهر بكل حب ومودة وعرفان بالجميل ويعز عليه فراقه ولكن ما باليد حيلة عليه أن يلحق بالقطيع، الغزال يهز رأسه تحية لفرس النهر وهو يذرف الدموع مودعًا صديقه الذي أنقذ حياته بدافع الرأفة والرحمة ومقاومة الظلم، إنها والله إنسانية ورحمة حيوانية غريبة أحيانًا لا تتوفر عند الإنسان الذي يتبجح بالإنسانية وهو يقتل أخيه الإنسان، بالله وبالإنسانية انتقامًا ولإشباع غريزته العدوانية، ويعلم علم اليقين أنه لا يستفيد شيئًا من قتله إلا لإشباع غله وإشباع لنفسيته المريضة، وهذا ما نراه مع الأسف الشديد في وطننا العراق الحبيب.

ورحم الله شاعر العراق صفي الدين الحلي حين قال:

ما أبشع الإنسان في أحكامه ... إن أنت تضربه شكا وتبرما
ويقتل حيوانًا بريئًا وادعًا ... ولن يحس أنه قد أجرما
ولقد أرى الحيوان حينًا ظالمًا ... لكن أرى الإنسان منه أظلما
إذ لا أرى الحيوان مالك حيلة ... عنه يرد بها البلاء المبرما

التأمل

أجدادنا السومريون دوروا القلم المسمار بأيديهم ورسموا الحروب فاخترعوا الكتابة فكتبوا واخترعوا الدولاب ليدور، وصنعوا الناعور الدوار، وكانت عندهم رؤية وأفكار تدور في رؤوسهم، فأسسوا الحضارة الإنسانية للبشرية وطوروها، فالماكينة الصناعية تدور، والماتور يدور ليولد الطاقة، وفي الحقيقة كل شيء في الكون يدور، فالأرض تدور والكواكب تدور والأقمار والشموس تدور، وحتى الأفكار في الرأس تدور، حتى عقلك يدور حول عقلك، ولكي نكسر الدائرة التي يدور فيها عقلك وجسمك، نحتاج أن نستريح بعض الوقت عقليًا ونفسيًا بالتأمل، ونسأل عقلنا لماذا كل شيء يدور؟

الحياة المعقدة أوصلتنا كحالة ناعور يدور حول نفسه مرغمًا (يترس ماي ويبدي) وكذلك عقولنا لم تختر الدوران حول نفسها لكنها مرغمة أن تدور حول نفسها لتفهم الأشياء؛ لأن العقل لا بد أن يعرف غيره ليعرف قدراته، وعلينا أن نفكر في أنفسنا كما قال سقراط (اعرف نفسك بنفسك).

لماذا كل هذا الدوران وكل هذا القلق وكل هذا الجهد؟ الغني يدور لمزيد من المال والعالم، يدور لمزيد من العلم، علينا أن نمنح أنفسنا وقتًا كافيًا للتأمل، للهدوء، للسكينة، لنتذوق الموسيقى، ونستطعم الطعام، ونعيش الحب والسعادة والأمل، ونتأمل ما الذي يجري في داخلنا؟ ولماذا تدور عقولنا؟ ولماذا تسافر

أفكارنا؟ ولماذا هناك مَن يحبنا؟ وهناك مَن يكرهنا؟ لنصحح مسارات أفكارنا، ولماذا يتمكن بعض القادة من تسخير ملايين الناس لتبني أفكاره والموت من أجله؟

علينا أن نتأمل كيف تسافر أفكارنا مئات الكيلومترات لزيارة عزيز علينا أو لبيت الصبا والشباب.

في الحلفاية، ومسعيدة وقلعة صالح، وسوق الشيوخ والجر وغيرها، وصدق الشاعر أبو تمام، إذ قال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبيب إلا الحبيب الأول

كم منْزل في الأرض يعشقه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منْزل

علينا أن نتأمل كيف تشعر أن ابنك قادم لزيارتك الساعة ويتحقق شعورك، كيف تشعر أم أن وليدها الرضيع النائم بجانبها سيسقط من السرير وتفز مرعوبة تجد فعلاً ابنها على حافة السقوط؟

علينا أن نتأمل ما قام به مجموعة من العلماء أن أخذوا جراء كلبة لمسافات بعيدة عن أمهم، وعندما أوخزوا أحد الجراء رجفت الأم ونزلت من عينيها الدموع، وعندما ذبحوا أحد جرائها ارتعدت وصرخت وهاجمت كل مَن يراقبها.

علينا أن نتأمل كيف حمام الزاجل ينقل الرسائل، علينا أن نتأمل لماذا نموت؟ ولماذا الموت حق؟ ومن أين جاء هذا الحق؟ وإلى أين نفوسنا تذهب؟ وهل حقًا تذهب إلى المثيل الملاك؟

نتأمل لماذا الذي يملك مزيدًا من المال يسعى لجمع المزيد والعمر محدود؟

وعندما كنا نعيش في وطننا العراق كنا نجهد أنفسنا ونقسو عليها للحصول على المال، وهذا الجهد العالي يسبب لنا متاعب صحية فندفع هذا المال للأطباء.

علينا أن نتأمل لنعيد بعض الحسابات ونصحح بعض المسارات، ونسأل أنفسنا لماذا تدور عقولنا حول العراق وما يجري في العراق؟ ولماذا تسافر أفكارنا كل يوم للعراق، لماذا نشاركهم المأساة؟ ولماذا نشعر بمعاناتهم وبالحر الشديد رغم بُعدنا عنهم آلاف الأميال؟ لماذا نهتف معهم ونتفاعل معهم؟ علينا أن نتأمل لنفهم حل اللغز المحير.

إننا والله في حيرة من أمرنا لفك هذه الألغاز، لكن الحيرة بداية الهداية، وإننا في قلق، والقلق بداية الاطمئنان على النفس؛ ولأن التساؤل يعني البحث عن الجواب، والشك بداية المعرفة لتعرف نفسك بنفسك كما قال سقراط في ساعة تأمل، كما يفعل الناس في اليابان والصين عندما يمارسون رياضة اليوجا لغرض التأمل، إنها رياضة الروح والعقل والجسد، وتطوير الفكر وتقوية الرؤية وتعميقها وسبر أسرار الكون بالتأمل.

العلماء كانوا يعتقدون أن الحيوان بلا إحساس، إنه ينظر للآخرين لكنه لا ينظر إلى نفسه، واليوم باستخدام الأجهزة الإلكترونية المتطورة يثبتون أن للنبات إحساس، أنه يحس بالعصافير والفراشات، وأنه يتأثر ويتألم إذا قُطِع غصن منه، وأنه ينتعش بالحنان والموسيقى.

إنها أفكار كثيرة وكبيرة تدور في عقل الإنسان، الإنسان مهووس بالمعرفة يريد يفهم ماهية الكون والحياة، يريد أن يتأكد أن هناك عقلاً عظيمًا وحكمة راقية

تنظم هذه الدنيا وتسير أمورها، وأن عقولنا جزء بسيط جدًا من هذا العقل الأعظم، فإن كان العقل الإنساني وما يدور فيه من أفكار ما زال لغزًا، ما زلنا نحاول أن نفهمه لمحدودية إمكاناتنا فكيف نفهم العقل الأعظم؟ فعلينا أن نبحث في داخلنا بالتأمل في أفكارنا وما يدور حولنا، واجب علينا أن نتأمل نفوسنا وأسباب خلافاتنا ومستقبل أولادنا، ولماذا هجر بعضنا ديننا وتزوج من دين آخر، علينا أن نتأمل تضارب قراراتنا، علينا أن نتأمل في كتابنا المقدس ونفهمه فهمًا دقيقًا لكي لا نختلف، علينا أن نتأمل أسباب ضعفنا وكيف نعالجها لغرض ديمومة ديننا ومستقبل أجيالنا، إنها فترة الراحة التي نحتاجها لراحة عقولنا من التفكير بهدوء وطمأنينة، إنها مساج للعقل، إنها حالة من الرومانسية لراحة عقلك وفهم نفسك ومعالجة مشاكلنا بعقل وحكمة بالتأمل.

عريب العربة

عريب العربة رجل تجاوز السبعة عقود، مهابًا، وقورًا، حكيمًا تحبه الناس ويحترمه شيوخ عشائر الجنوب ويسترشدون برأيه الصائب، صاحب مضيف وفريضة زمانه، حتى ذاع صيته وتحتكم إليه الناس من كل صوب وحدب، امتد به العمر فهرم فحضرته المنية، فجلس ولده الكبير حرز عند رأسه والرجل يحتضر وبكى، ففتح عريب العربة عينه وقال:

– يا ولدي الزلم ما تبكي يا حرز.

فأجابه ولده حرز، والدموع تسيل على وجنتيه:

– أنا يا أبتِ لا أبكي عليك بل أبكي على نفسي.

– ماذا تقول يا ولدي؟

– أقول يا أبتِ، سيأتيني الناس من كل مكان يريدون أن أحكم بينهم، وأنا لا أعرف، وسيضحكون عليَّ ويستهزئون بي.

– لا يا ولدي حرز، المسألة بسيطة، اسمعني جيدًا:

إذا جاءك مجنونان، فاقسم عقلك يا بني بينهما ودعهما يتفاهمان، وإذا جاء عاقل ومجنون فخذ من عقل العاقل، وأعطي للمجنون، ودعهما يتفاهمان.

فقال حرز:

– يا أبتِ، وإن جاءني عاقلان ما أنا بفاعل يا حكيم؟

قال وحشرجة الموت في صوته:

– يا بني اطمئن؛ فالعقلاء لا يأتون إليك وسيحلون مشاكلهم فيما بينهم، ولا يحتاجون أحدًا يحل مشاكلهم؛ لأنهم عقلاء.

(والحليم تكفيه الإشارة).

القدر يغلب الحذر

سعيد معلم القرية، شاب وسيم يحبه ويحترمه أهل القرية، يتردد على مضيف الحكيم عريب العربة، ويستأنس بفراضته وينهل من حكمته ومن المعجبين بذكائه وقدرته على تحليل الأمور واتخاذ القرار الصحيح.

مساء كل يوم يتمشى في الطريق الترابي المحاذي لحافة مياه الهور، يحسب خطواته حذرًا من مخلفات الأبقار والجاموس التي تطرز الطريق الترابي، يدندن مع نفسه بأغنيات يحبها، وقد سرح نظره إلى أفق الهور مسرورًا بخضرة القصب والبردي وأنواع الطيور الزاهية مثل الخضيري، والزل، والحذاف، والبرهان، والقطاة، وزحمة ابلام، صيادو السمك، وفجأة اختل توازنه وسقط على الأرض؛ بسبب حفرة بسيطة لم ينتبه لها، نهض سعيد ونكث ثيابه من التراب، وسمع صوت الصياد جلوب بلمه القريب من حافة المياه:

– أستاذ سعيد التهدئ ما عثر.

فرد عليه سعيد:

– القدر يغلب الحذر.

فتجادلا واختلفا وتراهنا أن المغلوب يأخذ صاحبه إلى السينما في المدينة فيلم "عنتر وعبلة" تمثيل سراج منير وكوكا؛ ولأنهما من رواد مجلس عريب العربة قررا أن يحتكما إليه، وهكذا سارت الأمور.

دخل سعيد وجلوب مجلس عريب العربة، وهو منشغل بالقضاء بين متخاصمين،

وجلسا ينتظران دورهما، وحال انتهائه من القضية، أخذ إبريق الماء وذهب إلى أرض فضاء لقضاء حاجته بين القصب والبردي، وما هي إلا لحظات حتى انقض عليه نسر عظيم وطار به بلمح البصر وحط في جزيرة نائية ليس فيها آن ولا ودان، أطرق الرجل لا يعرف ماذا يعمل، ولكنه لمح قصرًا منيفًا على حافة البحر، فمشى إليه وطرق الباب فاستقبله رجل ختيار وصبي بعمر الزهور، رحبا به وأحسنا استقباله وأدخلاه القصر، وذهب الرجل الختيار لإعداد الشراب والطعام للضيف القادم، وبقي عريب العربة مع الصبي، يسأله:

– أين أنا؟ ومَن أنت؟ وهذا القصر لَمن؟

كثيرة هي الأسئلة التى تدور في خاطره، أجابه الصبي:

– أنا حسن بن الملك الكامل ملك البحار السبعة، أبي لا يعيش له أولاد، بقدرة قادر قبل أن يبلغ السابعة يلدغه عقرب ويقتله بالحال، فأشار عليه أحد الحكماء والمنجمين أن ينقلني لهذه الجزيرة النائية التي لا تعيش فيها العقارب لغاية بلوغي السابعة، وغدًا أنا أكمل السابعة، وأبي والحاشية والحرس غدًا يصلون لإرجاعي للمملكة، حيث تقام الاحتفالات ابتهاجًا بعودتي.

فرح حسن بعريب العربة وسرَّ به غاية السرور وسأله ببراءة الأطفال:

– قلي يا عمي بربك ما شكل العقرب؟

تناول عريب العربة شمعة ونحتها على شكل عقرب ووضعه بيد حسن، وبقدرة قادر شخصت عينا حسن وتقطعت أنفاسه وتصلبت أوصاله ومات، خرج عريب العربة من القصر لا يعرف ماذا يعمل وإلى أين يتجه، وفجأة حط عليه النسر وبلمح البصر نقله بجانب إبريقه قرب مضيفه، حمل إبريقه، وهو مذهولاً

وعاد لمجلسه، فوجد المعلم سعيد، والصياد جلوب وبقية الحضور كما كانوا، جلس الرجل في مجلسه وشرب فنجانًا من القهوة وثانيًا، وفنجانًا ثالثًا يريد أن يصحو من هول الحدث.

جمع رباطة جأشه وتمالك أعصابه مستفيدًا من خبرته وتجاربه في الحياة، وسألهم:

– ما الأمر؟ وما موضوع الخلاف بينكما ياسعيد وجلوب؟

فقصا عليه ما حصل، تأوه وسحب نفسًا عميقًا، وقال:

– والله ثم والله إن القدر يغلب الحذر، صدقوني يا ناس أن القدر يغلب الحذر.

وأخبرهم أنه في ذهابه وإيابه هذا، قتل نفسًا بريئة، وقص عليهم حكايته مع القدر، واستمر يدمدم مع نفسه:

– والله القدر يغلب الحذر، والله القدر يغلب الحذر.

الشــــرف

حرز ابن عريب العربة ترك أهله ومضيف والده؛ بسبب خلاف دبَّ بينه وبين زوجته، ولأن والده الحكيم اصطف مع زوجته لأن الحق كان معها، ركب حرز زورقه واندفع بعيدًا عن قريته يبحث عن ملاذًا يأوي إليه، كثيرة هي القرى التي تطرز حافات مياه الهور، وكثيرة هي المضايف التى تستقبل الضيوف.

حرز يقترب من قرية جميلة سبق له أن زارها برفقة أبيه عندما كان صبيًا، أرسى زورقه أمام المضيف وربطه جيدًا، ودخل المضيف وحيا الجالسين فردوا بأحسن منها، ودارت دلال القهوة وفاحت رائحتها الذكية المطعمة بالهيل، ورشف حرز رشفتين فلم يستذوق طعمها؛ لأنها ليست بمستوى طعم قهوة مضيف أبيه، فلاحظ شيخ العشيرة ذلك فسأل حرز:

– الظاهر قهوتنا لم تعجبك.

فرد حرز:

– صدقت يا محفوظ وسأعمل لك قهوة تليق بمقامك.

عمل حرز قهوة على طريقته الخاصة واستذوقها الشيخ فأعجب بها غاية العجب وقال:

– لم أشرب مثل هذه القهوة الطيبة إلا في مضيف الحكيم عريب العربة، فهل انت يا ولدي من هناك؟

فقال حرز:

- لست من هناك.

وسأله الشيخ:

- ما اسمك؟ وما عملك؟

أجاب:

- اسمي غريب وأبحث عن عمل.

فرح الشيخ وقال:

- يا غريب، أنت من اليوم تدير المضيف وتعمل القهوة وتعيش معنا وكأنك ولدي.

فرح حرز وسرَّ في غاية السرور وسُلِّم مهام المضيف من حمود الذي عيَّنه الشيخ جوال يرعى الأبقار.

شيخ القرية جاسب متزوج من ابنة عمه الجميلة الأمينة الصادقة المخلصة، يحبها ويحترمها ويسمع كلامها ويلبي طلباتها، زوجته عفراء لم تخلف له لا ولد ولا بنت، وقد مضى على زواجهما ثلاثون عام، والشيخ متمسك بها حد العبادة، فكرت عفراء وقررت أن تُزوِّج الشيخ، وعندما اختلت به في غرفة النوم فاتحته بالموضوع، قالت:

- يا طويل العمر نحن بحاجة إلى ولد من صُلبك يرث المشيخة بعد عمر طويل وصحة وعافية.

فرد عليها:

- يا عفراء أنتِ عندي بمئة امرأة والله.

ناقشته كثيرًا واستخدمت لغة العقل وأقنعته بحنو أسلوبها وحلاوة منطقها، لكنه اشترط عليها أن تختار هي زوجة ثانية له، فوافقت.

عفراء تعرف بنات القرية، فاختارت فتاة من عائلة، بناها ينجبن أولاد، فتاة بسيطة متواضعة من عائلة فلاحية فقيرة تعمل بفلاحة أرضها وتساعد عفراء في أعمال البيت وتخدمها واسمها حسنة، عفراء جهزت العروس حسنة، ودخل الشيخ عليها، عفراء أصبح لها ضرة برضاها، ولكن بقيت كل الأمور بيدها والشيخ يستشيرها في كل صغيرة وكبيرة، وبعد فترة وجيزة حملت حسنة وأنجبت ولدًا أدخل السرور على الجميع.

اعتنت عفراء وحسنة بالمولود الجديد وريث المشيخة، إنه شهر تموز وحرز ينام في فضاء المضيف، وعائلة الشيخ تنام في باحة الدار، ومع أول تباشير الصباح صرخت حسنة، فتجمع أهل البيت:

– ما الأمر؟

قالت:

– ابني قتلته عفراء خنقًا بالوسادة.

فاستغرب الجميع وذهلوا وانهار الشيخ وعفراء من هول الحدث وبشاعة الاتهام.

استعاد الشيخ وعيه واجتمع بأعيان القرية وأشاروا عليه بالحكيم عريب العربة.

عريب العربة في مضيف الشيخ جاسب وقد قصَّ عليه أدق التفاصيل وولده حرز قد أخفى نفسه بلثامه، عريب العربة يطلب من الشيخ جاسب أن يختلي بزوجته الكبيرة أولاً، وعند المقابلة حدثها عريب العربة بهدوء ووقار مُقدِّرًا مكانتها، قائلاً لها:

– يا بنت الأجاويد، أكيد ندمتِ على زواج الشيخ من حسنة، وقررتِ الخلاص من الولد، بعد أن رأيتِ اهتمام الشيخ بحسنة وولدها.

قالت:

- لا والله أنا بريئة من دم الطفل براءة الذئب من دم يوسف.

فقال لها:

- لأتأكد من صدق كلامك ترفعين ثوبكِ وتكشفين ساقيكِ وتدخلين المضيف أمام الجميع وتقسمين أنكِ بريئة.

فردت على الفور:

- أنا عفراء، بنت شيخ حيال، وزوجة شيخ جاسب، أقوم بهذا العمل المشين؟ لا والله لو قطعوني إربًا إربًا.

قال لها:

- خلاص اذهبي وأرسلي لي حسنة.

وجاءت حسنة وهي تبكي وتولول فبادرها:

- لماذا قتلتِ ولدكِ يا امرأة؟

فقالت:

- لا، قتلته عفراء الظالمة.

قال لها:

- عفراء بنت أصول، أنتِ قتلت ولدكِ، وقلتِ مع نفسك أنا ما زلت صغيرة وأستطيع التعويض، المهم أتخلص من عفراء المسيطرة على كل شيء، والشيخ لا يرفض لها طلبًا.

قالت:

- لا والله.

فأجابها:

- طيب، تكشفين عن ساقيكِ وتدخلين المضيف وتُقسمين؟

فأجابت على الفور:

- لإثبات حق ابني أنا على استعداد أن أضع ثيابي كلها على رأسي وأدخل المضيف أمام الجميع وأحلف.

قال لها:

- خلاص، اذهبي ودعيني أشاور عقلي.

خرجت وذهب عريب العربة إلى المضيف، وجلس بجانب الشيخ، وهو يفرك راحتيه، شرب فنجانين من القهوة فتذكر ابنه حرز، سحب نفسًا عميقًا وقال:

- اسمعني يا شيخ جاسب، امرأتك الصغيرة قتلت وليدها.

فك حرز لثامه وأقبل يُقبِّل أيادي أبيه وهو يصيح:

- صدقت يا أبتِ والله صدقت، أنا رأيت حسنة تقتل ولدها، كنت أنام في الفضاء أمام المضيف وحسنة وولدها ينامان في باحة الدار؛ بسبب حر تموز وشاهدت على ضوء القمر من خلال فتحة في خص القصب حسنة تُدخِل مخيطًا في يافوح ابنها الرضيع، وتقتله في الحال، بعدها وضعت المخدة فوق رأس الطفل وصرخت متهمة عفراء ظلمًا وعدوانًا.

تحرك الجميع إلى سرير الطفل وسحب حرز المخيط من رأس الطفل الطري، وهكذا انتهت الحدوثة.

الأســد

يُحكَى أن أسدًا قد وقع في حفرة نُصِب فيها فخ، مرت على الأسد سبعة أيام بلياليها وهو يزأر، أنهكه الجوع والعطش، ونال منه التعب، وهو يحاول أن يقطع حبال الفخ دون فائدة، إلى أن تحول زئيره إلى أنين، سمع صياد يجوب وسط الغابة أنينه فتقرب من الحفرة وشاهد الأسد بين الحياة والموت فرأف بحاله، وسارع بفك حبال الفخ، وحرر الأسد المسكين.

الأسد الجوعان هاجم الصياد الطيب يريد افتراسه، الصياد يقول:

- كيف يلقبونك ملك الغابة وأنت بهذه الأخلاق؟ أنا أنقذتك من موت محتم وأنت تكافئني بقتلي؟ فهل هذا عدل أيها الملك؟

قال الأسد:

- إنه قانون الغابة، البقاء للأقوى.

قال الصياد:

- ولكني أنقذت حياتك، فدعني أرحل بسلام واعتبرها واحدة بواحدة.

الأسد يتضور جوعًا بعد أن شرب شيئًا من الماء، لكن الجوع أنهكه وليس أمامه شيء سوى الصياد، الصياد قال للأسد:

- هناك حل وسط، أن نحتكم إلى الآخرين؛ ليحكموا بيننا بالعدل والإنصاف، فهل توافق على ذلك؟

- نعم، أوافق ولكن ليس أكثر من ثلاثة.

اتفقا وتحركا، فوجدا البقرة في زريبتها يحميها أصحابها، فاستأذن منهم الصياد وسألها أن تحكم بينهما بالعدل.

وشرح لها الصياد ما حدث، وهل من الذمة والضمير أن يكافئه الأسد بقتله وأكله؟ قالت البقرة:

– أنت الإنسان تستحق القتل؛ لأني أعطيك حليبي فأغذيك أنت وأطفالك وأنت تبيع أو تذبح أطفالي؛ لتأكلهم وتستفيد حتى من مخلفاتي سمادًا وحطبًا، وأكرب لك أرضك وأدوِّر لك ناعورك، وأحمل لك حاجاتك، ومع هذا كله إن مرضت أو هرمت تبيعني إلى أقرب قصاب ليذبحني ويبيعني، هذا هو عدلك وإنصافك أيها الإنسان.

قالت للأسد:

– كم أنا مسرورة أن تأكله أمامي هذه الساعة.

تحركا فالتقيا بفارس يمتطي جواده وسأل الصياد الحصان نفس السؤال، أخذ الحصان نفسًا عميقًا أتبعها بآهات وحسرات وقال:

– آه، الإنسان، ما أعظم ظلمك، وما أقسى قلبك! وأنا رفيق دربك أنقلك المسافات الشاسعة، وأقاتل معك غير هيابًا من الموت، وأجر عربتك، وأحرث زرعك، وأدوِّر ناعورك، وأحمل حملك، كل هذا وغيره، فإن مرضت يومًا ذبحتني ووزعت لحمي، تريد مني العدل أيها الظالم؟ والله لو أستطيع أن أهضم اللحم لشاركت الأسد في أكلك.

الأسد قال للصياد:

– لم يبقَ لك إلا احتمال واحد.

تحركا فشاهدا الدجاجة فوق سقف بيت عالٍ، وسألها الصياد، فقالت:
– إنسان وصياد، أعوذ بالله منك يا قاتل، هل رأيت دجاجة تقتل أو حمارًا يأكل حمارًا، وأنت تقتل أخيك الإنسان ولا تستفيد منه كطعام لتسد به جوعك، ولكن لترضي غلك ولئامك ورغبتك ومرضك النفسي اللعين، تأكل بيضي ولحمي وتذبح فراخي، وتستفيد حتى من ريشي أيها الظالم الشرير، لعنة الله عليك.

الصياد في حيرة من أمره، وقد آمن أن الأسد سيأكله لا محالة، هنا ظهر ابن آوي وسأل الصياد:

– ما الخطب؟

فقص عليه الحكاية، الأسد يرفض تدخل ابن آوي؛ لأن فرص الصياد الثلاثة انتهت، والصياد يتوسل بالأسد أن يمنحه آخر فرصة، وبعد إلحاح وافق الأسد، الصياد يعطي ابن آوي وعدًا بإعطائه أربع دجاجات وحصة من كل ما يصيده إذا تمكن من إنقاذه من الأسد، الصياد والأسد شرحا لابن آوي المشكلة والاتفاق، ابن آوي يفكر ويقول:

– أنا لا أفهم منكما شيئًا؛ لأني لا أستطيع تصور الحادث، أروني ما حدث عمليًا أريد أن أري بعيني لا بأذني.

تحركوا للحفرة وطلب ابن آوي من الأسد أن ينْزل إلى الحفرة ويريه الوضع الذي كان عليه، ففعل الأسد وطلب ابن آوى من الصياد أن يربط الأسد كما كان، أحكم الصياد شد الحبال على الأسد، وقال للصياد:

– الآن عاد كل شيء لمكانه، وأنت الآن حر، وفي حل من الأسد، وعليك أن تفي بوعدك لي.

في غفلة من ابن آوى استل الصياد سكينه وضربه فجاءت الضربة في ذيلة فقطعه، هرب ابن آوى وهو يتألم وذيله ينْزف دمًا ولسان حاله يقول:

– آه أيها الإنسان (جزاة الإحسان بكان)، فشاعت مثلاً.

ويقال إن "بكان" اسم كلب يرافق الصياد أمره بمطاردة ابن آوى

كياسة الحديث

يُقال أن رجلاً تزوج أربع نسوة، فأراد أن يختبر لذة الحديث معهن وفطنتهن وكياسة حديثهن، فبدأ بالصغرى وقال لها:

– إذا كان الصبح فأيقظيني.

فلما دنا الصبح، قالت:

– لقد دنا الصبح.

فقال لها:

– وما يدريك؟

قالت:

– غارت صغار النجوم وبقي أحسنها وأضوؤها وأكبرها، وبردت حلي الذهب على جسدي واستلذذت باستنشاق النسيم.

فقال لها:

– والله إن في حديثكِ هذا دليلاً، أحسنتِ وبورك فيكِ.

وفي الليلة الثانية، قال للتي تليها مثل مقالته للأولى، فلما دنا الصبح أيقظته، فقال لها:

– وما يدريك؟

قالت:

– ضحكت السماء من جوانبها، ولم تبقَ وردة إلا وفاحت شذى روائحها

وعطرها، وعيني تطالبني بإغفاءة الصباح.

فقال:

- نعم، صح لسانكِ، إن في ذلك دليلاً.

وفي الليلة الثالثة، قال للتى تليها مثل ما قال، فلما دنا الصبح أيقظته فقال لها:

- وما يدريك؟

فقالت:

- لم يبقَ طائر إلا وغرَّد وشدى، وملابسي بردت على جسدي، وقد أدبرت عجلات الليل وتقدمت عجلات النهار، وأصبحت أميز بين الخيط الأسود والخيط الأبيض، وليس ذلك إلا من دنو الصباح.

فقال لها:

- يسلم فمك وذوقك يا بنت الناس، إن في ذلك دليلاً.

وأثنى عليهن جميعًا.

وفي الليلة التالية، قال للرابعة مثل ما قال لهن، فلما دنا الصبح، قالت له:

- قم يا هذا، فقد دنا الصبح.

فقال لها:

- وما يدريك؟

قالت:

- أبت نفسي النوم وطالبني فمي بالمضمضة، واحتجت الخلاء، وبطني تريد الغذاء.

فقال لها:

- أنتِ أقبحهن وصفًا وأقلهن ذوقًا وكياسة الحديث، لا بارك الله فيكِ.

ثم طلقها وقال:

- ليس هنالك أجمل وأرقى من لذة الحديث والذوق الرفيع.

لكل لحية مقص

كنا أنا وعدد من الزملاء المهندسين في دورة تخصصية في إحدى المؤسسات في موسكو، في يوم الخميس أقامت المؤسسة حفلة ليلية بمناسبة تخرج دورة تخصصية، وحضر عميد المؤسسة الحفلة برفقة زوجته وابنته الشابه مع الأساتذة والدارسين، مجاملةً لنا جلس العميد وعائلته معنا على نفس الطاولة وأخذوا يشربون ويمرحون وطلب منا أن نرقص جميعًا الدبكة الروسية، ثم طلبوا منا أن نقدم فعالية عراقية فتحرجنا، ولكن ساعدنا الإخوة السوريون والجزائريون، ومشي الحال وصفقوا لنا من باب التشجيع، المهم بالموضوع الزملاء العراقيون أقنعوني _باعتباري مدير الدورة للعراقيين_ أن أطلب من العميد أن يمنحنا إجازة غدًا الجمعة لتكون لدينا عطلة ثلاثة أيام نسافر بها.

ألحوا عليَّ وقالوا سوف يوافق لأنه منتعش ومرتاح وفرحان بينا، وأنا صدقت كلامهم وطلبت من العميد ما أرادوه، العميد تجهم وتغيرت ملامحه، ونظر لي معاتبًا، ونهض وأخذ زوجته وابنته وخرج لأن الحفلة قاربت نهايتها.

أخذنا نلوم أنفسنا على ما عملناه، في صباح اليوم الثاني الساعة الثامنة صباحًا طلبني العميد في مكتبه، قلت مع نفسي يا ساتر، دخلت إلى مكتب العميد، وحييته فرد عليَّ بأحسن منها، قال:

– تفضل، اطلب ما تريد.

قلت له:

- عفوًا أنا آسف، كان طلبي ليلة البارحة ليس في محله.

قال:

- صحيح، الآن اطلب ما تريده مني وأنا جالس في مكتبي، الآن طلبك مجابًا وأنا موافق على الطلب.

وقال بالروسي بنياتنا بشير (مفهوم بشير),

- نعم مفهوم، دسفدانيا (فيمانلاه).

خرجت وأنا أتصبب عرقًا رغم برودة الجو، لم أخبر زملائي بالإجازة إلا بعد وجبة الغداء عقوبة لهم لأنهم ورطوني وأحرجوني، وتذكرت مثل أهلنا "كل لحية وإلها مكص".

الحمـَّال

كانت البصرة من المدن الجميلة العامرة بأسواقها ونواديها وملاهيها، وطيبة أهلها وأمانتهم وصدقهم وكرمهم، وكانت سوق مفتوحة لأبناء الخليج للتسوق خاصةً يوم الجمعة، حيث يقدمون إلى المدينة في يوم الخميس، يسهرون في شارع الوطني والكورنيش ومنطقة السعودية وجزيرة السندباد قرب المطار في المعقل، وصباح الجمعة يشترون الخضار الطازج والأسماك الطازجة واللحوم، ويتناولون الغداء في مطاعمها الفاخرة، وعند المساء يعودون.

سعدون حمال فقير يعمل حارسًا ليليًا عند تاجر ميسور الحال من بيت الخضيري، بنى له كوخًا من القصب في خرابة بجانب قصر الخضيري، سعدون له زوجة طيبة وبنت وولد، يسرح طيلة النهار بزنبيله في سوق الخضار في العشار المقابل لسوق الخضيري للصاغة، ويوم الجمعة من أيام السعد؛ لأنه يحصل على إكراميات، وعند المساء يعود مع زنبيله لأهله، وفيه شيء من الطماطة والخيار وشيء من الفاكهة، يكرمه البقالون شيئًا من الذي بدأت بوادر التلف تظهر عليه، تستقبله زوجته الحبابة وتأخذ منه الزنبيل، وقد هيأت له الماء ليستحم والدشداشة البيضاء، وهيأت خبز التنور ولبست أحلى ما لديها وتزوقت، وعملت صينية مما رزقهم الله ما في الزنبيل وجلسوا جميعًا للعشاء سعداء، بعدها خدرت الشاي المهيل وشربوا وشكروا الله على النعمة.

كان التاجر وزوجته الذين لم يرزقهم الله بالولد يتفرجون عليهم من الشرفة.

سعدون يطبل لزوجته التي ترقص وتغني له وهم فرحين مستبشرين، والحسرة في قلب التاجر وزوجته المشغولين بجمع المال وحسابه والتفكير بزيادته باستمرار، وفي اليوم الثاني بعث التاجر إلى سعدون وقال له إنه جاره، وأن الله أمر بسابع جار، وأنه يريد له الخير ويعز عليه أن جاره يعمل حمالاً، وعليه اليوم تأتي إلى خان الخضيري في العشار قرب سوق الخضارة؛ لأعطيك صندوق بيض تبيع البيضة الواحدة بعشرة فلوس، والطبقة بمئتي فلس، وتدفع للمحاسب عن كل طبقة مئة وخمسين فلسًا، فتكون قد ربحت بالصندوق الواحد ستمائة فلس وأنت وشطارتك.

فرح سعدون وأخبر زوجته بالبشرى وطارت من الفرح معه، وفعلاً استلم سعدون صندوق البيض وفتح في سوق الخضراوات وباع البيض خلال ساعات قليلة، وبدأ يحسب عدد المكسور وعدد المباع ولم يقبض ثمنه لأناس يعرفهم في السوق من البقالين وهو ضعيف في الحساب يعد بأصابعه.

عاد للبيت مهمومًا نوعًا ما، وقد أرهقه الحساب فاستقبلته زوجته وأطفاله، فلم يسبح ونسي أن يشتري طعامًا للعشاء، وأكلوا خبزًا وشربوا الشاي وناموا لا غناء ولا رقص.

في اليوم الثاني أخذه الطمع فأخذ صندوقين بيض وتعقد عليه الحساب، وزاد عدد البيض المكسور، وزادت الديون وداخ سعدون.

وهكذا في اليوم السادس أخذ ستة صناديق وبتشجيع من التجار، ازدادت هموم سعدون وغدت علاقته مع زوجته متشنجة لا عشاء فيه هناء ولا رقص وغناء، مرض سعدون من كثرة الهم والعناء، وأخذت زوجته الحساب وسلمته للتاجر وزوجته وقالت لهم:

- الله الغني، كان حالنا أحسن من حالنا الآن، لا هم ولا غم ولا حساب ولا كتاب، كنا مرتاحي البال على بساطة حالنا سعداء.

وعاد سعدون كما كان مرتاح البال لا هم ينغص عليه حياته.

الصائغ الماهر

سعيد صائغ معروف بمهارته ودقة صنعته وصدقه وأمانته، في عموم البصرة والخليج، وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، فتغيرت الأسعار ومنها الذهب، خسر سعيد خسارة فادحة، وباع كل ما يملك لتسديد الناس.

قرر سعيد الفقير ترك البصرة والهجرة إلى سلطنة عمان، ذهب إلى سوق الصاغة وسأل عن عمل، فوجد ورشة كبيرة يديرها رشيد معلم صياغة فلسطيني، فيها عدد من العمال المهرة، عرض مهاراته على المعلم رشيد، وبعد أن اختبره ووقف على دقة صنعته، اتفق معه أن يصنع له أنواع الأساور وأجرة الإسوار الواحد درهمان.

وافق سعيد على العرض مضطرًا، وبدأ العمل، سعيد يصنع الأساور للمعلم رشيد، وهذا يجهز محل صياغة حزقيل اليهودي حسب الطلب بكل أنواع الأساور، المعلم يأخذ أجرة عن كل إسوار اثني عشر درهمًا، يعطي سعيد المسكين درهمين فقط ويأخذ له عشرة دراهم.

وبعد حين، حدث أن إسوار السلطانة المرصع باللؤلؤ والألماس كُسِر من وسطه في مكان صعب تصليحه، طلب السلطان صائغ السلطنة حزقيل، وكلفه بتصليح الإسوار... حزقيل يسلم الإسوار إلى المعلم رشيد الذي عجز عن تصليحه، فاستعان بمهارة سعيد الذي هو الآخر احتار في كيفية لحامه وتصليحه؛ لكونه تحفة فنية قديمة صُنعت في بلاد غريبة، قال سعيد مع نفسه، من المروءة أن أصنع

سوارًا مثله تمامًا ولا أحاسب المعلم رشيد على بخله وسرقة جهودي، لعله يغير معاملته معي ويكرمني ويرفع أجرتي.

أخذ كمية من الذهب الذي تحت يديه وسبكه وصاغ السوار صياغة محكمة ونقل اللؤلؤ والألماس بعناية فائقة، ورأى أن هذا الإسوار يشبه تمامًا الأصل لا بل أحسن صنعه، وسلم الأسوار للمعلم الذي اندهش من دقة صنعه، وبدوره سلمه إلى حزقيل الصائغ الذي على الفور مضى به إلى السلطان، وادَّعى كذبًا أنه هو مَن صنعه.

فرح السلطان وأحسن إلى حزقيل وأكرمه وقربه وأعطاه ثلاثمائة درهم، حزقيل كافأ المعلم رشيد البخيل الذي ادَّعى كذبًا أنه مَن صنع الأسوار.

المعلم رشيد غير المنصف أعطى سعيد درهمين فقط كالعادة.

السلطانة انبهرت بجمال الإسوار الجديد ودقة صنعته فطلبت من السلطان أن يهديها إسوارين مثله في ذكرى تتويجه في الأسبوع القادم ومثلهما لبناته الجميلات... حزقيل يأمر المعلم رشيد أن يعمل أربعة أساور في بحر أسبوع، ورشيد يطلب من سعيد أن يعمل هذه الأسوار وهو لا يزيده شيئًا عن الدرهمين ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يشجعه بكلمة طيبة.

سعيد يفكر ويقرر أن ينقش في باطن أحد الأساور أبياتًا من الشعر يشرح فيها حاله ليتعرف عليه السلطان، وهكذا كان نقش سعيد نقشًا خفيفًا:

مصائب الدهر كفِّي ... إن لم تكتفِ فعفِّي

خرجت أطلب رزقي ... وجدت رزقي توفي

فلا برزقي أحظى ... ولا بصنعة كفِّي

كم جاهل في الثريا ... وعالم متخفي

ثم لفها بعناية وجعل الإسوار المنقوش تحت بقية الأسوار، بحيث المعلم يرى ظاهرها ولا يرى باطنها، أخذ حزقيل الأسوار الأربعة إلى السلطان وهو في غاية السرور والسعادة وقدمها للسلطان في أنها صنعته، وقدم الأساور هدايا لزوجته السلطانة وبنتيه، السلطانة مندهشة من دقة الصنعة وروعتها وهي تقلب أحد الأساور لاحظت النقش في باطنه فاستغربت وقالت للسلطان:

– ما هذا النقش؟

قرأه السلطان وقال لحزقيل:

– مَن كتب هذا الشعر؟

– مولاي أي شعر؟ أنا لم أكتب شيئًا.

– إذن أنت تكذب، مَن صنع هذه الأساور يا حزقيل؟ اصدقني القول وإلا تعرضت للعقاب.

فأخبره الحقيقة، أن المعلم رشيد مَن صنعها وعندما حققوا مع رشيد فخاف واعترف أن العامل سعيد العراقي مَن صنعها.

أمر السلطان بإحضار سعيد، وتعرف عليه وسمع حكايته مع المعلم، كافأه مكافأة مجزية وأكرمه مبلغًا من المال، وجعله معلمًا بدل رشيد، وأوصى به خيرًا، وجعله صائغ السلطان المفضل، وأمر أن يكون صائغ السلطانة، وأنشد يقول:

إذا كان سعد المرء في الدهر مقبلاً تدانت له الأشياء من كل جانب

البلاغـة

من الموروث العربي أن الخليفة العباسي، أبو جعفر المنصور، بعث إلى الإمام جعفر الصادق قائلاً له:

– لماذا لا تخشانا كما تخشانا الناس؟

فأجابه:

– لا أملك في الدنيا شيئًا أخاف عليه منك، ولا تملك شيئًا في الآخرة أرجوه عندك.

فقال:

– اتبعنا لتنصحنا.

فأجاب:

– مَن أراد الدنيا لا ينصحك، ومَن أراد الآخرة لا يتبعك.

الحلال والحرام

كنت أيام زمان في القاهرة، وكان أحد أصدقائي قريبًا "للبابا شنودة" بابا الأقباط، ودعونا لحفلة عشاء في بيتهم، وجلسنا في حديقة المنزل؛ لأن الجو كان ربيعًا، السفرجي تساعده فتاة يوزعان الطعام على الضيوف، وأهل الدار ومَن ضمنهم البابا الذي تصدر طاولة الطعام، السفرجي يوزع على الجميع، قناني بيرة أمستل صغيرة الحجم.

الجميع يشرب، قدم السفرجي قنينة واحدة لكل منا واكتفى، ساقني الفضول أن أسأل البابا بعد أن استأذنت صديقي:

– أبانا، هل شرب الكحول حلال أم حرام؟

– يا بني، قال البابا الأكل والشرب بحدود ضمن المعقول والمقبول حلال وما زاده عن حده حرام، أن تشرب مع الطعام قنينة او اثنتين لا بأس بها، منعشة تفتح الشهية وتفيد الصحة، ولكن أكثر من ذلك حرام؛ لأنها تضر صحتك وتُفقدك صوابك وتثقل تفكيرك وتؤذي جيبك، وهكذا لو أكلت مثلاً مئتين غرام من اللحم، هذا مقبول ولكن حرام عليك أن تأكل نصف كيلو وأكثر؛ لأنك أكلت حق غيرك من الناس، وأتلفت صحتك وآذيت جيبك، وهذا يا بني ينسحب على كل شيء.

تحدثنا بعد العشاء مع البابا فإذا هو أديب من الطراز الأول، وكأنك تناقش نجيب محفوظ، ناقشوه في الشعر، فكان يجيده حفظًا ونظمًا وكأنك في مجلس أحمد

شوقي، أو حافظ إبراهيم، أو عبد المعطي حجازي، تناقشنا في الدين، كان موسوعة ثقافية يفهم كل الأديان، لله دره من رجل معلم من الطراز الأول، تشعر وكأنك أمام عملاق في العلم والأدب والشعر والفن والأديان المقارنة.

الحاج والأستاذ

الحاج عبد المعطي من سكنة مصر الجديدة في القاهرة، متعود أن يذهب كل عام للحج أو العمرة، جاره العزيز أستاذ عبد الحميد المدرس في إعدادية النور، زاره ليودعه بحجه المبرور للحجاز، وكلفه بحضور أولاده الثلاثة أن يشتري له من مكه قطعتين قماش، وساعة له، ومثلها لزوجته، وسلمه ثلاثمائة دولار.

بعد عيد الأضحى بأيام عاد الحاج عبد المعطي سالًما غانمًا، زاره جاره وصديقه عبد الحميد ومعه هديه مناسبة، وحضنه وقبله وهنأه بسلامة الوصول، وقال له حجًا مبرورًا وذنبًا مغفورًا، وأثناء تناولهم شربات الفرح بسلامة العودة، قال:

- حاج عبد المعطي، إن شاء الله اشتريت لي هدايا كويسة بالثلاثمائة دولار.

بدأت علامات الدهشة على وجه الحاج عبد المعطي:

- ماذا تقول يا عبد الحميد؟ أنت أعطيتني ثلاثمائة دولار بتاع إيه؟

- يا حاج، أوام نسيت؟ كلها شهر زمان يخسه عليك.

- والله يا عبد الحميد مش فاكر، فكرني يا أخي.

- يا حاج سلمتك الفلوس بحضور أولادك هنا في بيتك.

- طيب نشوف، يا ابني حاج أشرف شفت عمك عبد الحميد سلمني فلوس قبل ذهابي للحجاز؟

- لا يابا.

- حاج مرسي، شفت عمك سلمني فلوس؟

– لا يابا.

– أستاذ عبد الله، شفت عمك سلمني فلوس؟

– نعم يابا، أعطاك ثلاثمائة دولار، وبالأمارة قال لك أن تشتري له قطعتين قماش وساعة ومثلها لزوجته.

غضب الأب على ابنه أستاذ عبدالله وقال له بانفعال:

– طيب، استنى عليَّ.

ذكاء محامٍ ومصور

قصة حقيقية حدثت أحداثها عام ١٩٨٧ في مدينة كوفنتري قرب لندن، كنت ضيفًا عند صديقي محموذ المظفر.

والحكاية أن وليام موظف بالتأمين، ساعد صديقه ألبرت الذي قُتِلَت زوجته في حادث دهس سيارة في الشارع العام، وفوق خطوط المرور، وكان السائق مخمورًا بدرجة سُكر عالية، وليام علم ألبرت كيف يحصل على أعلى نسبة تعويض مالي لا يستطيع أعلى المحامين أن يصلوا لها مقابل عشرون بالمئة من التعويض الكلي.

وافق ألبرت وأقسم على ذلك، سارت الأمور على أحسن ما يكون، قبض ألبرت ربع مليون باوند، فكر وقرَّر أن يهاجر إلى كندا وهناك يستثمر هذا المبلغ.

ذات مساء شتاء بارد جاءه صديقه وليام يريد حصته الخمسين ألف باوند حسب الاتفاق، تردد ألبرت ورفض إعطاءه هذا المبلغ وقال:

- لا أعطيك يا وليام غير عشرة آلاف باوند التي طلبها مني المحامي في بداية الأمر.

غضب وليام واحتد النقاش بينهما، وهدد ألبرت بإبلاغ البوليس إن لم يترك بيته حالاً، ومسك الهاتف مهددًا ومتوعدًا ففاجأه وليام بضربة قاضية بماشة الفاير بليس على رأسه فقتله في الحال.

استرد وليام وعيه وصعق لما شاهد ألبرت جثة هامدة، هزه الموقف، سكب شيئًا من الماء على وجهه دون فائدة، كان من الضروري التخلص من الجثة وإخفاء معالم الجريمة وآثارها.

لفَّ الجثة ببطانية وأدخلها في شلتت مندر، وبدأ يزيل كل أثر للجريمة، مسح الأرض ومقابض الأبواب، وغسل ماشة النار والأقداح وفنجان القهوة وأي شيء لمسه أو جلس عليه، فتش الممر وهيأ المصعد، سحل الجثة إلى المصعد وأنزلها وحشرها بجهدٍ جهيد في صندوق سيارة الضحية ألبرت المسكين، وعاد إلى الشقة ليتأكد أنه ضبط كل شيء، تناول جنطة النقود وخلع حذاءه ووضعه في كيس ولبس من أحذية ألبرت رغم أن مقاسها أكبر من مقاسه، وعاد فمسح كل شيء حتى الأرض مرة ثانية.

أغلق باب الشقة وقفلها بالمفتاح، وركب سيارة ألبرت وذهب بها إلى ساحل البحر، وحمل الجثة وتقرب من الماء وثقلها بحجرٍ وألقاها في البحر.

عاد وليم للسيارة على نفس آثاره وترك شيئًا من ملابس الضحية قرب السيارة وأوقف سيارة عابرة أقلته للمدينة، ومن هناك ركب سيارة أجرة لداره.

من الصدفِ المفيدة أن امرأة عجوز تجلس في بلكونة شقتها المقابلة لشقة الضحية ألبرت عبر الشارع العريض عندها منظار هوايتها النظر فيه، ورأت كيف قُتِل ألبرت، وكيف نقله القاتل في صندوقِ السيارة.

أخبرت العجوز البوليس بهذه المعلومات، كسر البوليس باب الشقة لم يجدوا آثارًا ولا أداة الجريمة ولا الضحية ولا النقود سوى أثر واحد لقدم قياس ٤٢ ودفتر تليفونات ألبرت الشخصي، حقق المحققون مع العجوز وصفت المجرم،

قالت:

– طويل، ضخم، أصلع، يلبس بدلة سوداء، ربما زرقاء، ربما رمادية اللون.

بسبب ضعف نظرها؛ ولأنها مصابة بعمى الألوان ولم تتعرف على ملامحه؛ بسبب المسافة أيضًا ورذاذ المطر وغروب الشمس.

وجد البوليس في اليوم الثاني سيارة ألبرت قرب ساحل البحر وبقربها ملابس وآثار حذاء ألبرت قياس ٤٤ باتجاه الماء ولا أثر للضحية.

حققوا مع جميع أصدقاء ألبرت المثبتة هواتفهم في الدفتر وخاصةً الذين يترددون على زيارته، وعند استعراضهم على العجوز لم تتمكن من تشخيص الفاعل، قفل المحقق على وليام؛ بسبب أن قياس حذائه ٤٢ مطابق للأثر الوحيد في أرضية الشقة، ولأن وصف العجوز ينطبق على طوله وضخامته وصلعته ولديه بدلة كحيلة، ولأنه موظف في التأمين ويعرف أن ألبرت استلم مبلغ التأمين، وأن المبلغ ضاع بفعل فاعل.

وهو بين الشك واليقين أحال القضية للمحكمة؛ لأن وليام لم يستطع إقناع المحقق بمكان وجوده ساعة وقوع الجريمة، بعد حين عقدت المحكمة هيئتها للنظر في القضية، وكَّل وليام محاميًا شاطرًا مشهورًا؛ لأنه يملك النقود وكان المدعي العام متحمسًا لإدانة وليام، وأحس أن هيئة المحكمة متعاطفة مع المدعي، وأن موقف موكله أصبح ضعيفًا.

بادر المحامي الذكي في دفاعه قائلاً:

– مَن قال إن ألبرت قد قتل؟ هذا محض افتراء من المدعي العام، أولاً لا توجد أدلة مادية ضد موكلي، ولا وجود لأركان الجريمة، الجثة غير موجودة، أداة الجريمة غير موجودة، شهادة العجوز غير واضحة، فكثير من أصدقاء ألبرت

طوال القامة، ضخام الجثث، حاسرو الشعر، بدليل أنها لم تتعرف على المتهم عند العرض، وكثير منهم قياس حذائه ٤٢، فأين أركان الجريمة سادتي القضاة؟ وإني أزيدكم علمًا أن ألبرت حيٌّ يُرزق وهو حاليًا في بناية المحكمة يريد أن يدلي بشهادته إذا سمحت له هيئة المحكمة بالدخول.

سأل رئيس القضاة المحامي والكل في دهشة واستغراب:

– أين ألبرت؟

قال:

– إنه واقف خلف هذا الباب.

فالتفت الجميع صوب الباب بما فيهم المدعي العام والقضاة، وأمر رئيس القضاة:

– افتحوا الباب ليدخل ألبرت.

فتحوا الباب، لم يدخل أحد، فقال القاضي:

– أين ألبرت أيها المحامي؟

قال المحامي:

– سادتي القضاة، كلكم اعتقدتم أن ألبرت موجود، أي أن أنتم تشكون في قتله، بدليل كلكم نظرتم إلى الباب، وبما أن القانون يؤكد أن الشك يُفسَّر لصالح المتهم، فحتمًا وليام بريء من التهمة المنسوبة إليه، وأشكركم.

صدر قرار المحكمة بعد المداولة ببراءة وليام، وافهم علنًا قرارًا قابلاً للتمييز، وعند توفر أدلة جديدة يُعاد فتح القضية.

مرت أيام ثقيلة على المدعي العام، وهو خجلان من نفسه وذكائه وخبرته الطويلة في أصول المحاكمات، هنا اتصل مصور المحكمة بالمدعي العام يريد مقابلته

لأمر هام، قال المدعي العام:

- تفضل.

دخل المصور وبيده شريط فيديو لسير المحاكمة، تفرج عليه الاثنان خطوة خطوة، وقال المصور للمدعي العام:

- لاحظ الجميع صوبوا أنظارهم نحو الباب ما عدا المتهم وليام، الذي انشغل بتقليب الأوراق التي بيديه؛ لأنه متأكد من موت ألبرت، وأنه من المستحيل أن يكون ألبرت خلف الباب.

أعيد التحقيق واعترف وليام وحُكِم عليه بالسجن المؤبد.

النمَّام

غازي، رجل لم تعلمه سنين العمر الطويلة شيئًا من الحكمة والتروي والكتمان، له صديقان، بدري، الإنسان الطيب العاقل الصادق الأمين، ومدحت، الكاذب المفتري الدجال.

حصل سوء تفاهم بين الصديقين؛ لأن مدحت يغار من بدري لأنه أحسن منه في كل الأمور، فقرر أن ينتقم منه، ويُشهِّر به دون علمه، فرماه بسهم فأخطأه إذ تكلم على بدري كلامًا مشينًا لا يستحقه أمام صديقه غازي.

وبدلاً من أن يطفئ غازي نار الفتنة ويكسر سهمها، أخذ السهم من مدحت متبرعًا وضرب به الإنسان الطيب بدري وآلمه؛ لأن نقل له كلام مدحت المسيء وأضاف عليه؛ لأنه نمام والذي فيه ما يخليه، اللهم أبعدنا عن صداقة النمامين واكفنا شرهم.

رحم الله الشاعر الذي قال:

صديقي مَن يرد الشر عني ويرمي بالعداوة من رماني

وأنا أقول:

صديقي مَن يرد الشر عني ويكسر سهم من رماني

الزوجتان الضرائر

أبو سعد جارنا في البصرة، في العقد السادس من العمر، أنعم الله عليه بحال ومال وزوجة شريفة طيبة أم أولاده وبناته.

طغى الزوج فتزوج امرأة ثانية، حاول أن يعدل بينهما، فقال للكبيرة:

– أنتِ مسئولة عن مصروف البيت وكل المشتريات.

وقال للصغيرة:

– أنتِ مسئولة عن المطبخ والتنظيف.

وقال:

– أنا كل ليلة عند واحدة، فالسبت والإثنين والأربعاء للكبيرة، والأحد والثلاثاء والخميس للصغيرة، والجمعة استراحة للجميع.

وهكذا سارت الأمور على ما يرام، الزوجة الكبيرة عندها ملقط تلتقط الشعر الأسود من شواره ولحيته، والزوجة الصغيرة تلتقط الشعر الأبيض، حتى نتفن لحية الرجل وشواربه فغدى أجرد، واستحى من أقربائه وأصحابه، فاعتكف الدار، فكر مليًا بمخرج، فقال:

– أذهب للحج شهرًا أو أكثر، فتعود الأمور على ما كانت عليه.

وحزم أمره، فقالت الكبيرة:

– أذهب معك وعلى حسابي.

فاستغرب الرجل وقال:

– من أين أتيتِ بالفلوس يا امرأة؟

أجابت:

– إني أجمع ما يتبقى من مصروف البيت.

فانبرت الصغيرة وقالت:

– وأنا أيضًا أذهب معكما وعلى حسابي الخاص.

فتعجب الرجل وقال مندهشًا:

– وأنتِ من أين لكِ المال؟

فأجابت:

– أنا أوفر من مواد المطبخ يوميًا وأجمعها، وفي نهاية كل أسبوع أبيعها للبقال.

وهكذا نُتِفت لحية الزوج مرتين، والله يساعد المتزوج اثنتين.

ويقال إن زوجته الكبيرة اسمها "حانة" والصغيرة اسمها "مانة"... فقال (بين حانة ومانة ضاعت لحايانة).

الـوراثـة

تحكي لنا المصادر أن عالم وراثة ألمانيًا، أجرى تجربة مثيرة، فوضع بيض بط ملقح مع بيض دجاج ملقح في عش واحد قريبًا من بركة ماء، واحتضنته الدجاجة إلى أن فقس كتاكيت، لاحظ بعد حين عندما اشتدت أرجل الكتاكيت وغطاها الريش الحلال، اتجهت كتاكيت البط نحو بركة الماء لتسبح بينما كتاكيت الدجاج ولت هاربة بعيدًا عن بركة الماء، ولله في خلقه شئون.

مَن قال للذئب إن أبـاه كان ذئباً ؟

يُحكَى أن أعرابيًا في بادية الجزيرة يرعى الأغنام، ومولع بتربية كلاب الحراسة التي تحرس قطيعه من الذئاب.

وجدَ يومًا في حفرةٍ ابن ذئب ما زال لم يفتح عينيه، أخذه واعتنى به، ورضعه من حليب أغنامه، ورباه مع كلابه ظنًا منه أن يستطيع تدجينه، لاحظ أن الكلاب عندما تراه تهاجمه ولا تأمن جانبه، فعمل له زريبة بجانب خيمته.

كبر الذئب والراعي يوليه جل اهتمامه، وذات شتاء بارد والراعي يتدفأ على موقد النار ويردد المواويل مع نفسه (يا ذيب ليش تعوي حالك مثل حالي) والذئب يعوي والكلاب تنبح عليه، جلب الراعي الذئب إلى خيمته ليتسلى معه ولكي يوقف العواء والنباح، الراعي يمسد على ظهر الذئب ورأسه، والذئب ممدد قرب الموقد يهز بذنبه.

الراعي غلبه النعاس فنام، فوُجِدَ في الصباح مقتولاً، وقد أطبق الذئب على زمارة رقبته فقتله في الحال، وقد أكل أجزاءً كثيرة منه، استغرب ابن الراعي وهو يصرخ:

مَن قال للذئب أن إباه كان ذئبًا؟.

التمساح و السلحفاة الصغيرة

شاهدت برنامجًا عن عالم الحيوان كيف تضع السلاحف بويضها على الساحل الرملي بعيدًا عن مد ماء البحر وأمواجه، وكيف تدفنها بدفع الرمل بأطرافها بقوة، ولاحظت كيف تفقس بعد سبعة أسابيع، وتخرج صغار السلاحف تزحف ببطء باتجاه ماء البحر، وخلال زحفها المقدس هذا، كثير منها تنفق بسبب طيور النورس والطيور الجارحة الأخرى، وهناك مشكلة أخرى تعيق تقدم هذه السلاحف الضعيفة للوصول بسلامة للماء.. هناك شارع مُعبَّد يمتد على طول الساحل تمر عليه الشاحنات الكبيرة؛ وبسبب بطء حركة السلاحف الصغيرة أحيانًا الشاحنات تسحق هذه السلاحف الصغيرة.

الغريب بالأمر أن تمساحًا كبيرًا شاهد سلحفاة صغيرة تحبو لعبور الشارع وشاهد شاحنة كبيرة تقترب فسارع والتقط السلحفاة الصغيرة بفمه وظنت أنه سيأكلها ولكنه لم يغلق فمه، وأسرع بها للماء وتركها تسبح في ماء البحر، سبحان الله الذي زرع الرحمة في قلب هذا التمساح.

برنارد شو

برنارد شو كاتب إسكتلندي، ساخر مشهور، عاش في لندن، له مؤلفات في لندن، ومقالات كثيرة، ومَن لا يعرف شو من مثقفي العالم، من أقواله (من دواعي كرهي للإنكليز، أنهم يعتبرون شكسبير أعظم مني).

من قفشاته الذكية كان له عمود في صحيفة واسعة الانتشار في لندن guardian مقابل أجر محدود، بعد حين نقل عموده إلى صحيفة independent لأنهم دفعوا له أكثر، حصل صدفة أن التقى في حفل مع رئيس تحرير صحيفة الكاردين الذي عاتبه:

– أيعقل يا شو وأنت الكاتب الرصين أن تنقل عمودك عنا من أجل المال؟

أجابه شو على الفور:

– وأنت تكتب عمودك من أجل ماذا؟

قال:

– أنا أكتب من أجل الشرف.

فأجابه شو:

– إذن كلٌّ منا يكتب من أجل الشيء الذي ينقصه.

ويحكى أيضًا أن برناد شو حضر حفل اتحاد النساء في لندن، وطرحت إحدى القيادات في الاتحاد موضوعًا مفاده أنه يجب على كل الرجال المتزوجين أن يحملوا شارة موحدة على صدورهم؛ من أجل حماية النساء العازبات منهم، حتى لا يمثلوا أدوار الحب الكاذب عليهن... فأجابها شو فورًا:

– الشارة يا سيدتي موجودة، سيماهم في وجوههم.

الضمير و الجواهري

حين كان صالح مهدي عماش وزيرًا للداخلية في الستينيات، أصدر أمرًا تعسفيًا للشرطة المحلية بصبغ سيقان الفتيات، وقص ثيابهن الميني جوب، والمايكرو جوب، وخاصةً في مدينة البصرة باعتبارها ميناء العراق الوحيد، وكانت الموضة الجديدة دائمًا تدخل منها.

انعقد في البصرة أثناء هذه الأحداث مهرجان المربد الشعري في البصرة، وقد حضر شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، وارتجل قصيدة بحضور هذا الوزير حفظت منها هذه الأبيات:

نُبئــــتُ أنـــــكَ تُوســـــعُ   الأزيـــــاءَ عتًـــا واعتســـــافا
تقـــف خطـــى المتأنقـــات   كســـا لـــكَ الأثـــرُ اقتيافـــا
وتقـــيسُ بالأفتـــارِ أرديـــةً   بحجـــــــة أن.. تنافــــــا
أترى العفـــافَ مقـــاسَ أقمشـــةٍ   ظلمـــتَ إذن أنـــتَ العفافـــا
هـــــو.. في الضـــــمائر إذْ   لا يقـــصُ ولا يخـــاطُ ولا يُكافـــا
مَـــن لم يخَـــف حكـــمَ الضـــميرِ   فمـــن غـــيره لـــن يخافـــا

ويقال إنها أُلقيت بمناسبات أخرى.

رأس المال

سماري فلاح من البو محمد، يزرع الشلب في أراضي الشيخ خليفة أبو مجيد، طوال الموسم، يكد ويكدح مع زوجته وأولاده وبناته الأربع الصغار، ينتظرون شهر نيسان موسم الحصاد.

سماري وزوجته كَاشية يحصدان المحصول بالمنجل بشق الأنفس، ويدوسانه ويذرانه، ثم يجمعانه بيدرًا يسرُ الناظر.

ولكن لَمن؟ حصة الشيخ ٧٥%، حصة الصركال ١٠%، الوري ١٠%، حصة الوزان ٢%، حصة السيد ٢%.

نظر سماري إلى البيدر الذي سُرِق أمام عينيه وعيون عياله، نزلت دموع حارة على خديه كوهّما، وكَاشية شبكت يديها على رأسها وهي تندب حظهم، وظلم القوي للضعيف.

سماري سرح بعيدًا، ماذا يعطي للحداد الذى وشر مناجله، وماذا يعطي للبقال ثمن السكر والشاي، وماذا وماذا... داخ سماري وذهلته الصدمة، لم يبقَ من البيدر العالي سوى تراب الشلب، فمسك مساحته وراح يهوس بحركة كَلب، ماجنك زارع يسماري، ماجنك زارع يسماري، ماجنك زارع يسماري... ووقع مغشيًا عليه.

قرَّر سماري الهجرة إلى سلف بعيد، ركب مع عياله وما خفَّ حمله في البلم واتجه لأعماق الهور، ووجهته قرية سبق أن زارها، وعندما اقترب من القرية عن طريق

نهر سريع الجريان يسمونه "خوره" يتجنبها البلامة لوجود سويرات مائية عميقة سحبت بلم سماري وأغرقتهم.
كافح سماري المسكين لينجو من الموت بما يملك من قوة ونشاط وقد تجمع أهل القرية وشيخهم على الساحل لا يستطيعون المساعدة لقوة السويرات المائية وعمق الخوره، نجا سماري لوحده فى آخر نفس، سماري يبكي ويولول؛ لأنه قد فقد كل شيء، وأصبح لا معنى لحياته.
سماري يريد أن يرمي نفسه في الخوره حبًا بزوجته وأولاده، ولكن رجال القرية وشيخهم الجليل يمسكون به بقوة، شيخ العشيرة الحكيم يتكلم مع سماري:
– اسمع يا ولدي، لا تخف، ما زال رأس المال موجودًا.

سماري عاد لقريته وبعد حين تزوج وأنجب، وبعد سبع سنين قرَّر زيارة القرية أم الخوره، ودخل مع زوجته وعياله، مضيف الشيخ الحكيم وسلَّم عليه:
– شيخنا الجليل، هل تتذكرني؟ أنا سماري قبل سبع سنوات غرق عيالي وزوجتي في هذه الخوره وكنتُ الناجي الوحيد.
– نعم أذكرك يا ولدي، ومَن معك؟
– هذه زوجتي وهؤلاء أولادي.
ابتسم الشيخ وقال:
– أتذكر عندما قلتُ لكَ لا تخف يا ولدي رأس المال موجود؟

شـراء العقـول

وايزمان (Wise man) الرجل الحكيم، أحدب، عامل صيانة مجِّد، يعمل في قصر اللورد الإنكليزي كمبل، في بداية إنشاء دولة أمريكا، قرَّر اللورد الهجرة إلى نيويورك للاستثمار، وأخذ معه وايزمان اعتزازًا بكفائته...

وصلت الباخرة المبحرة من بريطانيا إلى ميناء نيويورك.. في الميناء كانت هناك لجنة فحص الكفاءات المهاجرة، رحبوا بالمستثمر اللورد وحاشيته، لكنهم اعترضوا على وايزمان لكونه أحدب، ومنعوا نزوله من الباخرة... تدخل اللورد فوافقوا.

احتاج اللورد وقتًا لترتيب أموره في هذه البلاد البكر... وايزمان بحث عن عمل، راجع شركة جنرال إلكتريك الكبيرة لصناعة القبعات فاعتذروا منه، ألح بالمراجعة، فطردوه.

راجع شركة منهاتن لصناعة القبعات، شركة بسيطة صغيرة، رحبوا به وقبلوه، وأعطوه عملاً بسيطًا وراتبًا بسيطًا، بعد أن تأكدوا أنه يجيد صيانة الأجهزة الكهربائية، كانت الموتورات (Motors) تعمل ساعتين متتاليتين فقط، ثم تتوقف عن العمل؛ بسبب ارتفاع درجة حرارتها، ويجب تبديلها بأخرى ليستمر العمل.

انشغل وايزمان طوال الوقت بإطفاء الموتورات وتشغيلها، ولم يستطع أن ينام أكثر من ساعتين في اليوم، قام وايزمان بتفكيك موتور عاطل ولاحظ أن الملف يدور داخل إسطوانة صلدة، جزأها إلى أربعة أجزاء، وعزل الأجزاء عن بعضها

بخيوط الاسبست، وركَّب الموتور، وشغله، ولاحظ أنه استمر يعمل لمدة ثماني ساعات مستمرة دون مشاكل... جزَّء الاسطوانة إلى ستة عشر جزءًا، ثم لاحظ أن الموتور يعمل باستمرار دون مشاكل، ودون أن ترتفع درجة الحرارة والملف الكهربائي سليم، طوَّر كل الموتورات، وارتاح.

ذات ليلة قام مدير المعمل بتفتيش أقسام المعمل، ولاحظ أن عامل الصيانة وايزمان نائمًا، ولا يوجد مَن يراقب حرارة الموتورات، فاندهش وأيقظ وايزمان وأنَّبه، وبعد أن عرف الحقيقة، فرح به وكافأه، ورفع درجته الوظيفية وراتبه.

ازداد إنتاج معمل ماهاتن أضعافًا مضاعفة، وتحسن نوع المنتج وخفضت الأسعار وزادت رواتب المنتسبين.

استغربت إدارة معمل جنرال إلكتريك من الأمر، وعرفوا أن السر يكمن في العامل وايزمان الذي سبق أن طردوه، بعثوا له مدير العلاقات ليعرض عليه أربعة أضعاف راتبه، وايزمان رفض، قالوا له: اطلب ما تريد.

ولكن وايزمان رفض كل عروضهم المغرية، قائلاً لهم:

– إنه ضمير ومبدأ، وأنا لا أبيعهم بالمال.

إدارة معمل جنرال إلكتريك تقرر شراء معمل ماهاتن بثمن مغرٍ، وتأخذ وايزمان فقط من المعمل، وتغلق معمل ماهاتن.

هكذا تُشتَرى العقول، وهكذا تفكر الدول الصناعية المتقدمة، وهذا أحد أسرار تقدمهم، وتخلفنا.

فطنة الوالي

يحكى أن والي الكوفة كان شديد الذكاء، له مجلس لشكاوي الناس ينصفهم فيه.
وذات يوم جاء رجل غريب إلى الكوفة ومعه ألف دينار وخاف أن يدخلها معه للمدينة فيخاطر بها ولهذا وجد خارج المدينة بستاناً وفيه شجرة خروع كبيرة، فحفر في جذرها ودفن الألف دينار دون أن يراه أحد.
وبعد أن تجوَّل في المدينة وذهب إلى حمام السوق وتناول الطعام واشترى حاجته عاد في المساء إلى البستان وحفر المكان فلم يجد نقوده، فندبَ حظه العاثر وبكى ولطم وجهه وأخذَ يصيح: يا ناس يا عالم الأرض سرقت مالي.
تجمع الناس حوله يواسونه، ونصحوه أن يذهب لمجلس الوالي ويقصُّ عليه مصابه لان له فطنة... فسألهم: هل الوالي يعلم الغيب ؟!.. فقيل له: لا بأس بقصد مجلسه فعسى ولعلَ.. فجاء مجلس الوالي وقصَّ عليه حكايته.
جمع الوالي الأطباء وسألهم:
– هل داويتم البارحة أحداً بعرق السوق ؟..
فقال أحدهم:
– نعم، فلاناً وهو من خاصتك مولاي.
فقال :
– عليَّ به.
فلما جاء سأله:

- هل تداويت البارحة بعرق السوس ؟

قال :

- نعم مولاي.

- ومن جاءك به ؟

- هذا الحارس.

فسأل الحارس :

- من أين حصلت على عرق السوس ؟

قال :

- مولاي، من شجرة الخروع في البستان الفلاني.

فقال الوالي :

- يا هذا، اذهب مع الحارس فأره المكان الذي أخذت منه.

فذهب مع صاحب المال إلى البستان وأراه شجرة الخروع.. فصرخ : والله هنا دفنت مالي.

ورجعوا إلى مجلس الوالي وأخبروه... فقال للحارس :

- هلم بالمال.

فتلكأ، ثم أقرَّ وأعترفَ خوفاً من الوالي وأحضر المال الحلال.

الغشاش

كان هناك بائع فاكهة (فكهاني) في مدينة بغداد يغش الفاكهة فيضع التالف أسفل الصندوق والجيد أعلاه ويحلف أيماناً غليظة أن الفاكهة كلها جيدة ويانعة.

في يوم من الأيام جاء رجل ليشتري صندوق تفاح وسأل البائع عن حال البضاعة في الصندوق فأقسم ان أسفلها مثل أعلاها.. فحملها المشتري فانقلب الصندوق وتساقط التفاح وانكشفت حيلة البائع وغشه ..فما كان من المشتري إلا أن أمسك البائع وضربه ضرباً مبرحاً أمام الناس حتى صار لا يعرف يمينه من شماله.. وذلك جزاء غشه وكذبه.. ولأن المشتري كان يشغل منصبًا حكوميًا مرموقًا؛ شكاه لدى الشرطة التي أدبته وحبسته وبهذلت أحواله.

بعد حين خرج والكل يؤنبونه ويحتقرونه، ولا أحد يسلِّم عليه.. فراجع نفسه وقال: هذا عقاب الناس، وأين أهرب من عقاب الله يوم الحساب؟... كان يأكل وعياله من الكسب الحرام، يغش العوام... فعاهد نفسه أن يتقي الله، وأصبح لا يبيع صندوقاً إلا بعد أن يفحصه بنفسه ويتأكد من سلامة ما فيه.. فعادت ثقة الناس فيه، واحترامهم له.. وأحسَّ بالرزق الحلال وبالخير والبركة في دكانه وبيته.. وبعد أن كان لا يجد ما يغطي مصاريفه؛ أصبح أوفر مالاً.

إنها عبرة لمن اعتبر، لأن الله البصير الرقيب العليم يراكم أيها الباعة، فتجنبوا الغش، وتوبوا إلى ربكم، فهو الرزاق الحكيم .

وكما قال الشاعر :

والـــدهر يكبـــو بـــالفتى، وتـــارة ينهضـــــهُ مـــــن عـــــثرةٍ إذا كبـــا
لاتعجـ بنَّ مــن هالــكِ كيــفَ هــوى بــل فــأعجبنَّ مــن ســالمٍ كيــفَ نجــا

من حفر بئرًا لأخيه وقع فيه

قالوا إن رجلاً خلف مالاً كثيراً لولديه بعد رحيله عن هذه الدنيا، فاقتسماه، وتصرف كل واحد منهما في حقهِ .. فعمل الصغير في التجارة وأخلص في عملهِ، وكان صادقًا أمينًا كريمًا يخاف الله، فنمت تجارته، وازدادت أمواله، وأصبح من أغنياءِ الناس في زمانهِ.. يحب كل الناس، ويتصدق على المحتاجين، فكانت أمواله محصنة أبعدَ الله عنها الحسد.

أما الابن الكبير، فقد ركبته الغواية والشطط حتى أتلفَ ثروته وضيعها في الخمرِ والميسرِ والزنا، فبدَّدَ كل أموالهِ وضيَّع كل ما يملك، حتى أصبح فقير الحال... لكن أخوه الأصغر كان يعطف عليه ويساعده ويقدِّم له من المأكل والمشرب ما يكفيه.. لكن الأخ الأكبر لم يكتفِ بعطف أخيه عليه ويشكر الله، بل أخذ الحسد والغل يأكلان قلبه على أخيه، ففكرَ بخبث كيف ينتقم مِنْه ليضيع ثروته حتى يكون فقيراً مثله، ليطمئن قلبه فلا يُعيره الناس بفقرهِ وبغنى أخيهِ... فاستعان برجلٍ حسود اشتهر بين الناس بحسدهِ... وكان هذا الرجل الحسود ضعيف البصر لا يرى إلا عن قُرْب.. ذهب الأخ الأكبر إلى هذا الرجل المشهود بحسدهِ، وطلب منه حسد أموال أخيه مقابل أجر يدفعه له عند ضياع ثروة أخيه.. واصطحبه إلى طريق كانت تمر به القوافل التجارية ومنها تجارة أخيه التي ستمر من هذا الطريق بعد ساعات.. وعندما قربت قافلة أخيه وأصبحت على مرمى البصر، قال للرجل الحسود : إني أرى قافلة أخيــ فهي على بعد ميل من

هنا... فقال الرجل الحسود : يا لقوة بصرك، أتراها على هذا البعد؟.. يا ليت بصري مثل بصرك.

فشعر الأخ الكبير بألم شديد في رأسِهِ، وأظلمت الدنيا في عينيه، وعمي في الحال... بينما مرَّت تجارة أخيه سالمة غانمة لم يمسها سوء...

وهكذا، من حفر بئرًا لأخيه وقع فيه .

عمل المعروف

هذه القصة الحقيقية دارت في أسكتلندا... حيث كان يعيش فلاح فقير يدعى "فلمنج"، كان يعاني من ضيق ذات اليد والفقر المدقع، لم يكن يشكو أو يتذمر، لكنه كان خائفــًا على ابنه؛ فلذة كبده، فهو قد استطاع تحمل شظف العيش، ولكن ماذا عن ابنه ؟ وهو مازال صغيرًا والحياة ليست لعبة سهلة، إنها محفوفة بالمخاطر... كيف سيعيش في عالم لا يؤمن سوى بقوة المادة ؟

ذات يوم وبينما يتجول فلمنج في أحد المراعي، سمع صوت كلب ينبح نباحًا مستمرًا، فذهب بسرعة ناحية الكلب حيث وجد طفلاً يغوص في بركة من الوحل، وعلى محياه الرقيق ترتسم أعتى علامات الرعب والفزع، يصرخ بصوت غير مسموع من هول الرعب.. لم يفكِّر فلمنج، بل قفز بملابسه في بحيرة الوحل، أمسك بالصبي، أخرجه، أنقذ حياته.

في اليوم التالي ، جاء رجل تبدو عليه علامات النعمة والثراء في عربة مزركشة تجرها خيول مطهمة ومعه حارسان.. اندهش فلمنج من زيارة هذا اللورد الثري له في بيته الحقير، ثم أدرك أنه والد الصبي الذي أنقذه فلمنج من الموت.

قال اللورد الثري

– لو ظللت أشكرك طوال حياتي، فلن أوفي لك حقك، أنا مدين لك بحياة ابني، اطلب ما شئت من أموال أو مجوهرات أو ما يقر عينك.

أجاب فلمنج :

– سيدي اللورد، أنا لم أفعل سوى ما يمليه عليّ ضميري، وأي فلاح مثلي كان سيفعل مثلما فعلت، فابنك هذا مثل ابني والموقف الذي تعرض له كان من الممكن أن يتعرض له ابني أيضاً.

أجاب اللورد الثري

– حسنًا، طالما تعتبر ابني مثل ابنك، فأنا سآخذ ابنك وأتولى مصاريف تعليمه حتى يصير رجلاً متعلمًا نافعًا لبلاده وقومه.

لم يصدّق فلمنج ، طار من السعادة ، أخيرًا سيتعلم ابنه في مدارس العظماء.

وبالفعل تخرج فلمنج الصغير من مدرسة سانت ماري للعلوم الطبية، وأصبح الصبي الصغير رجلاً متعلمًا؛ بل عالمًا كبيرًا.. نعم ؛ فذاك الصبي هو نفسه سير ألكسندر فلمنج (١٨٨١ – ١٩٥٥) مكتشف البنسلين penicillin في عام ١٩٢٩، أول مضاد حيوي عرفته البشرية على الإطلاق، ويعود له الفضل بعد الله في القضاء على معظم الأمراض الميكروبية، كما حصل ألكسندر فلمنج على جائزة نوبل في عام ١٩٤٥.

لم تنته تلك القصة الجميلة هكذا...

بل حينما مرض ابن اللورد الثري بالتهاب رئوي؛ كان البنسلين هو الذي أنقذ حياته... نعم مجموعة من المصادفات الغريبة، لكن انتظر المفاجأة الأكبر...

فذاك الصبي ابن الرجل الثري (الذي أنقذ فلمنج الأب حياته مرة وأنقذ ألكسندر فلمنج الابن حياته مرة ثانية بفضل البنسلين) رجل شهير للغاية ، فالثري يدعى اللورد راندولف تشرشل، وابنه يدعى ونستون تشرشل ، أعظم

رئيس وزراء بريطاني على مر العصور، الرجل العظيم الذي قاد الحرب ضد هتلر النازي أيام الحرب العالمية الثانية (**١٩٣٩ - ١٩٤٥**) ويعود له الفضل بعد الله في انتصار قوات الحلفاء (إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي) على قوات المحور (ألمانيا واليابان).

هذه الحكاية العجيبة بدأت بفلاح اسكتلندي بسيط فقير أنقذ طفلاً صغيرًا ، فعلاً عمل الخير لا ينتهي أبدًا، والمحبة لا تسقط أبدًا.

الفصاحة و البلاغة

البلاغة ما تفهمه العامة ورضيت به الخاصة، ومنها البليغ: القليل اللفظ كثير المعاني...

وقيل البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة...

وسأل الحكيم أحد البلغاء:

- ما البليغ؟

قال:

- أقلهم لفظًا، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة.

وقيل: خير الكلام ما قلّ وجلّ ودلّ ولم يملّ.

ومدح الشاعر العباسي أبو اسحاق الصابئ فقال:

لك البلاغــة ميدان نشأت به　　وكلنا بقصــورٍ عنــك نعتــرفُ

مَهَّد لي العــذر نظم بعثت به　　من عنده الدّر لا يُهدي له الصَّدفُ

أما الفصاحة، هي ابتعاد الكلام عن التعقيد.

والبلاغة في المعنى والفصاحة في اللفظ، وقال حكيم:

- كلما أقللت في الكلام، أكثرت في الصواب، ودقة الوصف، ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف.

(لسان الفتى نصف ونصفُ فؤاده ولم يبقَ إلا صورة اللحم والدم).

قال الشاعر:

فأمطرت لؤلؤ من نرجس فسقت وردًا وعضت على العناب بالبرد

وقال شاعر آخر:

أرى اليوم يومًا تكاثف غيمهُ وإبراقه فاليوم لا شك مطرُ

وقد حجبت فيه الغيوم شمسه كما حجبت ورد الخدود المحاجرُ

دخل فقيه على معاوية بملابس رثة وعباءة بالية وأوجز في الكلام، فقال معاوية:
- ما أفصح هذا الرجل! ما رأيت أحقر منه في البدء، ولا أجلَّ منه عندما أفصح دررًا منضودًا في كلامه... حقًا المرء بأصغريه؛ لسانه وجنانه.

أعمى يقود ضريراً

كان حسن وسعد صديقين من العميان يعتمد أحدهما على الآخر.. يقرآن في مجالس العزاء والموالد، ويلازم أحدهما الآخر، أي (أعمى يقود ضريرًا) كما يقول المثل...

ذات يوم دعيا لوليمة دسمة في مجلس عزاء عائلة ميسورة الحال.. وبعد أن أجادا في القراءة والترتيل؛ قُدِّم لهما طبقٌ من الطعام الفاخر (دليمية)... تلمَّس سعد الطعام فوجد هبرة كبيرة من اللحم في الطبق أمام صديقه حسن، استحسنها.. فقال: أتعلَم يا حسن أن الأرض تدور هكذا ؟! وأدار الطبق لتكون هبرة اللحم أمامه... فردَّ عليه حسن: وهل كان أبوك فلكياً ؟!.. فقال: لا...

– إذن د ع الدنيا على حالها ياسعد.

وأعاد الطبق كما كان.

وعلى نياتكم ترزقون

سافر رجل ورع مقتدر من السلف الصالح وفي الطريق عطش وجاع .. فمر ببستان فشرب ماءً من الساقيةِ، ورأى شجرة تفاح ناضجة ثمارها فقطف تفاحة، وبعد أن أكل نصفها؛ انتبه لنفسه كيف يأكل من حقِ غيره دون استئذان صاحب البستان، وأقسم أن لا يواصل المسير إلا بعد أن يحلل له صاحب البستان هذه التفاحة.

سأل عن صاحب البستان فدلهُ الناس على دَارِهِ... طرق الباب.. فخرج له صاحب البستان وسأله عن حاجتهِ.. فقال صاحبنا:

– لقد أخذت هذه التفاحة من بستانك الذي بجوار الساقية وأكلت نصفها من شدة الجوع، وأسألك أن تعذرني وتسامحني على خطيئي هذه.

فكر صاحب البستان بالأمرِ، وقال له :

– لن أسامحك، إلا بشرط تكون ملزمًا بتنفيذه.

قال:

– أطلب ماتريد، وأقسم بالله أني موافق على شرطك يارجل.

قال:

– أن تتزوج ابنتي... واعلم أنها عمياء، خرساء، صماء.

فكر مع نفسه، وقال: ماذا أفعل بها، وكيف أخدمها وأداريها.. يالها من ورطة.. ثم وازن الأمور بين القبول وبين الحساب يوم لاينفع مالٌ ولا بنون... فوافق

على مضضٍ وقال: حسبي الله ونعم الوكيل.

جاء يوم الزفاف، وقد غلب الهمُّ على صاحبنا، واضطرب حاله، وتمنى لو تبلعه الأرض.. ولكنه توكل على الله.. وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ودخل عليها يوم الزفاف...

فإذا بها تقوم إليه مثل غصن البان وعود الريحان، تميل وتميل، وتدعو القلب خاشعاً وذليل... فدهش الرجل من جمالها وجمال أخلاقها ورقة ذوقها وأنوثتها وكأنها من الحور العين...

وبعد لحظات صمت أخبرها ماقاله له أبوها عنها... فقالت:

– لقد صدق أبي فيما قال...

فأنا خرساء.. لأَنِّي لم أتكلم بكلمة حرام...

وصماء.. لأَنِّي لا أسمع الغيبة والنميمة، ولا أتصنت على لغو الناس أبداً...

وعمياء.. لأَنِّي لا أنظر إلى ما ليس من حقي، ولا ،نظر لرجل لا يحل لي.

فشكر الله على هذه المرأة التقية، والهبة التي وهبها الله له صدفة...

وعلى نياتكم تُرزقون.

البخـل و الكـرم (١)

سعيد أبوه من أغنياء الزبير في البصرة، أيام زمان كان يملك معملاً كبيرًا للنسيج، وكان يعمل عنده عدد كبير من العمال، في وجبة الغداء التي يقدمها المعمل للعمال كانوا يأكلون "التمن"[١] لا غيره، وفيه قليل من الزيت، مالك المعمل يأمر الطباخ بعد طبخ التمن بأن يضع فوقه مغرفة واحدة فقط من الزيت. العمال متذمرون من هذا الحال ويشكون حالهم إلى سعيد، ابن مالك المعمل المتعاطف معهم، لكن سعيد لا يستطيع أن يفعل شيئًا؛ لأنه يعرف أباه، رغم غناه، فهو بخيل... استمر الحال إلى أن مرض الأب ومات، فرح العمال؛ لأن سعيد سيدللهم ويُحسِّن أحوالهم، لكن سعيد أمر الطباخ أن يقدم للعمال التمن بدون زيت، العمال والطباخ في دهشة، وبعد عدة أيام تجرأ الطباخ وسأل سعيد:

– لماذا لا نضع زيتًا على التمن، والعمال كانوا يتوسمون بك خيرًا؟

قال سعيد للطباخ:

– لو قلت لك ضع مزيدًا من السمن على التمن، سيشتم العمال أبي، وهذا ما لا أريده أيها الطبَّاخ ولكن اصبر عليَّ، فالصبر طيب.

(١) التمن : الأرز ، بالعامية العراقية

البخل و الكرم (٢)

أبو حمدان من أهالي أبو الخصيب في البصرة يملك مزرعة كبيرة، وعددًا من مراكب الصيد في شط العرب لصيد الزبيدي والشانكَ والصبور والروبيان، وهي أنواع من السمك تشتهر بها مدينة البصرة، أبو حمدان معروف ببخله ومقترًا على عائلته رغم أنه ميسور الحال، وكان يملك سيارة بيكب تويوتا ينقل بها السمك إلى سوق السمك في العشار ليبيعه بأسعار جيدة.

ذات يوم وبسبب سرعة السيارة، وتعرج شارع أبو الخصيب، وكثرة النخيل، والأشجار على جانبيه التي تحجب الرؤيا، انقلبت السيارة، ومات أبو حمدان، ولده يدرس في كلية الآداب جامعة بغداد؛ لعدم وجود جامعة في البصرة في الستينيات، استلم برقية من أهله أن أبيه قد مات في حادث، فركب سيارات حافظ وستار وسافر إلى البصرة، وحضر مراسيم العزاء، وبعد أن هدأت الأمور، الأم تتوسم الخير والبركة في ابنها البكر بعد ضنك العيش بسبب بخل الوالد الراحل رحمه الله.

تحدثت الأم مع ولدها حمدان، وشكت له بخل أبوه، وشحته عليهم وطلبت منه أن يوسعها عليهم ما دام الخير كثيرًا.

حمدان ينظر إلى الرف الذي وُضِع فوقه إناء الفافون فيه قطعة من الجبن وقليل من الماء.

حمدان لاحظ أن قطعة الجبن محفورة في وسطها فاستغرب الأمر، وسأل أمه:

- لماذا قطعة الجبن محفورة؟

فقالت الأم:

- يا ولدي حمدان، كل صباح كان أبوك رحمه الله، يبلل قطعة الجبن هذه بالماء، ويعطي كل واحد منا نصف رغيف من الخبز، ويطلب منا أن نمسح الخبز بقطعة الجبن، ونأكل.. ومع الوقت تقحورت قطعة الجبن هذه، أيرضيك هذا يا حمدان؟

حمدان يرد على أمه:

- والله هذا إسراف وتبذير لا أسمح به أبدًا من اليوم وصاعدًا، أنتم تومئون بالخبز إلى قطعة الجبن من بعيد وهي على الرف وتأكلون الخبز؛ لنحافظ على قطعة الجبن هذه أطول فترة ممكنة.

فاستغربت أم حمدان الله فيما بلاهم وسمعت ابنتها الكبيرة تغني لها للمطرب الشعبي عدوية (السح الدح إمبو إدي الواد لأبوه) .

البخل و الكرم (٣)

جدي مكلف سوادي أبو قاسم أبو أمي رحمهم الله، عنده مضيف في الصيف على حافة نهر المشرح في ناحية الحلفاية، حاضرة العمارة، وفي الشتاء يجتمع شملهم في غرفة الخطار في داره المقابلة للنهر، في المضيف يوجد يوميًا العديد من الضيوف، يحتسون القهوة العربية، أو يتناولون وجبة عشاء من التمن والروب أو سمك مسكوف بالتنور، ولكن عندما يأتي للمضيف خطار معوزين من فقراء أبناء الطائفة كان أبو قاسم يهتم بهم غاية الاهتمام، ويذبح لهم دجاج العرب والبشوش ويقدم لهم عشاءً فاخرًا لا يستطيعون أكل حتى نصفه مهما أكلوا، غريب مهتلف ابن أخيه كان شابًا يافعًا وفي خدمة عمه أبو قاسم في المضيف، يستغرب من الأمر ويقول لعمه:

– إني أرى يا عمي عندما يأتيك أصدقاؤك مثل مطشر أبو عبد الواحد أو شنينشل أبو نزار ووالده، أو فندي فعل أبو جبار، لا تهتم بهم كل هذا الاهتمام ولا تذبح لهم ويأكلون حالهم حالنا.

فرد عليه قائلاً:

– اسمع يا ولدي هؤلاء ميسورو الحال، لا يهمهم نوع وكمية الأكل بل تهمهم الكلمة الحلوة والترحيب الجميل والمسامرة والسوالف التي بها حكمة وموعظة وفائدة، يا ولدي الشبعان لا يحتاج إلى طعام؛ لأنه مهما تقدم له فعنده مثله وربما الأحسن ولكن يحتاج إلى حب واحترام فهو دائمًا يذكرك بخير لأنك من أخيار

الناس مثلهم، أما الفقير فيحب الاهتمام به وإشباعه حتى أينما يجلس يتحدث بكرمك وعطائك فيبث لك دعاية بين الناس، إن أبا قاسم كريم من الكرماء أعطانا وكسانا وأشبعنا ما لذ وما طاب، فهمت يا ولدي؟ يجب أن يكون الكرم في مكانه.

أنثى اللقلق

عماد في الثامنة والثلاثين من العمر، يعمل في الشورجة في بغداد، بائع زوالي في محل صغير ورثه عن أبيه في بناية كنيسة الأرمن الأرثوذكس الملحق بها مقبرة قديمة.

عماد يحب هواية تربية الطيور (يعني مطيرجي) فوق سطح غرف المقبرة، بنى عماد أقفاصًا لطيوره، سعادته عندما يأتي ولده زياد ذو الأربعة عشر ربيعًا لمساعدته؛ لأنه يتفرغ ساعة زمن ليصعد لطيوره يجهزها بالماء والطعام ويطيرها ويهز لها علمه الأبيض الذي تعرفه الطيور.

ذات يوم شتاء مشمس لاحظ عماد لقالق ذكر وأنثى يبنيان لهم عشًا فوق فنار الناقوس، عماد يراقب اللقالق كل يوم عن كثب ويتابع الأنثى وهي تجمع البيض في العش ثم تعاونا في الرقود عليه، في أحد الأيام خطرت في باله فكرة أن يستبدل بيضة واحدة من بيوض اللقلق ببيضة بطة، ونفذ ما دار في عقله.

استغرب ذكر اللقلق البيضة الغريبة في لونها وحجمها وبقي المسكين بين الشك واليقين، وانتظر بفارغ الصبر، وبعد ثلاثة أسابيع فقس البيض فشاهد وهو في حيرة من أمره فرخ البطة فاندهش وترسخ يقينه وصعدت عنده الغيرة والحمية وأخذ يقاقي ويمور ويدور ثم طار وعاد بعد ساعة زمن وبرفقته عشرة لقالق ذكور وشاهدوا فرخ البط وسط أفراخ اللقلق المسكين، قاقوا وتفاهموا وقرروا فهاجموا مجتمعين أنثى اللقلق وقتلوها، ورموها من فنار الناقوس جثة هامدة، ثم

قام اللقلق بنقر فرخ البط إلى أن قتله ورماه من العش.

شكر اللقلق الذين ساعدوه لتخليصه من الزوجة الخائنة والانتقام منها لتكون عبرة للقالق بهز رأسه وصفق لهم بجناحيه؛ لأنهم غسلوا ما لحقه من عار.

عماد يتابع الحدث ويندم على فعلته، ويرعى اللقلق وفراخة طيلة فصل الشتاء ولغاية مرحلة الهجرة والعودة إلى الوطن.

من غرائب ما لاحظته عماد أنه عندما تشتد الشمس ساعات الظهيرة أحيانًا يذهب اللقلق ويجلب كمية من الماء البارد في منقاره ويرشه على فراخه، وتفرد أنثى اللقلق البديلة جناحيها لتظلل الفراخ...

سبحان الله الذي زرع الرحمة والحنان وزرع معها الغيرة والانتقام.

هذه الحكاية حكاها عماد لكل زبائنه تقريبًا، وهو مسئول عن دقتها وصحتها.. والله أعلم.

الإعجاز

خصص هارون الرشيد مساء كل يوم أربعاء لمقابلة مَن لديه إعجاز في أمرٍ ما، وذات يوم أربعاء سأل الحاجب: – من بالباب؟

فأجاب: – عالم من علماء البصرة يا مولاي.

– أدخله لنرى ما عنده.

دخل رجل مهيب الطلعة، وقور المظهر، وألقى خطابة رنانة في حضرة الرشيد، أعجب بها جميع الحاضرين لقوة عباراتها، وجزالة لفظها، وحسن معناها لما احتوته من مواعظ وحكم، ولكن الرشيد قال له:

– اذهب راشدًا لأهلك، فمثلك الكثير في بغداد من الأدباء والفقهاء ولا أرى ما قلته يعد إعجازًا.

ونهر الحاجب قائلاً:

– قلت لك أريد إعجازًا، وليس كلامًا.

فأدخل الحاجب إلى الديوان شابًا يحمل في جانبه خرجًا أخرج منه سبع مخائط، أنبت الأول في باب الديوان الخشبي، وأنبت الثاني في خرم الأول، والثالث في خرم الثاني، وهكذا السابع في خرم السادس، فانبهر الحاضرون بمهارة الرجل ودقته، قال الرشيد:

– أعطوه سبع ليرات ذهب؛ لمهارته، واجلدوه سبع جلدات؛ لأنه شغلنا بما لا ينفع.

نتعلم من الآخرين

الأمم العظيمة دائمًا ولَّادة بالعظماء؛ والعظمة لله، وما زلنا نتباهى بعباقرة جهابذة نتفاخر بهم أمام الأمم والطوائف الأخرى، والآن نحن بحاجة إلى أمثال أولئك المبدعين في مجال العلم والأدب والفن، فلماذا نبخل بكلمة مديح وتشجيع للمواهب المبدعة، فالكلمة الطيبة حسنة يا ناس، وأضعف الإيمان أن يكون النقد بنَّاءً وإيجابيًا.

وهنا أخص بالذكر الشاب الموهوب هيثم والي، وأسلوبه الشائق، وهو ما زال شابًا أنيقًا في شكله، وهندامه، وأفكاره، وكتاباته، وهمته، وثقافته، وطروحاته.

هذا الشاب لوحة فنية جميلة رائعة تبارك الخالق في صياغتها، لنأخذ بيده وندعمه فنكون قد ساهمنا في صناعة موهبة فذة... وأريد هنا أن أحكي للعزيز هيثم (حجاية زغيرونة) أرجو أن تعجبه ويستفيد منها:

الموسيقار محمد عبد الوهاب في بداياته الفنية تبناه أمير الشعراء أحمد شوقي، وكان يومها قد تعودت الأذن المصرية على غناء المطربين أبو العلى، وعبده الحامولي، وألمظ، وسيد درويش، ثم غناء أم كلثوم في الموالد قبل نبوغها في الغناء.

أراد محمد عبد الوهاب أن يرتقي بالغناء المصري والموسيقي، ويخرج عن المألوف فأدخل عددًا من الآلات الموسيقية الغربية ولحَّن أغنية بأسلوب فني رائع،

وبتشجيع من أحمد شوقي وغناها في حفلة عامة، واندهش عندما شاهد عدم تفاعل بعض الحاضرين مع الأغنية، وكان اندهاشه أكثر عندما اطلع في الأيام اللاحقة على مجموعة من المجلات والصحف وفيها نقد لاذع سلبي بحقه، وتجهم لا مبرر له بأسلوب غنائه وتلحينه.

ابتأس وتكدر محمد عبد الوهاب وأصابه الاكتئاب واعتكف في داره، سأل عنه أحمد شوقي باشا فأخبروه بحاله فزاره في البيت، بكى محمد وهو يُطلع الباشا على مقالات ناقديه غير البنَّاءة.

تناول الباشا المجلات والصحف ووضعها فوق بعضها البعض وطلب من محمد عبد الوهاب أن يقف فوقها، وقال له:

- اسمع يا محمد، هذا النقد السلبي المسيء قد رفعك سلمة (باية) إلى العلا فلا تخف ولا تبتأس؛ لأن المستقبل لك وأقسم بالله على ذلك وسترى، ولكن عليك أن تصمد وتقبل التحدي، وتصمم على السير في الطريق الذي رسمته لنفسك.

وفعلاً مع الوقت أصبح محمد عبد الوهاب الموسيقار الكبير والمطرب المبدع الذي يشار له بالبنان، وقد خلدته أغانيه وموسيقاه وألحانه، ما أروع أغانيه: الجندول، النهر الخالد، من غير ليه، هان الود، مش أنا اللي أبكي، كل ده كان ليه، وألحانه الرائعة: أيظن، أعطني الناي وغني، أنت عمري، وسيرة الحب... والحديث يطول.

الكلب

بيتنا في بغداد حديقته كبيرة مطلة على شارعين من شوارع منطقة السيدية في بغداد، كنا نعاني من سرقة الكراسي وخرطوم الماء وقناني الغاز، ابني سامر لحل هذه المشكلة اشترى كلبًا صغيرًا، أبيض، جميلاً رباه على المه إلى أن كبر واشتد عوده، بعدها لم يجرؤ أحد على سرقة شيء من الحديقة فارتحنا.

زارنا أبي رحمه الله فوجد الكلب فامتعض وقال:

– تخلصوا من هذا الكلب قبل أن يتعلق الأولاد به.

فقلت:

– يا أبي، إن الكلب رمز الوفاء والأمانة.

قال:

– هذا صحيح، لكني لا أحبه؛ لأنه لا يميز بين الصالح والطالح، فهو ينبح على الخير وعلى الفسل (ينبح على الزين والرديء)، وهناك يا ولدي عدد من الناس مع الأسف نبَّاحة لها عادات الكلاب والعياذ بالله، فيا ولدي الناس نوعان لو خير اللي تجله (تحترمه) لو فسل اللي تجل (تحترم) نفسك منه.

الإنســان حيوان يقرأ ويكتب

قال أحد الحكماء الأوائل: إن الإنسان حيوان اجتماعي يميل بفطرته إلى الانضواء تحت لواء المجتمع.

وقالوا إن الإنسان بأصغريه، لسانه وجنانه (عقله)... وقالوا وقالوا.. وأخيرًا توصلوا إلى حكمة تقول: إن الانسان حيوان يقرأ ويكتب ولا يوجد كائن على هذه الأرض يجاريه بذلك (ومعنى يقرأ ويكتب، أي أنه يمتاز عن سائر الكائنات، وله عقل يفكر وأنامل تدبر)، فلو فرضنا أن الطب تطور ونجح مجموعة من الأطباء الاختصاصيين المهرة من نقل رأس الإنسان إلى ثور، وأخذ هذا العقل يفكر ماذا تستطيع حوافر الثور أن تدبر؟ ولو فرضنا العكس، أي أن هؤلاء الأطباء نجحوا في نقل رأس الثور إلى إنسان فهل عقل الثور قادر على تحريك أنامل الإنسان المبدعة؟ طبعًا الجواب كلا ثم كلا.

إذن عظمة الإنسان وجبروته واختراعاته واكتشافاته وحضاراته وتطوراته وخباثته، تكمن في عقله وأصابعه وما تبقى – في تقديري – منظومات مساعدة.

أقوام تسعى لنهايتها

استمعتُ مرة إلى محاضرة رجل دين من الفقهاء (الأقوام التي تسعى لنهايتها).

قال إن أيًّا من الأقوام عبر التاريخ اتخذوا من الغزو منهجًا، يسمون قومًا غزاة، وهذا ينتج لهم قادة طغاة يحاطون بشلة من الغلاة يسومون القوم الفساد، والقهر وشظف الحياة، فيجبرون القوم على الهجرة والشتات فالفُرقة والموات، ثم قام إلى سبورة أعدت لذلك فخط بالطبشور التالي: (غزاة، طغاة، غلاة، شتات، موات)

وبعد حين شاهدته صدفة في السوق وقد خلع العمامة والقفطان ولبس العقال والكوفيه والعباءة، فسلمت عليه وذكرته بالشخص الذي عرفني عليه فرحب بي أجمل ترحيب، وسألته: – مولانا، ماذا حصل؟

قال: أخي، إني رأيت معظم العراقيين قد لبسوا العمامة في هذا الزمن الأغبر ليستفيدوا منها فخلعتها.

دائمًا المشاكل والأزمات والحروب سببها واحد، أي شخص واحد، هتلر مثلاً كان شخصًا واحدًا، وبوش الابن كان شخصًا واحدًا، والقذافي أيضًا كان شخصًا واحدًا والقائمة تطول...

ابحثوا عن هذا الواحد بيننا وحجِّموه، وجزاكم الله عنا خير جزاء، ودمتم.

الحيـة

الظاهر الحياة مصالح، والمصلحة إذا اقتضت بيع الصداقة والقيم والمبادئ، هذا حال الدنيا مع الأسف الشديد، صديقان مثقفان أحدهما يحب الآخر ويستشيره ويأتمنه ويصدقه ويحترمه، وكأنهما إخوة.

وعندما وضعا في موقف صعب باع الصديق الصداقة، وفضَّل مصالحة الخاصة وغدر بصديقه الوفي الذي يتمنى له الخير والسعادة، وهذا يذكرني بحجاية زغيرونة.

يُحكَى أن أخوين خرجا مسافرين، فنَزلا في ظل شجرة يحيطها حجر، وبعد أن ارتاحا سويعة وأكلا وشربا، خرجت إليهما حية من تحت الحجر تحمل ليرة ذهب في فمها، فألقته إليهما فقالا (إن هذا لمن كنَز) سقياها وأطعماها وعادت لجحرها، وفي اليوم الثاني في نفس الموعد خرجت الحية وفي فمها ليرة ذهب وألقتها لهما، وهكذا أقاما ثلاثة أيام كل يوم تلقي لهم ليرة، قال الأخ الصغير لأخيه الكبير:

– إلى متى ننتظر يا أخي هذه الحية؟ لماذا لا نقتلها ونحفر هذا الكنْز فنأخذه؟

فنهاه الأخ الكبير عن ذلك، وقال له:

– ربما الكنْز عميق جدًا، وربما في مكان آخر، ولعلنا لا ندرك المال.

فأبى الأخ الصغير النصيحة وأخذ فأسًا، ورصد الحية حتى خرجت وضربها ضربة

جرحت رأسها ولم تقتلها، فثارت الحية ووثبت عليه فقتلته، وعادت لجحرها، فقام أخوه فدفنه، وأقام تحت الشجرة، وفي الغد خرجت الحية وفي رأسها شج ظاهر، وليس معها شيء، فقال لها:

- والله ما رضيت بما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك، فهل لكِ أن تجعلي الله بيننا فلا تَضُريني ولا أضرك؟ وترجعين إلى ما كنتِ عليه.

قالت الحية:

- لا.

قال:

- ولِمَ ذلك؟

قالت:

- إن نفسك لا تطيب لي أبدًا، وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبدًا، وأنا أذكر هذه الشجة برأسي، وما أعانيه من ألم ووجع رأس، لا جزاكم الله خيرًا.

حــزورة

حزورة (فزورة) من عشرة أسئلة:

١- ما الشيء واللا شيئ؟ [١]

٢- أربعة فيهم الروح ولم يولدوا من ذكرٍ وأنثى؟ [٢]

٣- رجل لا أب له؟ ورجل لا أم له؟ [٣]

٤- قبر يسير بصاحبه؟ [٤]

٥- أرض طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها؟ [٥]

٦- شجرة نبتت من غير ماء؟ [٦]

٧- شيء تنفس ولا روح له؟ [٧]

٨- الحكمة من المحو الذي في القمر؟ [٨]

٩- جماد يسعى ويتحول من حالة لحالة؟ [٩]

١٠- اليوم وأمس وغد وبعد غد؟ [١٠]

---

(١) الشيء = الماء، ولا شيء = الدنيا الفانية
(٢) آدم، وحواء، وناقة صالح، وخروف إسماعيل
(٣) عيسى، آدم
(٤) حوت يونس
(٥) بطن البحر حين انفلق ليعبر بنو إسرائيل مع موسى
(٦) شجرة اليقطين
(٧) الصباح
(٨) به يعرف الليل من النهار
(٩) عصا موسى
(١٠) اليوم = عمل، وأمس = مثل، وغدًا = أجل، وبعد غد = أمل

الـزمـن

"جثاثة" واحة غناء تقع بين الرمادي وكربلاء وتتبع إداريًا لكربلاء، تشتهر بينابيعها وعيون الماء الصافية الرقراقة، وبكثرة نخيلها الباسق، وأشهرها الشويثي الذي يضارع البرحي في جماله وحلاوته وغلاء سعره...

"كريم" انضباط عسكري يعمل معي في الحبانية، الابن البكر لشيخ جثاثة، قال لي إن أباه يدعوني إلى زيارة الواحة والتمتع بجمالها الأخاذ...

وبعد أن عشت ساعات ما أروعها وما أحلاها! ونحن نتناول الغداء دخلت فتاة في ربيعها السابع وهي تبكي وتشكو لأبيها أختها الكبيرة رشيدة التي ضربتها، وبعد دقائق قليلة دخلت علينا شابة غاية في الجمال والرشاقة وسلمت بكل أدب وحياء، وأرادت الخروج، لكن أبوها بادرها بالسؤال:

– لماذا ضربتِ أختك يا رشيدة؟

قالت:

– أبتِ، إن عين الماء الصافية كالزلال خلف دارنا هي مرآتي التي كل يوم أتزين وأنسل شعري عليها، يا أبتِ وأنا أمشط شعري وأعدل زينتي رمت أختي فريدة حجرًا في العين فعكرت وجه العين وأتلفت صفاءها، وأنا غاضبة من فريدة وأريد منك ومن أخي كريم أن تعيدا العين لصفائها الآن لأكمل زينتي.

ابتسم الأب الحكيم، وقال:

- يا بنيتي صفاء العين يحتاج إلى وقت، وثقي يا رشيدة، الزمن كفيل بعودة صفاء العين التي تحبينها، فاصبري يا بنيتي؛ فالصبر جميل.

العربنجي

أستاذ دكتور هاشم، صديق الطفولة، لازمني في الدراسة من الروضة والتمهيدي لغاية إرسالنا في بعثة دراسية، احتجته مرة وكان أستاذًا في كلية الهندسة لأعرف نتيجة ابني سامر في المرحلة النهائية من الكلية، فقال:

– اليوم الخميس، سأبشِّرك يوم الاثنين، فهمتني ؟!

شكرته وودعته... وعندما ركبنا السيارة قلت لسامر:

– مبروك النجاح.

عادت بي الذكريات إلى عام ١٩٥٢ يوم كنا في الصف الثاني الإبتدائي في مدرسة الملك فيصل الأول الإبتدائية النموذجية في العشار، وكانت عربات الربل التي تجرها الخيول في ذلك الزمن واسطة للنقل، هاشم كان مشاكسًا (وكيح) يعطيني كتبه ويركض خلف العربات ويتعلق خلفها، في أحد الأيام ضربه الحوذي (العربنجي) بالسوط على وجهه فأدماه وسقط من خلف العربة فكسرت يده اليسرى، كان أبوه وجده يحباني كثيرًا، وعندما عدنا من المستشفى إلى بيتهم، سألني والده:

– بشير، اصدقني القول، كيف حصل هذا؟

فحكيت لهما الحقيقة، فقال الجد وكان رجلاً حكيمًا الكل يحبه ويحترمه:

– اسمع يا ولدي هاشم، الذي شتمك وضربك عربنجي ما يتعاتب؛ لأنه لا يخاف ولا يستحي ولا يهتم للشتيمة ولا للضرب ولا يفهم معنى العتب، وهذا يا ولدي يذكرني بموال حفظته من جدك يا بشير في مجلسه أذكركم به ربما تفهمان معناه.

يا صاحِ أوصيك بأهل المكارم جلبْ... [(١)]

جَمع لَهُ وصيح بأقصى العوالم جلبْ... [(٢)]

الناس بيهم شريف وبينهم جلبْ

بيهم تحسبه وتنسبه وللعرض يَنسابْ

وبيهم يلدغك شبه العكَربه وينسابْ

إذا سبك النذل ما له عرض ينسابْ

وإذا عضكَ الجلبْ كلي جي تعض الجلبْ

ومعناها يا أولادي تمسكوا بأهل المكارم والأخلاق الحميدة، أهل القيم والمبادئ والكرم، وابتعدوا عن الذين يغدرون ويخونون الصداقة، والزاد والملح الذين لا يخجلون من العيب؛ لأنه مثل هكذا إنسان إذا سبك أو عضك لا تقدر أن تسبه أو تعضه، فهذا العربنجي من هذا النوع، مفهوم يا أولاد؟

– مفهوم جدو.

وعندما كبرنا ذَكّرَنا أبو هاشم بهذه الحكاية.

---

(١) جلبْ = أمسك

(٢) جلبْ = كريم

الحسد

يُحكَى أنه كان للخليفة العباسي المعتصم وزير مقرب منه يعتمد عليه في إدارة أمور البلاط، لاحظ المعتصم أحد خدم البلاط شابًا وسيمًا، موقد الذكاء، شديد الانتباه، حلو المنطق، يحفظ الشعر عند سماعه من أول مرة، غني بالشيء الكثير من الحكم والأمثال والشعر، فقربه المعتصم منه وجعله نديمه الخاص.

هذا الأمر أزعج الوزير وملأ الحسد والغيظ قلبه، فدبر مكيدة للشاب الوسيم، وتحايل عليه ودعاه لبيته لتناول الغداء الذي أكثر فيه من مادة الثوم، وقال للشاب:

- احذر أن يشم منك الخليفة رائحة الثوم هذه.

وذهب للخليفة وقال له:

- إن هذا الشاب الذي قربته منك، يقول للناس إن رائحة فم أمير المؤمنين أبخر، تتبخر منه روائح كريهة.

وعندما قدم الشاب شرابًا للخليفة وضع كمه على فمه مخافة أن يشم الخليفة رائحة الثوم، فامتعض الخليفة وكتب كتابًا إلى والي الكوفة (اضرب عنق حامله) وأعطاه للشاب الوسيم، وأمره بالذهاب لأمير الكوفة لينال المكافأة على خدماته، فاستغرب الوزير من الأمر فالتقى الشاب وقال له:

- أعطني هذا الكتاب وأنا أكرمك.

فناوله الكتاب وقال له:

- الزم داري إلى أن أعود.

وذهب الوزير مزهوًا لأمير الكوفة، وسلمه الكتاب فدق عنقه، وبعد عدة أيام سأل الخليفة عن الوزير فأخبروه بالأمر، فأمر بأحضار الشاب فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له:

- أنت قلت عني للناس أني أبخر؟

فقال:

- معاذ الله مولاي، وإنما كان ذلك مكرًا من الوزير وحسدًا.

وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه مزيدًا من الثوم وما جرى له معه، فقال المعتصم:

- قاتل الله الحسد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله.

ثم خلع على الشاب الوسيم واتخذه وزيرًا له، وقال له:

- اسمع مني، يصل الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود، أولها: غمٌ لا ينقطع، الثانية: مصيبة لا تُؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يُحمَد عليها، الرابعة: سخط الرب، والخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.

وقال له:

- يا هذا، اعلم أن خمسة لا يهنأ لصاحبها عيش: الحقد، والحسد، وسوء الخُلُق، والغدر بالصديق، والكذب على الناس.

لا يخاف ولا يستحي

كنت موظفًا حكوميًا في قاعدة على الجوية في الناصرية، كان الوقت ربيعًا في شهر نيسان، والصيد بشكل عام ممنوع، ويحاسب عليه القانون، ولهذا صيادو الأسماك في الهور لا يستطيعوا نقل أسماكهم إلى المدينة خوفًا من السيطرات.

كنا نحن مجموعة أصدقاء يوم الجمعة، نذهب بسيارة عسكرية ومعنا زورق مطاطي نوعًا ما كبير، إلى منطقة العكيكة في سوق الشيوخ ومنها إلى كرمة سعد، وهناك شخص اسمه نعيم أبو شوارب، يعرف مداخل الهور ومخارجه ويعرف الصيادين واحدًا واحدًا، المهم ننفخ الزورق ونركب المحرك ونندفع في أعماق الهور، وهناك نجد السمك مكدسًا بكميات كبيرة وبأسعار بسيطة، نملأ الزورق ونعود للقاعدة ونوزعه بيننا والباقي نعطيه لمطعم الضباط للاستفادة منه، والحكاية أني أرسلت ست سمكات كبيرة بيد السائق إلى البيت في بغداد، وفي نهاية الأسبوع ذهبت إلى البيت وسألت عن السمك فقالوا:

– أي سمك؟

سألت السائق وكان أمينًا صادقًا:

– أين السمك يا داخل؟

قال:

- سيدي، لم أجد أحدًا بالبيت فسلمته إلى جاركم أبو محمد، وطلبت منهم أن يسلموه إلى أم سامر عند عودتها من المدرسة.

فذهبت لبيت أبو محمد وطالبته بالسمك فقال:

- والله أم محمد، وزعته على بيوت بناتنا وإحنا حصتنا سمكتين أكلناهن.

لا أعرف ماذا أقول له وكان عذره أنكس من فعله، في اليوم الثاني حكيت لأبي رحمه الله الحكاية ورجوته أن يعاتب أبو محمد هذا، فقال:

- يا ولدي، هذا إنسان ما يتعاتب؛ لأنه لا يخاف ولا يستحي.

كسر حاجز الخوف

يُحكَى أنه في زمن العثمانيين كان الجيش الانكشاري يحمل المدفعية على ظهور الجمال ذات السنامين، وفي كثير من المواقف القتالية كانت المدفعية ترمي القذائف من على ظهور الجمال، والجمال لا تجفل ولا يعتريها الخوف... مع الزمن شاخ عدد من هذه الجمال، فأمر السلطان بإحالتها إلى التقاعد والاعتناء بها باعتبارها جمال السلطان.

نسبوا لها سائسًا يسوسها ويعتني بها، هذا السائس يطلقها بأسواق الخضرة لتأكل ما تريد وما تشتهي، هذه الجمال تعبث في السوق تأكل ما لذ وما طاب من الخضروات المعروضة للبيع... تكررت الحالة كل يوم، وأصحاب المخضر عاجزون عن عمل أي شيء خوفًا من السلطان، أشار عليهم كبيرهم أن يأتي غدًا كل واحد منهم ومعهُ تَنَكهْ وعصا وحال دخول جمال السلطان السوق الكل تدق مرةً واحدةً فتحدث صوتًا عاليًا تخاف منه الجمال فتهرب من السوق... وهكذا عندما دخلت جمال السلطان السوق قرع الجميع فحدث صوت مدوي، ولكن الجمال لم تبالِ بهذا الصوت واستمرت بأكل الخضروات المعروضة، والسائس يضحك على البقالين ويهز بيده مستهزئًا بهم وهو يقول:

- يا ناس، هذه الجمال كانت في الحرب المدفعية ترمي القذائف من على ظهورها فلم تجفل ولم تخف، فكيف تخاف من صوت تَنَكهْ؟ فهل أصابكم مسٌّ من الجنون؟ إنها كسرت حاجز الخوف أيها المجانين.

الشعب العراقي كسر حاجز الخوف وعليه ألا يخاف من دق طبول الأحزاب الدينية والمليشيات والمافيات، والحلول الترقيعية، والوعود الكاذبة، وأعمال التسويف، والضحك على الذقون، (فلا خير في أمةٍ سياستها ثعلبة واقتصادها شعوذة أما صناعتها ففي الترقيع).

العراق أمكم، شرفكم، مستقبل أولادكم، اصمدوا أيها الشجعان لحين التغيير الشامل والكامل، فالله معكم، والحق معكم، والقوة معكم، وأنتم مصدر السلطات وقراراتكم أعلى من الدستور، وأعلى من مجلس النواب، وأعلى من كل سلطة، فأنتم الشعب أيها الأبطال.

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلـــي ولابد للقيـــد أن ينكسر

وفـــاء زوجـــة

يُحكَى أن النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك المناذرة في الحيرة، طلع يومًا أعلى قصره يتفرج، لاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب القصر لم يرى الراؤون مثلها، فسأل الجواري عنها، فقالت كبيرة الجواري:

– مولاي، إنها زوجة خادمك الخاص فيروز.

الملك في حيرة من أمره، من جانب إنه يحب فيروز لنباهته وتوقد ذكائه وفطنته، ومن جانب أنه أحب هذه الفتاة وشغف بها، استدعى الملك فيروز وأمره أن يجهز نفسه للذهاب لتسليم كتاب خاص من الملك إلى والي البحرين ويأتيه بالجواب، قال فيروز:

– مولاي، أمرًا وطاعة.

أخذ فيروز الكتاب وذهب لمنْزله ليجهز نفسه ووضعها تحت الوسادة، وفي أول تباشير الصباح ودَّع زوجته المخلصة سليمى ولم يعلم بما دبره له الملك من أمر، تخفى الملك وذهب إلى دار فيروز ودق الباب:

– مَن الطارق؟

– أنا الملك سيد زوجك.

فتحت الباب سليمى، دخل الملك وجلس وسليمى مستغربة من هذه الزيارة، وقالت:

– ما سر زيارة الملك؟

قال:

– ألا ترحبين بزيارتي؟

قالت:

– بلى، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترُكُ ماءَكم مِن غَير ورِدٍ وذاك لِكَثرَةِ الورادِ فيه
إذا سقطَ الذُبابُ على طَعامٍ رَفعتُ يَدي ونفسي تَشتَهيه
وتَجتَنِبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ إذا كانَ الكِلاب وَلِغنَ فيه

ثم أردفت:

– أما سمعت يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شَفةُ الغرام بنا وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبدًا قد أكل الليثُ فضلةَ الذيبِ

ثم قالت:

– أيها الملك الجليل ونحن بناتك وحرائرك وفي حمايتك، وشرفنا شرفك، وكلنا أمانة في رقبتك، وزوجي من المخلصين في خدمتك وأمين على عائلتك.

فاستحى الملك من كلامها وتصبب العرق من محياه وارتبك وخرج على الفور ناسيًا الصولجان، هذا ما كان من الملك، أما ما كان من فيروز تفقد الكتاب فتذكر أنه نسيه تحت الوسادة فعاد على الفور، فوافق وصوله عقب خروج الملك، وأصابه الذهول عندما وجد صولجان الملك ورائحة عطر الملك الذي

يعرفه، وفهم لماذا أرسله الملك بهذه المهمة البعيدة، لكنه لم ينبس ببنت شفة وعالج الموضوع بحكمة وتأنٍ، أخذ الكتاب وقضى أمر الملك وعاد بالجواب وأكرمه الملك بمبلغ من المال، واشتري منه هدية ثمينة لزوجته وهدايا لأهلها وطلب منها أن ترافقه لزيارة بيت أبيها، فرافقته ورحبوا بهم ضيوف أعزاء وفرحوا بالهدايا الثمينة، وتركها عند أهلها وعاد لبيته، ومر شهران وثلاثة ولم يسأل عن زوجته، فأتى أخوها إلى فيروز وسأله عن سبب زعله من سليمى، فقال:

– إنها ابنتكم، وقد أعدتها سالمة غانمة لكم.

فقال الأخ:

– يا فيروز، أما تُعلمنا السبب أو شكوناك للملك؟

فقال:

– افعلوا ما شئتم فقد طابت نفسي منها.

وهكذا حضر الجميع جلسة القضاء التى حضرها الملك أيضًا، فتكلم أبو سليمى قائلاً:

– مولاي القاضي، إني يا سيدي قد أجرت فيروز هذا بستانًا عامرًا مثمرًا سالم الحيطان ببئر ماء معين لا ينضب، فأكل ثمره وخرب بئره وهدم حيطانه.

فقال القاضي:

– ما تقول يافيروز؟

قال:

– والله يا مولاي، نعم استلمت البستان وسلمته أحسن مما كان.

– ما قولك يا أبا سليمى.

قال:

– يا مولاي، أريد أن اعرف سبب رده البستان.

– ماذا تقول يا فيروز؟ اذكر لنا سبب ردك البستان.

قال:

– مولاي، والله ما رددت البستان كراهةً فيه، وإنما جئت يومًا من الأيام فوجدت فيه أثر لأسد فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان إكرامًا للأسد.

فاعتدل الملك في جلسته وكان متكئًا وقال:

– يا فيروز ارجع لبستانك آمنًا مطمئنًا، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرًا، ولم يمس منه ورقًا ولا ثمرًا ولا شيئًا، ولم يلبث به غير لحظة يسيرة، وخرج بخفي حنين خجلاً، والله ما رأى الأسد مثل بستانك أمينًا محصنًا ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره، فارجع يا فيروز لبستانك مطمئنًا راضيًا فإنه نعم البستان الأمين المبارك.

فرجع فيروز إلى داره وردَّ زوجته الشريفة العفيفة الحكيمة، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء وعاشا عيشة سعيدة في ثبات ونبات وخير بركة من المال والأولاد والبنات.

حروف الهجاء

تنافس لغويان، وكلٌّ منهم يدَّعي أنه أبلغ وأكثر مفردات في اللغة من الآخر، فاحتكما عند أبو الأسود الدؤلي، فقال لهم:

- أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه؟

فقال الأول:

- أنا لها.

- هات.

- أنف، بطن، ترقوة[١]، ثغر، جمجمة، حلق، خد، دماغ، ذكَر، رقبة، زند، ساق، شفة، صدر، ضلع، طُحَال، ظهر، عين، غببة[٢]، فم، قفا، كف، لسان، لسان، منخر، نُغنُغ[٣]، هامة، وجه، يد، فهذه آخر حروف المعجم.

فقال الثاني:

- أنا أقولها في الإنسان مرتين.

فرد الأول:

- أنا أقولها ثلاثًا.

فقال له أبو الأسود:

(١) الترقوة: عظمة بين النحر والعاتق وجمعها تراق
(٢) الغبب: ما يتدلى منتفخًا تحت الحنك
(٣) النغنغ: اللحمة في الحلق

- لك ما تتمنى.

- أنف، أنسان، أذن - بصر، بز، بطن - ترقوة، تمرة، تينة - ثغر، ثنايا، ثدي - جمجمة، جبهه، جنب - حلق، حنك، حاجب - خد، خنصر، خاصرة - دبر، دماغ، دردر - ذكَر، ذقن، ذراع - رقبة، رأس، ركبة - زند، زردمة.

فضحك أبو الأسود وقال له:

- أنت الفائز إن قلتها بسياق آخر وبمفردات أخرى.

فقال:

- ساق، سرة، سبابة - شفة، شعر، شارب - صدغ، صلعة، صدر - ضلع، ضفيرة، ضرس - طحال، طرة، طرف - ظهر، ظفر، ظلم - عين، عنق، عاتق - غببة، غلضمة، غنة - فم، فؤاد، فك - قلب، قدم، قفا - كف، كتف، كعب - لسان، لحية، لوح - مرفق، منكب، منخر - نغنوغ، ناب، نن - هامة، هيئة، هيف - وجه، وجنة، ورك - يمين، يسار، يافوخ.

فقال أبو الأسود:

- أحسنت وأجدت.

فرد عليه:

- أتريدها رابعًا؟

قال:

- كفى والله ما تزيد، فأنت الفائز وأحسنت وأجدت.

وأثنى عليه

مواقف نبيلة

راجعتنا امرأة مندائية مسنة برفقة ابنتها في منتدى القادسية في بغداد، وكنت يومها رئيسًا لمجلس شئون الطائفة، كنا أنا وأبو مروان، باعتباره نائب رئيس نادي التعارف نتحاور لتنسيق بعض الأمور بين مؤسسات الطائفة في ذلك الزمن الجميل، جاءت امرأة وقابلتنا، وبكت والحزن والألم والعوز مخيم عليها، وبعد أن هدأت وتوقف نحيبها قالت بصوت متهدج خجول:

– يا أهل الغيرة أنا داخلة في بختكم تساعدوني، ابنتي الكبيرة عندها ثلاثة أولاد تركها زوجها ومات أبوها وليس عندنا مُعيل، ابنتي ترقد في فراش المرض وقد شخَّص الأطباء أنها مصابة بسرطان في الرحم، ولا نستطيع إيقاف النْزيف إلا باستئصال الرحم والمبايض بالكامل، والعملية تكلف ٣٥٠٠٠٠ ثلاثمائة وخمسون ألف دينار في دار التمريض الخاص في مدينة الطب لتوفر الإمكانات هناك حسب قول الطبيب الأخصائي، وأنا لا أملك شيئًا.

فوعدناها خيرًا، كانت أيام العيد الكبير(دهوة ربا) ونادي التعارف يقيم حفلة كبيرة بالمناسبة، وفي منتصف الحفلة مسك أبو مروان الشهم الميكروفون وقال:

– إخواني امرأة مندائية تستنجد بكم أيها الغيارى.

وحكى لهم مصابها وقال هذه مائة ألف دينار تبرع مني أنا شفيق بدر كمر، وباب التبرع مفتوح أيها المندائيون المحسنون يا أهل الغيرة والحمية، توالت التبرعات فجمعنا في دقائق معدودة نصف مليون دينار.

في اليوم الثاني سلمناها إلى المرأة وقال لها أبو مروان:

- ادفعي ثمن العملية والباقي احتفظي به للعلاج والدواء وبقوة هيي وماري ومنددهيي ابنتك مشافاة، معافاة.

هذه واحدة من مواقف طيب الذكر أبو مروان رواه لهويلي ليكن مثواه الما دهوره مع الأصفياء المحسنين.



المؤلف في سطور

- الدكتور بشير عبد الواحد يوسف.
- وُلِد في مدينة العمارة (محافظة ميسان) في ١٢-٨-١٩٤٣م وانتقل مع أهله في نفس العام إلى مدينة البصرة وأكمل دراسته الإبتدائية والمتوسطة والإعدادية في مدارسها.
- قُبل في بعثة دراسية على نفقة الدولة، وحصل على الشهادات:

١- بكالوريوس هندسة طيران.

٢- ماجستير هندسة طيران.

٣- دكتوراه علوم سياسية.

٤- دكتوراه دراسات مندائية (أديان مقارنة).

- للمؤلف كتب مترجمة وكتب علمية:

١- بناء هيكل الطائرات ومنظوماتها.

٢- بناء محرك الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٣- صيانة الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٤- رئيس اللجنة المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين (الكنز العظيم).

- البريد الإلكتروني : bashir_1208@yahoo.com

الفهرس



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27238004

www.shams-group.net